المركز القومي للترجمة

ميراث الترجمة

يوسف أشباخ

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

الجزء الأول

ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان

تقديم وتنويه: سليمان العطار

1879/2



كيف حكم البربر الأندلس؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبراطوريتين قامتا فى المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سمت أولى الدولتين نفسها دولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها دولة الموحدين. هذه القصة الطويلة هى موضوع هذا الكتاب الممتاز الذى ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربى العلامة محمد عبدالله عنان.

والأهمية البالغة لهذا الكتاب ترجع لكون مؤلفه مطلعا على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر الأوروبية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاثة، وارتباطها الوثيق وتداخلها. والمؤلف أيضا ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوروبية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (1837) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة.

تصميم الغلاف: ياسر عبد القوى

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1879
- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: الجزء الأول
- يوسف أشباخ
- محمد عبد الله عنان
- سليمان العطار
- 2014

هذه ترجمة كتاب:
Geschichte Spaniens und Portugals zur Zeit der Herrschaft
der Almorawiden und Almohaden
Von: Joseph Aschbach

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ الأندلس

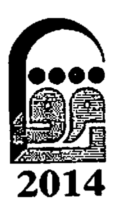
فى عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الأول)

تأليـــــف : يوســـف أشـــباخ

ترجمة وتعليق : محمد عبد الله عنان

تقديم وتنـويه : ســليمان العـــطار



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أشباخ، يوسف.
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: الجزء الأول/
تأليف: يوسف أشباخ، ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان
تقديم وتنويه: سليمان العطار.
القاهرة: (المركز القومى للترجمة)، ٢٠١٤
٢٩٢ ص؛ ٢٤ سم
١ - الأندلس - تاريخ - الموحدون.
٢ - الأندلس - تاريخ - الخلفاء المرابطون.
(أ) عنان، محمد عبد الله (مترجم).
(ب) العطار، سليمان (تقديم).
(جـ) العنوان
٩٥٣,٠٧١٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٥٠٤٨
الترقيم الدولى 6 - 493 - 704 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم وتنويه

بقلم : سليمان العطار

الأندلس تعريب لكلمة جرمانية هى اسم علم يشير إلى مجموعة قبائل من أصل جرمانى كانت تعيش فى جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، والعرب تسمى فى معظم الأحوال مكان مضرب القبيلة لخيامها وبيوتها باسم القبيلة، وهكذا ظنوا أن ذلك هو اسم البلاد التى كانوا يفتتحونها فى اللحظات الأولى للفتح . وجاءت الكلمة الجديدة مليئة بإيقاعات تجذب شاعرية من رنينها الصوتى، ومن أحداث عجيبة وعالم غرائبى بالنسبة للفاتحين من عرب وبربر . كانت حياة العربى على أرض الأندلس سلسلة من المغامرات العسكرية والحضارية، خاصة فى مجالات الملابس والمودة والموسيقى والتذوق الفنى (لكل شىء حتى الطعام) والمعمار والشعر والخلق التزيينى من لعب بالمياه والبستنة فى باحات القصور بل والبيوت المتواضعة وفى الشوارع والميادين حيث ابتدعوا المنازه العامة . وعند سقوط آخر المعاقل العربية فى غرناطة اكتسبت شاعرية لفظة الأندلس عمقا رومانسيا غامضا يسحر حتى من لايعرفون شيئا عن تاريخ الكلمة وما تشير إليه، فهاهى تغطى كثيرا من واجهات المحال والشركات والقرى الشاطئية، كنوافذ نحو فردوس مفقود.

وتاريخ الأندلس العربى شارك فى صنعه بجانب اللاعب العربى الرئيسى كثير من اللاعبين الثانويين من أعراق وأديان متعددة فى الداخل الأندلسى بجانب اللاعبين العالميين من عرب المشرق ومن بيزنطيين ومن ملوك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومن قبائل همجية من أقصى شمال أوربا أطلق عليهم العرب اسم المجوس (النورمانديين) . وقد ظلت الأندلس بورصة عالمية للحروب والصراعات العنيفة المعلنة والسرية أكثر من ثمانية قرون، دون أن يحول ذلك بين سكانها من العرب وبين بناء حضارة مذهلة، كانت الموتور المحرك للنهضة الأوربية، وعلى غير المتوقع لم يكن لها كبير صدى فى المشرق العربى، لأنه كان يتجه نحو سبات عميق تاركا أمر الدفاع عن الدولة للفرس تارة وللأتراك أو للأكراد تارة أخرى، أما العنصر العربى الذى قام بالفتوحات الهائلة، وانفتح على حضارات العام أجمع، فقد اختفى أثره الإبداعى والمستلهم تدريجيا .

وأحد اللاعبين المهمين فى صنع بعض أهم أحداث تاريخ الأندلس دون أن يلعب دورا حضاريا واضحا هو العنصر البربرى المغربى، وهو عنصر محارب بدوى النزعة، استعان بالأندلسيين فى إقامة عمارته وموسيقاه وأدبه والأهم من ذلك فى زراعته حيث امتلك الأندلسيون أعلى تقنية فى هندسة الرى واستخراج المياه واستخدام مياه المطر . وفى رأيى أن أكثر ما يملك الشمال الأفريقى حتى اليوم من موسيقى وعمارة وصناعات يدوية وأنظمة زراعة هى كل ما تبقى حيا وفاعلا من الأندلس .

وسوف يحكم العنصر البربرى الأندلس أكثر من قرن ونصف من الزمان، منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حتى منتصف القرن الثالث عشر، ومع ذلك، منذ الفتح وحتى السقوط كان لهم دور ملحوظ لم ينقطع

سواء بالسلب أو الإيجاب، لكن أهم دور لهم هو معاونة العنصر العربى على امتلاك النفس الطويل فى حرب القرون الثمانية، وهى أطول حرب فى التاريخ، وذلك بإمداد العرب بالعنصر البشرى المقاتل لتعويض من يستشهد فى تلك الحرب اللانهائية الأجل، فى مواجهة للنفس الطويل المسيحى الذى تحقق عبر متطوعين من الإفرنجة فى سيل لايتوقف .

لكن كيف حكم البربر الأندلس ؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبرطوريتين قامتا فى المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سمَّت أول الدولتين نفسها بدولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها بدولة الموحدين . هذه القصة الطويلة هى موضوع هذا الكتاب الممتاز الذى ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربى العلامة محمد عبدالله عنان، الفلاح المصرى الذى ولد فى قرية بشتا من أحواز ميت غمر دقهلية عام ١٨٩٦ . إنه ليس مجرد مترجم بين المترجمين لكنه صاحب مشروع كبير فرَّغ له نفسه ربع قرن من الزمان ١٩٥٢ - ١٩٧٧، هو مشروع كتابة تاريخ الأندلس من ناحية، ثم التفرغ لبعض الأعمال فى خدمة هذا التاريخ فيما تبقى من عمره بعد انقضاء الربع قرن المذكور الذى توَّجَه بثمانية مجلدات تضمنت كل التاريخ الأندلسى ليصبح بين القلائل على مستوى العالم الذى يؤرخ لحضارة من أطول الحضارات الإنسانية من بدايتها حتى نهايتها دون أن يفوته فى المجلد الأخير أن يصحب القارئ فى رحلة يزور به ما تبقى من آثار وبصمات الأندلس فى إسبانيا المعاصرة . ونظن أن هذا المشروع قد بدأ فى ذهنه فى الأربعينيات ولكن المناصب التى تقلدها كانت تتيح له وقتا محدودا لايتسع لتحقيق هذا الإنجاز الكبير . ويرجع ظننا لاختياره لكتاب مكتوب بالألمانية هو "تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين" للمستشرق البارز والمؤرخ الألمانى

"يوسف أشباخ "، وذلك لتقديمه للقارئ العربى، هو - كما سيأتى بعد- اطلاع مؤلفه على المصادر الإسبانية التى لا يتاح لعربى سهولة الاطلاع عليها، كتاب بالغ الأهمية لمن يتطلع لمعرفة تاريخ الأندلس حتى بدايات ظهور مملكة غرناطة، وهى الفترة التى حملت فيها شبه الجزيرة الإيبيرية اسم الأندلس، والذى انقسم إلى ثلاثة أقسام : الأندلس الأعلى وهو الذى يضم الممالك المسيحية فى شمال شبه الجزيرة، والأندلس الأدنى وهو الجنوب الذى يضم معظم الوجود العربى فى الأندلس، وبين الأندلسين الأعلى والأدنى يوجد الثغور وهى مناطق القتال على الحدود بين الشمال والجنوب، وأطلق عليها الأندلس الأوسط وكان معظمها عربيًا، بل كلها عربى الهوية حتى سقوط طليطلة واسطة عقد أندلس الثغور حيث مدن وقرى الرباط والجهاد . وقد تقلصت الأندلس - بعد رحيل الموحدين ثانى الإمبراطوريتين - إلى مملكة صغيرة، لكن ذكية ومبتكرة وماكرة تمكنت من العيش قرنين ونصف كوجود رمزى وكأندلس مصغر، ويكفى لنعرف شيئا عن حضارة هذه المملكة، ذلك المشهد الذى أذهل الإسبان عند دخولهم المدينة بعد أن سلّم أبو عبدالله الصغير مفتاحها لملكى إسبانيا الكاثوليكيين : ظل المعلمون يلقون دروسهم فى مساجدهم، والمزارعون يفلحون أرضهم، وكل ذى شأن فى شأنه مشغول، دون أن يلتفتوا للغازين أو يعيروهم التفاتا، هكذا كانت غرناطة، وأظن أنها تكبير لقيمة أندلسية مدهشة وهى قيمة العمل وعدم السماح بانقطاعه، ولعل ذلك يشرح قيام كل هذه الحضارة وسط كل هذه الحروب والصراعات .

وأما الأهمية البالغة لهذا الكتاب - بين يدى القارئ- كما سبق ذكره فترجع لكون مؤلفه مطلعا على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر

الأوربية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاث، وارتباطها الوثيق وتداخلها .
والمؤلف أيضا ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوربية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (١٨٣٧) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة، وهذا النقص حاول المترجم تداركه عند الترجمة التى تمت بعد قرن من الزمان على صدور الكتاب بالألمانية . ولكن يبقى الكتاب مستوفيا مصادره الأوربية دون العربية، الأمر الذى دفع محمد عبد الله عنان إلى أن يصدر فى تاريخه الكامل عن الأندلس مجلدين عن عصرى المرابطين والموحدين يتضمن كل ما ورد فى المصادر العربية عن الموضوع ليصبح المجلدان مكملين للعمل الكبير لأشباخ وللمترجم معا، وكأن تاريخ عنان يكتمل آخره التأليفى بأوله الترجمانى، وأقول الترجمانى لا المترجَم، لأن الترجمة صاحبها هوامش وإيضاحات وتصويبات ومعجم لألفاظ البلاد بالعربية مما جعل "عنان" ترجمانا أكثر منه مترجما . ومع هذه الترجمانية بدأ المشروع فى مصر بين ١٩٥٠ و١٩٧٤ وانتهى فى المغرب فى الفترة بين١٩٧٤ و١٩٨١ حيث استدعاه الملك الحسن الثانى للاشتراك فى فهرسة خزانة الكتب الملكية بعد انتهائه من إصدار" تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس". وخلال قيامه بذلك نهض عنان بتحقيق الموسوعة الثالثة لتاريخ الأندلس الأدبى والسياسى والحضارى (بعد موسوعتى النفح والذخيرة) : "الإحاطة فى أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب بجانب كتابه "ريحانة الكتاب ونجمة المنتاب" .

وكما بدأت بوادر مشروع عنان قبل صدور تاريخه الأندلسى بثلاثة عقود، حدث شيء شبيه ليوسف أشباخ إذ بدأ علاقته بالأندلس بدراسة تاريخ القوط الغربيين الذين كانوا يحكمون إسبانيا عند الفتح العربى، وهزم طارق ابن زياد آخر ملوكهم الذى أطلق عليه العرب اسم "ريق لذ" تعريبا ل "رودريجو" . وكان من المنطقى أن يدرس أهم فترات تاريخ الأندلس وأطولها، فبدأ بتاريخ الدولة الأموية فى قرطبة، ثم بهذا الكتاب الذى يبدأ ببسط تاريخ ملوك الطوائف، وكأن مشروعه يقترب من مشروع "عنان"، إذ لاينقصه إلا تاريخ غرناطة وسقوطها، ثم الوجود المادى والمعنوى للأندلس فى إسبانيا المعاصرة، والذى شغل المجلد الثامن من موسوعة عنان عن تاريخ الأندلس، مقابل نقص تاريخ عنان فترة ما قبل الغزو من تاريخ للقوط الغربيين الذى كان قد مهد دون جدال لاستقبال سكان البلاد للعرب بالترحاب لتخليصهم من ظلم آخر ملوك القوط الغربيين وأنصاره من طغاة الإقطاعيين. ويبقى الطريف فى أمر الرجلين عنان وأشباخ، فالأول من أصول مغربية وأندلسية، والقوط الغربيون من أصول ألمانية جديرون باهتمام عالم الإسبانيات والمستعرب فى آن الألمانى أشباخ ثانى الاثنين اللذين كانت لهما الريادة فى بلديهما للتأريخ للأندلس .

أخيرا نقف معجبين بهذا الجهد الإستراتيجى للمركز القومى للترجمة وعلى رأسه الصديق الطموح والمفكر جابر عصفور لاستكمال الغياب فى المكتبة العربية لبعض الأعمال المركزية للمستعربين والمستشرقين من إسبانيا وكل أوربا بتقديم الكتب المترجمة الكلاسيكية (أى التى لاتفقد قيمتها رغم قدمها بل تزداد قيمة وتزداد الحاجة إليها) والتى نفدت بل واختفت من المكتبات العامة والخاصة، وهنا يأتى دور دؤوب للصديق الموسوعى

مصطفى لبيب صاحب التصانيف فى تصنيف العلوم، وصاحب الذاكرة بعيدة المدى فى التنظيم والدقة والتصنيف لكل كتاب صدر بالعربية مترجما أو مؤلفا أو محققا، ليقترح اسم الكتب المشار إليها على المركز فى حدود خططه واستراتيجياته، ويقوم بعناء إيجاد نسخة منها وما يتطلبه فعل النشر من إجراءات وجهد، فللصديقين العزيزين الشكر باسم القراء وباسمى، ولاسيما أن إحياء الأندلسيات فعل مزدوج : زخم للنهضة وشعاع يصب فى التنوير.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لبث تاريخ الأندلس أو تاريخ اسبانيا المسلمة ، كما تعرضه الروايات والمصادر الاسلامية مجهولا من الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ؛ وكان المؤرخون الأسبان قلما يتناولون هذا القسم الهام من تاريخ اسبانيا القوى بشىء من الإفاضة ، فاذا تناولوه كان جل اعتمادهم على المصادر النصرانية ، وهى جميعاً شديدة التأثر بالعوامل والاعتبارات القومية والدينية .

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، وضع العلامة الغزيرى اللبنانى الذى يعرفه البحث الغربى باسم Casiri — بتكليف الحكومة الاسبانية — فهرساً جامعاً باللاتينية لمجموعة المخطوطات العربية بقصر الاسكوريال ، ظهر فى مجلدين كبيرين بين سنتى ١٧٦٠ و ١٧٧٠[1] وكشف مؤلفه عما نقل فيه من نبذ تاريخية وجغرافية وأدبية ، سواء بأصلها العربى أو مترجمة إلى اللاتينية ، عن أهمية هذه المجموعة وقيمتها بالنسبة لتاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ اسبانيا فى عهد الدول الاسلامية

(١) Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis (المكتبة العربية الاسبانية بالاسكوريال)

بوجه عام . وعندئذ اتجهت عناية البحث الغربى لأول مرة إلى مراجعة هذه المصادر العربية ، والتنقيب فيها عن كل ما يتعلق بتاريخ اسبانيا المسلمة وتاريخ الحضارة الاسلامية ، وخواص المجتمع الاسلامى ؛ وظهر أثر هذه العناية بالأخص فى بعض الآثار النصرانية الجامعة التى ظهرت فى ذلك الحين مثل كتاب أندريس Andrés فى « أصول الأدب »[١] ، وكتاب ماسدى Masdeu المسمى « بالتاريخ النقدى لاسبانيا والحضارة الاسبانية »[٢] ، وهو يعنى فيه عناية خاصة بالتحدث عن الحضارة الأندلسية والتفكير الاسلامى فى اسبانيا المسلمة . ثم جاء المستشرق الاسبانى يوسف كوندى Condé ، فوضع مؤلفه الشهير « تاريخ دولة العرب فى اسبانيا » Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana مشتقاً من المصادر العربية ، فى ثلاثة مجلدات كبيرة ظهرت بين سنتى ١٨١٠ و ١٨١١ ؛ ومع أن كوندى ينقل كثيراً من الروايات العربية بلا دقة وتمحيص ، ويقع فى كثير من الأخطاء التاريخية ، فان مؤلفه اعتبر وقت صدوره فتحاً جديداً فى التاريخ الاسبانى ، وكان فى الواقع أول مؤلف أوربى يعرض على الغرب تاريخ الأندلس وفقاً لوجهة النظر الاسلامية .

ومن ذلك الحين بدأت المصادر العربية تتخذ مكانتها إلى جانب المصادر النصرانية فى كل بحث يتعلق باسبانيا المسلمة ؛ وظهرت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، عن تاريخ الأندلس، عدة مؤلفات أوربية جديدة ، عنيت بمراجعة المصادر الاسلامية عناية حسنة ، وعنى المستشرقون فى نفس الوقت بنشر الآثار العربية المتعلقة بتاريخ الأندلس . فنشر العلامة السويدى تورنبرج Tornberg كتاب « روض القرطاس » لأبى الحسن على بن أبى زرع ، مقروناً بترجمة لاتينية (أوبساله سنة ١٨٤٣) ، ونشر العلامة الهولندى رينهارت دوزى

---

(١) Andrés, Juan: Dell'origine progressi, estato attuale d'ogni Littrature (فى أحوال الآداب وتقدمها وأحوالها الخاصة) (7 vols, Parma 1783 - 799)

(٢) Masdeu : Historia critica de Espana y dé la cultura espanola (178 - 1805

R. Dozy الجزأين الأول والثانى من كتاب « البيان المغرب » لابن عـذارى المراكشى (ليدن سنة ١٨٤٨ — ١٨٥١)، ووضع المستشرق الاسبانى جاينجوس Gayangos ، ترجمة انكليزية لـكتاب نفح الطيب للمقرى نشرت بعناية الجمعيـة الأسيوية الملـكية البريطانية بين سنتى ١٨٤٠و١٨٤٣[1] ، ثم نشر الجزآن الأول والثانى من نفح الطيب بالعربية فى ليدن ، ونشرت لهما ترجمة فرنسية (سنة ١٨٥٥ ١٨٦٢) ، ونشر المستشرق الانكليزى جونس Jones ترجمـة انكليزية للقسم الخاص بفتح الأندلس من تاريخ ابن عبد الحكم « أخبار مصر وفتوحها » (جتنجن سنة ١٨٥٨) ، ونشر المستشرق الألـمانى ميلر Mueller كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » مع ترجمة ألـمانية (ميونيخ سنة ١٨٦٣) ، ونشرت بعد ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر بعناية المستشرقين طائفة كبيرة من الآثار العربيـة الأندلسية ، كان فى مقدمتها المـكتبة الأندلسية التى ظهرت فى عشرة مجلدات كبيرة من سنتى ١٨٨٣ و ١٨٩٥

ومؤلف كتابنا هذا المؤرخ الألمـانى يوسف اشباخ Joseph Aschbach ينتمى إلى هذه المدرسة التى عنيت منذ أوائل القرن التاسع عشر بدراسة التاريخ الأندلسى على ضوء المصادر العربية . وقد ولد فى هكست من أعمال ناساو بألمانيا فى سنة ١٨٠١ ، وتولى تدريس التاريخ فى جامعة فرنكفورت ، ثم فى جامعة بون ، ودرس العربية ، وعنى بدراسة تاريخ اسبانيا المسلمة عناية خاصة ، ووضع فى ذلك مؤلفين أولهما : « تاريخ الأمويين فى اسبانيا » Geschichte der Omajaden in Spanien فى مجلدين ، وهو يتناول تاريخ الأندلس منـذ الفتح حتى سقوط الدولة الأموية وقيام دول الطوائف ؛ والثانى : « تاريخ اسبانيا والبرتغال فى عهد سيادة المرابطين والموحدين » Gechichte Spaniens und Porbugals, zur

---

(١) وقد نشرت هذه الترجمة بعنوان History of the Mohammedan Dynastries in Spain (تاريخ الدول الاسـلامية فى إسبانيا) ، وهى تتضمن الجزئين الأول والثانى من نفح الطيب .

في مجلدين Zeit der Herrschaft der Almorariden und Almohaden أيضاً ؛ وهو يتضمن تاريخ الأندلس ، وتاريخ اسبانيا بوجه عام ، منذ قيام دول الطوائف حتى انحلال دولة الموحدين ، وتاريخ المغرب أيضاً في ظل دولتي المرابطين والموحدين ؛ وهو الذي نقدم اليوم إلى القارىء القسم الأول منه متضمناً لتاريخ الأندلس والمغرب في عهد المرابطين ، وقيام دولة الموحدين ، وتاريخ قشتالة وباقي الممالك الاسبانية النصرانية في تلك الفترة . وأما القسم الثاني فيتضمن تاريخ الموحدين حتى سقوط دولتهم ، وعرضاً لسياسة المرابطين والموحدين ونظامهم في الحكم والإدارة وتاريخ الممالك النصرانية المعاصرة . والكتاب بقسميه كما يقول لنا المؤلف في مقدمته ، تتمة لكتابه الأول « تاريخ الأمويين في اسبانيا » .

وقد ظهر هذا الكتاب بمدينة فرنكفورت بين سنتي ١٨٣٣ و ١٨٣٧ ؛ ومع أنه قد مضى على ظهوره أكثر من مائة عام ، فانه لا يزال محتفظاً بكثير من قيمته ، فهو يعتمد على المصادر الاسلامية ، وينتفع بها انتفاعا كبيرا بالرغم مما يرد فيه أحيانا من خطأ أو تحريف ؛ على أن أهم ما يمتاز به في نظرنا هو دراسته للمصادر النصرانية إلى جانب المصادر الاسلامية ، وتمحيص الروايات من الجانبين وتقدير وجهات النظر المختلفة ، وهي ميزة لها قيمتها في دراسة التاريخ الأندلسي ، لأن التواريخ العربية قلما تعنى بدراسة المصادر النصرانية ، كما أن التواريخ النصرانية الحديثة لبثت من جانبها معرضة عن الانتفاع بالمصادر العربية حتى ظهر معجم الغزيري ، واتجهت الأنظار إلى الانتفاع بمجموعة الاسكوريال حسبما بينا ، هذا إلى ما يمتاز به الكتاب من حسن الترتيب والتبويب ، وخصوصاً في أخبار ملوك الطوائف ، وما يتخلله من مواطن التحليل والنقد المتزن .

هذا وقد رأيت استكمالا للبحث أن أذيل الكتاب بطائفة من الهوامش والتحقيقات والشروح ، استدراكا لمواطن التحريف ، وإتماما لتمحيص المصادر ، وتحقيقاً لبعض النصوص والأعلام ، معتمداً في ذلك على مجموعة كبيرة من المصادر الاسلامية التي لم يتح لمؤلف الكتاب أن ينتفع بها ؛ كذلك رأيت نظراً

لتباين الأعلام الأندلسية العربية والأفرنجية الجغرافية والتاريخية ، ونظراً لما يقع فيها من التحريف فى معظم التراجم والدراسات المتعلقة بتاريخ الأندلس ، أن أضع لهذه الأعلام فهرساً يضم الأعلام العربية ومقابلها الأفرنجى ، ليكون مرشداً ينتفع به القراء والمشتغلون بدراسة التاريخ الأندلسى .

ولا يسعنى فى الختام إلا أن أتقدم بالشكر إلى صديق العلامة الأستاذ أحمد أمين لما تفضل به من قراءة الترجمة وما أبداه من ملاحظات قيمة ، وأن أنوه عما للمعهد الخليفى بتطوان وبيت المغرب بالقاهرة من فضل مشكور فى نشر هذا الكتاب ضمن مجموعة الآثار الاسلامية والأوربية المتعلقة بتاريخ المغرب والأندلس ، التى يعملان لنشرها ، وتعميم نفعها ؟

محمد عبد الله عنان

القاهرة فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٣٥٨
الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩

الكتاب الأول

تاريخ الأندلس

منذ سقوط الدولة الأموية

إلى مقدم المرابطين .

الفصل الأول

تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية

منذ اتحاد مملكتي ليون وقشتالة

إلى تقسيم مملكة البشكنس

(سنة ١٠٣٧ — ١٠٧٦ م) — (٤٢٨ — ٤٦٩ هـ)

مضت ثلاثة قرون استمر فيها تفوّق دولة الإسلام فى شبه الجزيرة الإسبانية (الأندلس) ، وكادت الممالك النصرانية التى أقامها السكان الجبليون فى أشتوريش وبسكونس[1] ، ووطدوا دعائمها تُسحقُ غير مرة ؛ بيد أنها كانت إزاء الخطر تكافح بقوى مضاعفة ، وحب متقد للحرية ، والدين والوطن ، وتنتصر دائماً على أعداء لا حصر لهم ، قد فقدوا فى النهاية قواهم فى قتال بعضهم بعضاً . وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، اضمحل سلطان الأمويين فى اسبانيا بعد ازدهاره ، وسما فى الوقت نفسه شأن سانشو (شانجة) الملقب بالكبير ، فيما وراء الجبال البرينية (جبال البرت أو البرتات)[2] ، ومكنت له قواه المظفرة من بسط

---

(١) أشتوريش : هى الاسم العربى لولاية « أستورياس » (Asturias) ، وبسكونس أو بسكونية هى الاسم العربى لولاية « بسكاية » (Biscaya). وقد آثرنا أن نرجع فى الترجمة إلى الأعلام الجغرافية العربية وأن نقرنها عند الضرورة بمقابلها الأفرنجى ، وسنضمها فى نهاية الكتاب فى ثبت عام مقرونة بأصولها الأفرنجية .

(٢) تسمى الجبال البرينية أو جبال البرنيه (Pyrenees) فى الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات بالاشتقاق فيما يظهر من كلمة (Puertos) أى الأبواب ، ومن ثم فقد سميت أيضا بجبال الأبواب ، ويشار إليها أحياناً بأنها « الجبل الحاجز بين الأندلس وبين بلاد أفرنجة =

سيادته على اسبانيا النصرانية من جبال البرنيه إلى ما وراء شنت ياقب ؛ ومن بحر بسكونس حتى نهر دويرة (نهر دورو) مما يلي هضبة الجزيرة الوسطى عند وادي الرملة الوعر[1] . وكان يحكم قشتالة ونافارا (بلاد البشكنس)[2] سانشو وولده فرديناند . ولم يكن الملك برمود الثالث (برمند) صاحب ليون سوى تابع لسانشو . ولاح أن الفرصة قد سنحت ليسحق النصارى بأيسر أمر ، تلك الدول الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية . بيد أن ملك نافارا ما كاد يوحد بين القوى النصرانية حتى أدركه الموت في سنة ١٠٣٥م ؛ وقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، وتصدع بذلك سلطان النصرانية وما كان يلتئم ، وأدى تفرق النصارى الأسبان على هذا النحو الخطر إلى نجاة الأندلس المسلمة من فناء محقق ، واستمر علم الهلال خفاقاً على شبه الجزيرة زهاء خمسمائة عام أخرى قبل أن يغيض أمام أعدائه .

١ — فرديناند الأول وإخوته

ولما توفى سانشو أصبح ولده الثاني فرديناند (فرداند) ملك قشتالة[3] بعد ذلك بعامين ، ملكا على ليون وجليقية وأشتوريش وما إليها ، على أثر وفاة صهره الملك برمود الثالث في موقعة «تامارون» (Tamaron) ، وغدا بذلك أقوى ملك في اسبانيا . أما إخوته الثلاثة فكانوا يحكمون ممالك صغيرة لا تكاد تعدل ثلث مملكته ؛ فحكم جارسيا (غرسية) أكبر أولاد سانشو الوطن الأصلي نافارا من

= العظمى» ، أو جبل البرت الحاجز بين الأندلس والأرض الكبيرة ، أو يقال لها «الحاجز» (راجع وصف الأندلس للإدريسي طبعة Saavedra) ، ونفح الطيب (مصر) ج ١ ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ ، ومعجم ياقوت (مصر) تحت كلمة أندلس) .

(١) وادي الرملة (Gaudarrama) .

(٢) يسمى العرب ولاية نافارا (Navarra) «بلاد البشكنس» (Bascons) ، وأحياناً تسمى «نبرة» ، (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٤) .

(٣) ويسميها صاحب البيان المغرب قشتيلة ، وهو أقرب لأصلها الأفرنجي (Castille) (ج ٣ ص ٢٣٢) .

غرب البرنيه إلى مصب الأيبرو (أبرة) . وحكم راميرو ولد سانشو غير الشرعى ، مما يلى ذلك فى شقة ضيقة من الأرض تمتد من باب شزروا (Roncesvalles) إلى «اينكا وآرا» (Einca & Ara) باسم ملك أراجون (أرغون)[1] ، وحكم كونزالو منطقة أصغر هى ولاية سوبراب فى أواسط البرنيه . وأما فى شرق البرنيه فكانت تقع إمارة (كونتية) برشلونة أو قطلونية ممتدة على شاطئ البحر حتى مصب الأيبرو ويحكمها رعوند برنجار الأول ؛ وبذا بلغت الممالك النصرانية الأسبانية فى ذلك الحين خمساً .

ولكن اسبانيا المسلمة منذ انهار صرح الدولة الأموية بسبب الحروب الأهلية وأطماع الولاة ، انقسمت إلى دول مستقلة أكثر عدداً . فكان يحكم فى المدن الكبرى وفى الولايات أمراء (أو ملوك) يتبعهم عدد من الولاة والقضاة . وكان بعض هؤلاء الولاة يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم عن كل سيادة ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا إذا رأى جيرانهم الأقوياء هذا الاستقلال فى صالحهم . وكان أهم هذه الدول ، فى قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وبطليوس وطليطلة وسرقسطة . وكانت تحالف بعضها بعضاً أو تخاصم بعضها بعضاً ، حسبما تمليه بواعث الأثرة التى تسيّر أولئك الأمراء .

ولم يكن الأمراء النصارى يخشون جانب الدولة الإسلامية بعد أن مزقت إربـ وسادتها الفوضى . وقد أضاع أولئك الأمراء الفرصة السانحة لحشد قوى النصرانية المجتمعة ، وانتزاع شبه الجزيرة كلها من أيدى أعدائهم فى الدين ، وغلب عليهم التباغض والتحاسد فآثروا أن يمتشقوا الحسام بعضهم ضد بعض ، فـ حروب مخربة مروعة على أن يشهروا الحرب على الإسلام .

ليس أخطر على الدول من اضطرام الأمراء بشهوة الفتح . ذلك أن كل شعو بالعدالة والإنسانية والإخاء والإيمان ، يغيض عندئذ فى سبيل الطموح إلى حـ دولة أوسع مدى . ولن يحجم الأمير عندئذ عن ارتكاب أى أمر فى سبيل تحقيـ

(١) تعرف أراجون فى الرواية العربية ببلاد أرغون أو أرغن أو رغونه أو الثغر الأعلى

هذه الغاية . وهكذا نجد أنفسنا فيما يتعلق بطموح أبناء سانشو الكبير وأحفاده إلى الفتح ، أمام معترك من الجرائم والشناعات التي يرتجف المرء لذكرها فرقا ، إذا استطاع أن يتتبعها بجميع تفاصيلها . ولكن التاريخ مع الأسف لايحتفظ غالباً للخلف إلا بآثام القرون الذاهبة . ومن خير الإنسانية أن يطوى ذكر هذه الآثام في ثنايا النسيان إلى الأبد . ذلك أنه يخالجنا عندئذ شيء من الشك المحمود في صحة أشنعها وأروعها ذكراً ؛ ومن ثمّ فإنه ليس لنا أن نشكو من أن الروايات القليلة التي انتهت إلينا عن الحروب الدموية التي وقعت بين أبناء سانشو ، تنبئنا بالقليل عنها ، وإن كانت تسمح لنا بأن نتكهن بالكثير منها .

مضى عام على توحيد « فرديناند » لتاجي « قشتالة وليون » ؛ وفي الوقت نفسه اتحدت مملكتا « أراجون » و « سوبراب » الصغيرتان . وكان « كونزالو » يحكم فقط منطقة هي أجدر بأن تسمى بالولاية من أن تسمى بالمملكة . وقد كان حكمه لها فيما يظهر سبب موته المبكر . ذلك أنه عاد ذات يوم من الصيد فقُتل في كمين غادر دبّره أحد أتباعه . وتولى « راميرو » (رذمير) أخو القتيل غير الشرعي وملك أراجون حكم « سوبراب » بموافقة شعبها ، ولم يحصل فرديناند وجارسيا أخوا كونزالو الشرعيان على شيء منها ، وهو ما يحاول الكتّاب المتأخرون تفسيره بأن سوبراب تقع بجوار أراجون وأصلح لها أن تضم إليها ، وهو تفسير غير مقنع .

وقد قيلت أقوال كثيرة عن السبب الذي حمل فرديناند وجارسيا وهما أقوى من راميرو على العدول عن المطالبة بحقوقهما في سوبراب . والظاهر أن الأمور سارت بسرعة مكنت راميرو من احتلال الولاية قبل أن يصل نبأ وفاة كونزالو إلى أخويه الكبيرين . كذلك كان فرديناند مشغولا قبل كل شيء بتوطيد ملكه في مملكته الجديدة ، فلم يستطع يومئذ مغادرتها . أما جارسيا فقد كان يومئذ يحج إلى رومة طبقاً لتقاليد عصره ، وكان من الضروري أن يكون ملك نافارا حاضراً بشخصه إذا أراد أن يختاره أهل سوبراب .

وقويت نفس راميرو بنجاح خطوته الجريئة ، فنسي روابط الدم والدين ليقوم

بفتوحات أخرى ، وتحالف مع أعداء دينه ولاة تطيلة ووشقة وسرقسطة المسلمين ، وأخذ يدبر الخطة لإسقاط ملك ناقارا والاستيلاء على مملكته . ولكن التوفيق حالف هذه المرة ملك ناقارا . ومع أن راميرو استطاع فى البداية أن يقتحم حدود ناقارا دون ممارضة نظراً لمفاجأتها بالحرب ، فإن قلمة « تاقالا » استطاعت أن تمترض سيره المظفر ، وتمكن جارسيا خلال الوقت الذى استغرقه حصار القلمة أن يحشد جنده ، وأن ينقض على خصمه تحت جنح الظلام وعلى غرة من الحراس . وهكذا هوجم الأرجونيون وهم نيام ، وهزموا هزيمة شنيمة قبل أن يتمكنوا من تقلد سلاحهم . ولم يتمكن راميرو من النجاة إلا بشق النفس ، فألقى بنفسه فوق صهوة جواد عار ولاذ بالفرار ناجياً بحياته ، ومُزق معظم جيشه قتلا وأسرا . وعند الفجر خرج سكان القلمة فأجهزوا على الجيش المنهزم ، ولم يفز مما فاز به راميرو من الفرار سوى القليل . وكان بين الفارين قادة الجند المسلمين وقليل من أتباعهم ؛ ولا ريب أن هذه الواقمة حدثت بمد احتلال سوبراب (بمد سنة ١٠٣٨ م على الأقل) ، وذلك بالرغم مما يرويه البمض من أنها حدثت قبل ذلك . والظاهر أنها حدثت فى سنة ١٠٤٢ م .

ومع أن راميرو فقد من جراء هذه الهزيمة معظم مملكته ، واضطر أن يلجأ إلى شعب الجبال الوعرة ، فى ريبا جرسا وسوبراب ، ليتقى هناك مطاردة أعدائه بكل مشقة ، فإنا نراه بعد ذلك بأعوام قلائل يعود فيسترد كل أراضيه ومدنه ؛ ولا نعرف — مما انتهى إلينا من التفاصيل القليلة عن تطور الحوادث — كيف حدث ذلك . بيد أنه من المحقق فيما يظهر ، أنه لم يكن ذلك بفضل تسامح من أخيه أو رضى .

وفى تلك الأثناء استطاع فرديناند خلال معارك ظافرة خاضها مع جيرانه المسلمين ، أن يوسع حدود مملكته توسيماً كبيراً . فبعد أن قام بمكافحة أشراف ليون الثائرين الذين أبوا الاعتراف بحكمه ، وقد كانوا فيما يظهر من أقارب الأسرة الملكية السابقة ، وإخضاعهم أو إبعادهم ، سار فى جيش حسن المدة إلى

سمورة (زامورا) التى تقع اليوم فى شمال البرتغال ، والتى افتتحها المسلمون قبل ذلك بنحو خمسين عاماً ، ليحاول استردادها . وبعد أن استولى على بعض قلاع الحدود ، زحف على بازو (فيزى) وانتزعها عنوة وصيرها حطاما ، واسترق من نجا من سكانها من الموت ، ولم تأخذه فى أعداء دينه رأفة ولا إنسانية ؛ ومتى كان ثمة ثأر خاص للبغض القوى ، فإن القتل المجرد لا يكفى ، ومن ثم فإن الرامى الذى قتل بسهامه الملك الفونسو الخامس أثناء حصار بازو قبل ذلك بعشرة أعوام ، عوقب أروع عقاب ، فبعد أن قطعت يداه ورجلاه عذب حتى أسلم الروح ؛ وعلى هذا النحو أيضاً افتتح فرديناند لاميجو ، وعدة قلاع أخرى أقل أهمية ، وأسكن النصارى فى تلك الأنحاء ليكونوا سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين[1] .

وشجع ظفر النصارى فى محاربة أمير بطليوس وأتباعه ملكَ قشتالة على القيام بغزوات مماثلة ضد أميرى طليطلة وسرقسطة ، ولم يقتصر نجاحه فى ذلك على استعادة حدود قشتالة القديمة عند جبال وادى الرملة الوعرة ، وتهديده طليطلة وسرقسطة بالحصار ، بل كان أيضاً أن صاحبى طليطلة وسرقسطة فضلا أن يدفعا الجزية إلى فرديناند ، وأن يكفلا بذلك عونه لهما فى حروبهما ضد جيرانهما المسلمين ، على أن يخوضا معه وهو ملك النصرانية القوى ، حروبا لاشك فى سوء عواقبها .

وهكذا فرض فرديناند سلطانه على أعدائه ، ثم عمد فى ظل السلام إلى العناية بالإصلاحات الداخلية . ففى سنة ١٠٥٠ م دعا إلى اجتماع كنسى فى « جويانسا » اعتبر فى نفس الوقت مجلساً نيابيا ، وشهده فضلا عن الملك والملكة سانشا وعدة من الكبراء تسعة أساقفة بينهم يوحنا أسقف بنبلونة ممثلا لملكة نافارا . وقوانين هذا الاجتماع أو البرلمان « كورتيس » (Cortes) ليست مهمة من الوجهة الكنسية

---

(١) وقعت هذه الغزوة فى سنة ١٠٥٧ م ، وكانت الحصون والمدن التى استولى عليها فرديناند يومئذ من أملاك أمير بطليوس ابن الأفطس . وفى تلك الغزوة استولى فرديناند على جميع الحصون التى كان المنصور بن عامر قد افتتحها من أعمال قشتالة القديمة ، ولا تقدم المراجع العربية إلينا عنها تفصيلا شافياً (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ ودوزى (جديد) ج ٣ ص ٧٤) .

فقط ، ولكنها مهمة أيضاً بالنسبة لتاريخ نظم الحكم فى قشتالة . ومما قضت به أن يعمل فى جميع الأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح ، والزواج ، أو شهود مآدب الزواج ، ولكن أبيح لهم أن يحتكموا إلى الأساقفة . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة أخرى فى مقدمتها أنه لا يمكن الاستيلاء على أملاكها بمضى المدة . ونظراً لأنه يوجد فى بعض المدن مزيج من السكان من مختلف العقائد ، فقد رؤى للتمييز بين النصارى واليهود والمسلمين ، أن يشدّد فى الاحتفال بيوم الأحد . وشدد فى تحريم التعامل مع اليهود والأكل معهم . ومما يدل أيضاً على تغلغل أثر الشرائع القوطية ، تجديد القانون الذى يقرر بأن المجرم إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أصبح تحت حماية القضاء الكنسى ؛ كذلك أمر القوامس (الكونتات) ونوابهم فى القضاء الجنائى وهم المسمون (Mirini) أن يحرصوا على تحرى العدالة والحق وفقاً لكتب الأحكام القوطية ، وأن تطبق فى نفس الوقت فى مملكة ليون قوانين الفونسو الخامس المسماة : (Bueno fueros) ، وفى مملكة قشتالة تطبق لوائح الكونت سانشو المسماة (Benefactorias) . كذلك أمر سكان ليون وقشتالة أن يلزموا الولاء والطاعة لفردينانه شأنهم من قبل نحو ألفونسو وسانشو ، وقضى بمعاقبة المجرمين والعصاة بفقد الشرف والمنصب ، وبالنفى من الكنيسة .

وهكذا نرى أن الكنيسة لم تقتصر على أن تعمل لتوطيد هيبة الملوكية ، بل نراها بالأخص تعمل على توجيه السلطة الدنيوية إلى تطبيق العدالة ، وعلى استئصال شأفة الخرافات والسحر من عقول الكافة . وهذا ما تؤيده لنا القوانين التى صدرت فى الاجتماع الذى عقد فى شنت ياقب سنة ١٠٥٦ م .

هذا وبينما كان فرديناند يبسط بين أعداء النصرانية روع جيوشه ، ويعالج فى نفس الوقت تنظيم مملكته المتحدة ، كان أخواه الملكان راميرو وجارسيا يشتغلان آناً ببناء الكنائس والأديار ، وآناً بمحاربة المسلمين على ضفاف الأيبرو . وان الروايات السقيمة الموجزة التى وصلتنا عن تاريخ نافارا وأراجون فى تلك

الفترة لتتركنا بالنسبة لمعظم الحوادث فى ظلام دامس . بيد أنه يبدو من المحقق أن أكبر الأخوين وهو جارسيا كان أضعفهما شأناً ، فهو إذا استثنينا غزوة قلهُرّة لم يقم بفتوح ما ، هذا بينما قام راميرو بفتوح ذات شأن ، وعقد مع الولاة المسلمين محالفات زادته قوة وبأساً .

وكان جارسيا يضطرم حسداً لرؤية أخيه الأصغر فرديناند يفوز بهذه المملكة الشاسعة ، وتلك الفتوحات الهامة ، ويطمح إلى امتلاك هذه الأراضى . وكان يعول على الفتك الغادر بأخيه ليرقى عرش اسبانيا النصرانية . فأوعز بتبليغ ملك قشتالة بأنه مريض على فراش الموت ، وأنه يرجو رؤية أخيه للمرة الأخيرة . فبادر فرديناند إلى رؤية أخيه دون أن يظن به سوءاً . بيد أنه فطن أثناء السير إلى مشروعه الغادر ، أو نمى إليه ، فارتد إلى مملكته مسرعاً قبل أن يتمكن ملك نافارا من تنفيذ مكيدته ، وقد أقسم بأن ينتقم من ذلك الأخ الذى نسى روابط الدم وحقوق الضيافة المقدسة . ولم يفطن جارسيا إلى أن أخاه قد وقف على مشروعه ، ولم يرتب فى الأمر حينما دعاه فرديناند إلى زيارته ، بعد ذلك بأعوام قلائل ، فما كاد يصل إلى أرض قشتالة حتى هوجم وأسر . ولكن سرعان ما استطاع الفرار من أسره والعود إلى مملكته[1] .

وهكذا نشبت بين الأخوين تلك الحرب التى كانت تنذر منذ بعيد بالوقوع . ولم يكتف جارسيا بالتحالف مع راميرو الذى لبث حتى هذه الآونة ألد أعدائه ، على سحق أخيهما ، ولكنه استعان على تقوية جيشه بجنود مرتزقة من المسلمين استأجرها من ابن هود أمير سرقسطة . وحاول الأحبار عبثاً نصح الأخوين المتدينين ، وسال الدم ، واجتاح جارسيا أرض قشتالة ، وتابع سيره حتى « أتابورتا » على مقربة من برغش (برجوس) وهنالك نشبت الموقعة فى سبتمبر سنة ١٠٥٤ . وكان ثبات فرديناند وعنف الهجوم الذى قام به فرسان ليون ، وهم حرس الملك

---

(١) يبدى كوندى ريبه فى قصة هذا الكمين ؛ بيد أنه لا يقدم إلينا سبباً آخر عن نشوب الحرب بين الأخوين (الترجمة الفرنسية ج ٢ ص ١٧١) .

السابق برمود الثالث ، من عوامل النصر الحاسمة . وكان جارسيا يقاتل بشجاعة غير مكترث للخطر ، فأصابته طعنــة من فارس يدعى سانشو فورتيز كان من جنده ، وهجره إلى أخيه لأنه أغوى زوجه ؛ واحتاط به جنده المخلصون حتى لا يقع فى يد أعدائه ، وأسلم الروح بين ذراعى كاهنه ؛ وركن النافاريون (البشكنس) إلى الفرار . ويقال إن فرديناند أمر بالكف عن مطاردتهم حقناً لدماء النصارى ، وأن تقتصر المطاردة على المرتزقة المسلمين الذين مزقوا قتلا وأسراً .

وأسفر هذا النصر عن اتساع مملـكة قشتالة ، واحتل فرديناند كل أراضى مملـكة نافارا الواقعة على ضفة الأيبرو اليمنى . أما بقية نافارا وهى جزؤها الأكبر الواقع فيما وراء الأيبرو حتى غرب البرنيه ، فقد تركه لولد الملك المتوفى سانشو الرابع ، الذى رفعه النافاريون إلى العرش عقب موت أبيه .

وتوجس راميرو ملك أراجون شرا لنمو سلطان فرديناند على هــذا النحو ، سيما وقد غدت حدود قشتالة أقرب إليه ؛ وكان يخشى انتقام أخيه لسببين : أولهما مسألة الجند المرتزقة التى أعارها لجارسيا ، والثانى ما كان بينه وبين أخيــه من خلاف على تقاضى الجزية من بعض المدن الإسلامية الواقعة فى ولاية سرقسطة . وقد كان فى وسعه أن يعتمد على مناعة الأماكن الجبلية فى أراضيه ، ولـكنه كان يشعر أنه لا يستطيع بمفرده أن يرد عادية الفتح من جانب أخيه ؛ ومن ثم فقــد حمل الخطر المشترك ملكا نافارا وأراجون على توثيق تحالفهما فى لقاء تم بينهما على الحدود فى دير ليرا (سنة ١٠٥٧ م) . واتخذ صورة تحالف ضد المسلمين وهو فى الواقع ضد فرديناند .

ولمـا كان ملك قشتالة وليون قد عاد إلى توجيه عنايته لمحاربة المسلمين ، فقد رأى الحليفان من الصواب أن ينتهزا هذه الفرصة ليعملا على تقوية جيوشهما . وكذلك عنى راميرو بتنظيم الشؤون الـكنسية فى مملـكته ، وذلك فى اجتماع عقد فى « چاقة » سنة ١٠٦٠ فيما يظهر . وتدل القوانين التى وضعت فى هذا الاجتماع على مبلغ ما حققه الأحبار فى أراجون من نفوذ قوى . وهو اجتماع نستطيع أن

نعتبره برلماناً فى نفس الوقت ، إذ شهده تسعة من الأساقفة ، والملك وولى عهده ، وعدة من كبراء أراجون . وفيه اعتبرت جاقة مركز أسقفية ، وأخرج الكهنة من اختصاص القضاء المدنى ، وتقرر أن يرسل إلى رومة عشر إيراد الدولة سواء من المال أو المحاصيل ، وكذا عشر الجزية التى تحصل من مسلمى سرقسطة وتطيلة ؛ وهدد المخالفون بعقوبة النفى الدينى . والظاهر أن الذى حمل راميرو على التزامه بهذه الجزية لرومة ، هو تخوفه من فرديناند ، إذ تصبح أراجون بذلك تحت حماية زعيم الكنيسة ، وهى وسيلة لجأت إليها مملكة البرتغال فيما بعد لتحمى استقلالها من عدوان قشتالة . هذا وقد كانت قوانين هذا الاجتماع الكنسى هى الأساس الذى استند إليه البابا جريجورى بعد ذلك بقليل فى مطالبة اسبانيا كلها بأداء الجزية .

على أننا نرى راميرو بدلا من أن يبذل وسعه لاجتناب الحرب مع فرديناند ، يسعى إليها بنفسه . ذلك أنه لما علم أن فرديناند قد سار غازيا إلى إشبيلية ، ولما كان يخشاه من أن نجاح فرديناند يزيد فى قوته ويجعله أكثر خطراً على ممالك البرنيه الصغرى ، سار لمهاجمة المسلمين فى سرقسطة ووشقة وتطيلة ، وقد كانت من قبل تدفع الجزية إلى أراجون ، ثم تحولت عنها لتغدو تابعة لملك قشتالة القوى ؛ ولم يلق راميرو كبير معارضة فى البداية ، لأن المسلمين لم يتحوطوا لمهاجمته ، ولكنهم لم يحجموا عن طلب المعونة من ملك قشتالة صاحب الجزية عليهم ، ولم يستطع فرديناند أن يلبى نداءهم بنفسه لأنه لم يرد أن يقطع غزوته لإشبيلية ؛ ولكنه أرسل لمعاونة ابن هود صاحب سرقسطة ولى عهده سانشو على رأس جيش من الليونيين والقشتاليين ومعهم فيما يروى « السد » البطل الشهير[1] ، وبادر الجيش المتحد من المسلمين والنصارى بالزحف على قلعة جرادوس التى كان يحاصرها الأرجونيون . ونشبت بين الفريقين على مقربة من جرادوس معركة

---

(١) هو الفارس القشتالى رودريجو أوراى دياز دى بيفار المشهور فى التواريخ النصرانية باسم «السد» (Cid il Campeador) ، وتعرفه الرواية العربية باسم «السيد الكنبيطور» .

شديدة هزم فيها راميرو وقتل . ويقال إن المسلمين مثلوا بجثته دون أن يعترض على ذلك أحد من النصارى مما يدل على شناعة التباغض بين الفريقين النصرانيين . بيد أن المؤرخين الأسبان المتأخرين ينكرون هذه الواقعة ، بل ينكرون قصة الموقعة كلها ، ويقولون إن راميرو مات بعد ذلك بأربعة أعوام موتاً طبيعيا (سنة ١٠٦٧ م) . على أنه لا يوجد ما يحمل على الأخذ بهذا القول ، خصوصاً وأن الرواية العربية تقص علينا أن الأمير أحمد بن هود صاحب سرنسطة قتل « رذمير » فى موقعة دموية فى سنة ٤٦٠ ﻫ (١٠٦٨ م)[1] ويوجد على قبر راميرو فى دير القديس يوحنا فى « بنيا » كتابة مفادها أنه توفى فى ٨ مايو سنة ١٠٦٣ ؛ وهكذا لقى إخوة فرديناند الثلاثة مصارعهم ، فقتل كونزالو فى كمين نادر ، وهلك جارسيا وراميرو فى معارك نشبت ضد الجيوش الليونية والقشتالية .

ولا تحدثنا الرواية عما إذا كان فرديناند قد أفاد من مصرع راميرو أرضاً جديدة . بيد أننا نعرف أن سانشو (شانجه) ولد الملك القتيل تولى فى الحال عرش أراجون واستطاع بمؤازرة شعبه وحبه ، أن يحمى حدود مملكته ضد النصارى والمسلمين على السواء .

وفى تلك الأثناء كان فرديناند قد اختتم حربه ضد إشبيلية ظافراً ، واضطر أميرها لما آنس من روعة الجيوش النصرانية ، أن يتعهد بدفع الجزية السنوية لملكة قشتالة وليون . وبعد أن عقد فرديناند بموافقة كبراء المملكة الصلح مع المسلمين ، عاد إلى مملكته ومعه رفات القديسين يوستا وروفينا ليدفنهما فى كنيسة يوحنا فى ليون حيث كان المدفن الملكى .

وحملت هذه الغزوة الموفقة وما نشب بين الأمراء المسلمين من معارك ، وما كان من تنافسهم على ابتياع العون من ملك النصارى ، فرديناند على التفكير فى مشاريع أخرى ، أهم وأبعد مدى ؛ فسار فى العام التالى (سنة ١٠٦٤) إلى مدينة

---

(١) لم نجد فى المراجع العربية ذكراً لهذه الواقعة . ويقول لنا المؤلف فى تعليقاته إنه نقل هذه الرواية عن كوندى .

قلمرية (قوامبرة) فى البرتغال ، واستولى عليها بعد حصار دام ستة أشهر ، وأرغم أمير بطليوس كما أرغم أمير إشبيلية من قبل ، على دفع الجزية[1] ، وقدم إلى كنيسة ياقب (شنت ياقب) حامى اسبانيا قسطاً كبيراً من الغنائم ؛ ثم سار إلى ولاية بلنسية وافتتحها لحساب تابعه وحليفه المأمون بن ذى النون أمير طليطلة ، واختص نفسه بلا ريب بقسط من ثمار ظفره ؛ ثم عاد الملك الشيخ إلى ليون عاصمة ملكه مثقلا بالغنائم وهو شاعر بدنو أجله . ولما اشتد عليه المرض طلب أن يحمل إلى كنيسة يوحنا المعمدان الجديدة ، وكانت حافلة بآثار القديسين . وهنالك وضع الجواهر الملكية والتاج والصولجان على الهيكل الكبير ، وجثا مصليا وهو يقول : « رباه لقد منحتنى القوة والشرف ، وأنا اليوم أردهما إلى يديك فامنحنى غفرانك ورحمتك » ، ثم أمر أن يلبس الملابس الخشنة وأن يحثى الهشيم على رأسه . وما كاد يحمل إلى قصره حتى توفى فى اليوم التالى فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٠٦٥ م بعد أن حكم قشتالة سبعة وثلاثين عاماً ، وحكم ليون وتوابعها ثمانية وعشرين عاماً .

وكان فرديناند الأول من أعظم ملوك اسبانيا ؛ وقد ظفر فى جميع الحروب التى خاضها ، وأرغم أمراء طليطلة وإشبيلية وبطليوس على الخضوع ودفع الجزية ؛ ولم يكن فى حروبه مع ملوك ليون ونافارا وأراجون ظافراً فقط ، ولكن الحظ حالفه حتى قتل الثلاثة فى الحروب التى خسروها ، واستأثر هو وحده باجتناء ثمرات النصر . ولم يك ثمة ريب فى أن الأمراء المسلمين الذين أرغموا على أداء الجزية ، كانوا يعتبرون من أتباعه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لسانشو الرابع ملك نافارا وسانشو الأول ملك أراجون ، فهما وإن لم يحكما على جميع الأراضى التى كانت لأبويهما من قبل ، كانا مستقلين عن سيادة قشتالة . ومع

(١) فى المراجع العربية أن فرديناند استولى على مدينة قلمرية من يد ابن الأفطس أبو بكر المظفر سنة ٤٥٦ هـ ، وهى توافق التاريخ الميلادى الذى يورده المؤلف (١٠٦٤ م) ، (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩) .

ذلك فالظاهر أن فرديناند كان يسعى فى أواخر حياته لحملهما على أداء الجزية . ومما يدل على ذلك اتخاذ فرديناند لقب « القيصر » وذلك عقب انتصاره على أخيه جارسيا منذ سنة ١٠٥٦ على الأقل . وكان يرمى بذلك إلى التدليل على سيادته لجميع اسبانيا ، ويرمى بالأخص إلى معارضة دعاوى القيصر هنرى الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولم يكتف فى ذلك بالاعتراض بقوة على صفة هنرى الثالث كزعيم للأمم النصرانية ، وصاحب الجزية على جميع الملوك النصارى ، ولكنه ذهب إلى حد تأييد البابا إسكندر الثانى ، ضد منافسه البابا هونوريوس الثانى فى الانتخاب البابوى ، وهونوريوس هو البابا الذى اختاره الإمبراطور هنرى الرابع (سنة ١٠٦١) باعتباره حامى الكنيسة وفقاً للحقوق التى آلت إليه من أبيه هنرى الثالث[1] .

وكانت خلال فرديناند تحمل طابع عصره بصورة قوية . ففى ميدان الحرب يبدو فارساً أكثر منه ملكا ، وفى شؤون الدولة نرى البغض الشخصى أو الحب على أهم القرارات . وكان عقب المعارك التى يخوضها مع المسلمين من غير رأفة ولا إنسانية ، يبادر فيلقى أمام هيا كل الكنائس والأديار بالهبات الثمينة . وكانت تحمله من آن لآخر نزعة من التقى والزهد والورع ، فيلجأ إلى دير ساهاجون ؛ وهناك يشاطر الرهبان حياتهم دون فارق ويضع نفسه تحت طاعة كبراء الدير . بل كان أثناء مقامه بقصره فى ليون يشهد الصلاة فى الكنيسة الكبرى مع الأحبار بانتظام . وكان كثير البر بالفقراء ، ومن ثم نراه يخصص الغنائم التى يحصلها من الحروب بشق النفس ، لتخفيف آلام الفقر والبؤس والعناية بالكنائس والأديار .

(١) كان الإمبراطور هنرى الرابع عند اضطرام المعركة الانتخابية البابوية بين إسكندر وهونوريوس سنة ١٠٦١ طفلا فى الحادية عشرة ، وكانت أمه الإمبراطورة أجنيس وصية عليه ، ولما انتخب البابا إسكندر الثانى لكرسى البابوية عارض فى ذلك حزب الإمبراطورية ولم يعترف به . واختار للبابوية هونوريوس . ولكن هونوريوس لم يكن « بابا » إلا بالاسم فقط ، وقد حاول غير مرة أن يزحف على رومة ليجلس مكان خصيمه إسكندر الثانى فلم يفلح ، وتوفى سنة ١٠٧٥ دون أن يجلس بالفعل على كرسى البابوية .

وبالرغم من المحن التى جازتها اسبانيا من جراء انقسام المملكة النصرانية ، فإن أحداً لم يعتبر بهذه الحقيقة . ووقع فرديناند فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أبوه سانشو الكبير ، وترتب على وقوعه نفس النتائج المحزنة . نعم لقد عنى فرديناند بتربية أولاده أيما عناية ، ولكن ماذا يجدى ذلك فى تقويم خاق الجنوبيين المضطرم ؟ وقد حذا فرديناند حذو أسلافه السىء ، ورأى اجتناباً لكل نزاع بين أبنائه الذين يعرف حدة نفوسهم أن يقوم فى حياته بتسوية يحاول أن يحسم بها عوامل النزاع من أساسها . بيد أنها كانت هى سبب الحرب الأهلية فيما بعد . ذلك أنه فى سنة ١٠٦٤ قبل وفاته بعام استدعى فى ليون مجلساً للشورى ، وفيه قرر بموافقة الأساقفة وكبراء المملكة ، أن يقسم أراضيه بين أبنائه الثلاثة ، فاختص سانشو أكبرهم بقشتالة والسيادة على المسلمين من رعايا صاحب سرقسطة (ابن هود) الذى يؤدى الجزية لقشتالة ويخضع لها . واختص ألفونسو[1] بليون واشتوريش وحق الجزية السنوية التى يؤديها صاحب طليطلة (ابن ذى النون) ؛ واختص أصغرهم جارسيا بجليقية والبرتغال اللذين ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على أمير إشبيلية (ابن عباد) وأمير بطليوس (ابن الأفطس) ؛ وأسند حق الإشراف على الأديار فى جميع المملكة إلى ابنتيه الدونا أوراكا والدونا إلڤيرا ؛ واختصت أوراكا فوق ذلك بمدينة سموره (زامورا) وهى قلعة منيعة على نهر دويرة ؛ واختصت إلڤيرا بمدينة تورو وأماكن أخرى على دويرة .

٢ — أبناء فرديناند الأول

سانشو ، وألفونسو ، وجارسيا

واستطاعت أرملة فرديناند الدونا سانشا بما لها من السلطة أن تسهر مدى حياتها على وحدة المملكة ، ولكن ذلك لم يطل سوى عامين . وما كادت أم الملوك

(١) وفى الرواية العربية أدفونش أو أذفونش ، ويسميه ابن خلدون بتسمية أصح هى الفنش (ج ٤ ص ١٨٢) .

الثلاثة تتبع زوجها إلى القبر ، حتى انطلقت أهواء الإخوة الجامحة من عقالها ؛ وكان سانشو ملك قشتالة[1] الذى استولى أيضاً على جزء من اشتوريش ، وعلى الجزء الذى غنمه فرديناند من نافارا يضطرم سخطاً لأنه وهو أكبر إخوته لم يضع يده على مملكة أبيه كلها ، فحاول بادئ ذى بدء أن ينتزع من ابنى عمه سانشو ملك نافارا وسانشو ملك أراجون ، بعض مدن الأيبرو العليا فلم يفلح ؛ بيد أنه لم يخسر شيئاً من مدنه أو أراضيه فيما يظهر بالرغم من كونه قد هُزم فى موقعة مالقديا (فيانا فيما بعد) سنة ١٠٦٧ م . ثم انقلب من هذه الحرب إلى مقاتلة أخويه ألفونسو وجارسيا ، أملاً فى أن يخوض معهما معركة يسيرة خصوصاً وقد اغتنم حلف كثير من أتباعهما . ونشبت بين الفريقين مدى ثلاثة أعوام حرب ضروس خربت وديان ليون وقشتالة . والتحم الفريقان فى موقعتين دمويتين ، الأولى فى بلانتادا فى ليون (١٨ يوليه سنة ١٠٦٨) ، والثانية فى جلبياريس الواقعة على نهر كاريون فى قشتالة (١٥ يوليه سنة ١٠٧١) وتكبد كلاهما خسائر فادحة ، ولكن دون أن يحرز النصر أحد منهما . ولقد كان ألفونسو فى الموقعة الأخيرة فى مركز المتفوق ، ولكن حرصه على حقن الدماء حال دون تمتعه بثمرات ظفره ، بل أدى إلى اضطراب أمره ؛ ذلك أنه لم يشأ مطاردة جيش سانشو الفار ، وترك جنده الليونيين والجليقيين يحتفلون بالنصر دون تحوط وتدبر ، ومكن ذلك سانشو من اغتنام الوقت فجمع جنده ثانية ونزل حسبما تقول الرواية عند نصح قائده « السد » البطل الأشهر ، فانقض على جيش ألفونسو ليلا وأوقع به هزيمة ساحقة ، واستطاع ألفونسو أن ينجو بحياته ، ولكنه لم ينج من الأسر وأبقى سانشو على حياته ، نزولا على رجاء أختهما الكبرى أوراكا ؛ ولكن ألفونسو اضطر أن ينزل لأخيه عن عرش ليون ؛ وزج إلى ظلمات دير ساهاجون ؛ وهناك استطاعت أخته الماكرة أوراكا أن تدبر فراره ؛ وبادر الأمير الفار بالالتجاء إلى تابعه ابن ذى النون

---

(١) ويسميه صاحب البيان المغرب شانشه (ج ٣ ص ٣٢) ، ولكن التسمية العربية الغالبة هى شانجه .

صاحب طليطلة فاستقبله بالترحاب والتكريم[١].

ولم يكن حظ جارسيا ملك جليقية والبرتغال بأفضل من حظ ألفونسو ، وكانت مهمة إسقاطه هينة على سانشو خصوصاً وقد قضى بطغيانه واصطناعه لوزير يبغضه الشعب على كل ولاء ومحبة له فى أرضه . وما كاد سانشو يظهر على حدود جليقية حتى هب الشعب فقتل ذلك الوزير البغيض أمام عينى مليكه (جارسيا) ، وانضم إلى عدوه (سانشو) كثير من الكبراء والناقمين الذين أعيتهم مطاردته . والظاهر أن جارسيا فر دون أن يحاول معالجة حظه بالحرب ، فغادر مملكته فى سرية فقط من حرسه ، وسار إلى تابعه ابن عباد أمير إشبيلية ، وهكذا تم لسانشو الاستيلاء على مملكتى أخويه .

ورأى سانشو أن يقطع على أخويه كل سبيل ، وأن يحول دون عودهما مع المرتزقة المسلمين أو يجعل على الأقل عودهما أمراً شاقا ، ولكن كان يعوزه لتحقيق ذلك الاستيلاء على قلعتى سمورة وتورو المنيعتين الواقعتين على نهر دويرة ، وقد كانتا فى يدى أختيه أوراكا وإلفيرا ، وهما تعطفان على الأخوين الفارين . كذلك كان قد احتشد فى هاتين القلعتين عدد جم من الفرسان الليونيين والجليقيين يترقبون الفرصة الملائمة لكى يعودوا فيدخلوا أرض الوطن شاهرين الحسام . ورفضت الأختان ما عرضه عليهما سانشو من تعويضهما عن القلعتين بأراض أخرى ، وتدرعتا بالشجاعة فلم تعبآ بما توعد به من أخذهما بالنار والسيف . ومع أن تورو سقطت فى أيدى القشتاليين لضعف حصونها ، فإن أوراكا سيدة سمورة لم تخش بأساً ، وركنت إلى معونة الفرسان الشجعان الذين يحمونها بقيادة البطل آرياس كونزاليس ؛ وهكذا قامت مدينة واحدة بمقاومة سيد الممالك الثلاث وكانت قبره . ذلك أن سانشو حاول أن ينتزع سمورة عنوة فلم يفلح فعول عندئذ أن يأخذها بالحصار ، ولكنه سقط قتيلا فى كمين نظم لاغتياله (٤ أكتوبر سنة ١٠٧٢) ، ولم يكن بعيداً عن تدبير اخته أوراكا أو أخيه الفونسو أو تدبيرهما معاً .

(١) يشير صاحب البيان المغرب إلى هذا الحادث (ج ٣ ص ٢٣٢) .

وفى الحال ارتدّ الجيش المحاصر هلعاً عن أسوار سمورة عقب وفاة مليكه . وبادرت أوراكا فبعثت إلى ألفونسو وهو فى طليطلة تنبئه بخلو العرش ، وتدعوه إلى العود بأسرع ما يستطاع . أما الروايات التى انتهت إلينا عن حكم الملك سانشو وعن ارتقاء أخيه العرش والتى اشتق معظمها من الشعر والقصص ، فتسبغ على هذه العودة كثيراً من ألوان الخيال المغرق ؛ بيد أنها ليست من التاريخ فى شىء . ولقى ألفونسو حين عوده إلى ليون مملكته القديمة اعترافا تاما بحقوقه الملكية ؛ ولكنه لقى أعظم الصعاب فى قشتالة وفى الأراضى التى كانت تابعة لملكة نافارا من قبل ، فقد اشترطتا لكى يلى ألفونسو العرش أن يقسم فى حفل رسمى أنه برئ من كل تبعة فى مقتل سانشو ؛ فلما أعلن ألفونسو استعداده لأداء هذا القسم لم يتقدم أحد من كبراء قشتالة لتلقيه إياه إلا الكونت رودريجو دياز دى بيفار المعروف بالسد الكمبيادور وقائد جيوش سانشو ، فإنه تطوع لأداء هذه المهمة ولقن الملك اليمين مرتين فأدّاها ألفونسو على مضض ولم يغفر للسد قط جرأته ، وهكذا أعلن ألفونسو أيضاً ملكا على قشتالة .

وفى تلك الأثناء عاد الملك المبعد جارسيا (غرسية) أيضاً إلى مملكته جليقية ؛ والظاهر أن نزاعا نشب بين الأخوين بخصوص قشتالة التى كان جارسيا يدعى جزءاً منها . ونزل ألفونسو على نصح أخته الماكرة أوراكا ، فدعا أخاه إلى لقاء زعم أنه لتسوية النزاع بالتفاهم . ولكن جارسيا ما كاد يمثُل إلى مكان اللقاء حتى رأى أنه غدا أسير ألفونسو وأدرك مبلغ خديعته (فبراير سنة ١٠٧٣) ، وأنفق جارسيا فى حصن لونا المنيع فى ليون زهاء ثمانية عشر عاما يرسف فى أغلاله . ولم يشأ ألفونسو أن يحل أغلاله خشية انتقامه إلا بعد أن أكد له الأطباء قرب موته . ولكن الأمير المنكود أبى ذلك قائلا إنه حمل أغلاله طوال هذه المدة ، وإنه يريد أن يحملها معه إلى القبر . وفى رواية أنه عجل موته بقطع شرايينه وذهب إلى القبر وهو يلعن أخاه (مارس سنة ١٠٩٠) .

وهكذا فإن ألفونسو السادس لم يعتبر بمحنته وعثار جده ، فيغدو أكثر

اعتدالاً ورفقاً ؛ ولكنه استطاع بالخيانة والجريمة أن يجمع الممالك الثلاث تحت عرشه . كذلك استطاع بعد أعوام قلائل أن يضم إلى مملكته بعض أراضى مملكة نافارا الواقعة على نهر أيبرو (أبرة).

والظاهر أن سانشو الرابع ملك نافارا لم يكن يحكم سوى مملكة صغيرة . ذلك أن فرديناند استولى بعد وفاة أبيه جارسيا على الأراضى الواقعة على ضفة أيبرو اليمنى ، ولم ينل سانشو عرشه إلا بفضل مناعة جباله وتعلق شعبه به . كذلك لا ريب فى صحة الرواية القائلة بأنه عقد حلفاً مع مسلمى سرقسطة ضد أراجون . ذلك لأنه كان يخشى من هذا الجانب أكثر مما كان يخشى من جانب قشتالة . ولم يكن يجمع كلمة الأمراء فيما وراء البرنيه سوى خصومة قشتالة . أما فيما عدا ذلك فقد كانوا يخاصمون بعضهم بعضاً ، وكان سانشو يكفل بذلك حماية عرشه من الأعداء الخارجين . بيد أنه لقى مصرعه على يد أقرب الناس إليه . ذلك أن ريموند وأرمزنده — أسوة بما فعله ألفونسو وأورا كا ضد سانشو ملك قشتالة — أملا أن يحققا بالاغتيال مثل هذه الأمنية . فحدث أثناء الصيد أن كان الملك يرقب من صخرة عالية أفقية مصرع خنزير برى ، فانقض عليه القتلة وطعنوه من الوراء وألقوا به من حالق فسقط مهشما (سنة ١٠٧٦ م) . ولكن النافاريين سخطوا لهذه الجريمة أعا سخط ، ورفعوا إلى العرش سانشو الثانى ملك أراجون ، وذلك بالرغم من استدعاء ريموند لملك قشتالة القوى . ونفذ ملكا أراجون وقشتالة إلى نافارا وتفاهما على اقتسامها بالرغم من وجود ولدى الملك القتيل القاصرين . فاستولى الفونسو على القسم المحاذى لنهر أيبرو المشتمل على ولايتى ريوبا وبسكونية واستولى سانشو على الجزء الواقع على البرنيه ، وهو أكبر القسمين وفيه العاصمة بنبلونة ، وفر ريموند إلى أمير سرقسطة حيث قضى حياته المثقلة باللعن فى غمر الظلام . أما ولدا سانشو الرابع فقد أبقاهما ألفونسو فى ليون لينشآ فى بلاطه .

٣ — ريموند برنجار الأول كونت برشلونة

بينما كانت الممالك الأسبانية تتحول على هذا النحو بالإرهاب والعنف والقتل والحرب الأهلية إلى مملكتين هما قشتالة وأراجون ، ويحرز سلطان النصرانية بذلك تفوقاً ذا شأن على سلطان المسلمين ، كانت أسبانيا النصرانية تاق عضداً فى ولاية برشلونة أو قطلونية التى كان يحكمها طوال هذه الفترة الكونت ريموند برنجار المسمى بريموند الكبير (من سنة ١٠٣٥ — ١٠٧٦ م) . ولم يظهر الكونت فقط كأحد حماة النصرانية يقاتل المسلمين بشجاعة ، وينتزع منهم الأراضى الواقعة على الضفة اليمنى لنهر « لوبرجات » ، ويفرض الجزية على صغار أمرائهم المجاورين له ، ولكنه استطاع أيضاً أن يزيد فى قوة إمارته وذلك بأن ضم إلى برشلونة ولاية أورجل مرة أخرى ، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة[1] الواقعة فى الناحية الأخرى من البرنيه ، وذلك بشرائها من ابنتى صاحبها الكونت روجر الثالث (سنة ١٠٦٧) . ولم يكن ضم هذا الجزء الهام من أراضى لانجدوك إلى قطالونية فقط ممهداً الطريق لمغانم أعظم ، ولكنه أسفر بالأخص عن نتيجة كانت فيما بعد ذات أهمية خاصة وهى إعادة الصلة بين فرنسا وقطلونية ، بعد أن انقطعت من بينهما منذ استقلال قطلونية ، وتهيئة السبيل بذلك لنزوح الفرسان الفرنسيين المجاهدين الذين ألفوا فى محاربة المسلمين مطمح مثلهم الخيالية ، والذين هرعوا فى سريات كبيرة لمساعدة أمراء أسبانيا النصارى ، فى حروبهم ضد المسلمين وعاونوهم على تحقيق أعظم الفتوحات .

كذلك كانت قطلونية فيما يتعلق بالإصلاحات الداخليـة قدوة تحتذى لجميع اسبانيا ، فقد رأى ريموند برنجار أن القوانين القوطية التى تطبق فى الولاية لم تعد تتفق مع سير الأحوال فاستدعى جمعية من الكبراء عقدت فى برشلونة سنة ١٠٦٨ ، ووافق هذا البرلمان الذى شهدته زوجه وواحد وعشرون من الكبراء على لائحة

---

(١) هى كاركاسون الحديثة (Carcassone) ، وهى من مدن البرنيه الفرنسية .

جديدة تسمى « عرف برشلونة » (Usages de Barcellona) لتكون قانوناً يطبق إلى جانب القانون القوطى الذى كان يطبق وحده من قبل . كذلك حاول رعوند أن يحد من حق القوة الذى كان يلجأ إليه الفرسان فى غاراتهم ، وذلك بواسطة الاحتكام إلى « سلام الله » ، واستدعى لذلك جمعية أخرى شهدها فضلا عن الكبراء والأحبار نواب عن المدن وهى أول جمعية أوربية مثلت فيها الطبقة الثالثة . وأعيد حق الالتجاء إلى الكنيسة الذى نبذه الفرنج ، واتخذت قرارات للبر بالمساكين والعزل ، وحماية الزراع من ظلم الأقوياء .

أما الحملة التى بعثها الكونت رعوند لمعاونة أمير إشبيلية على افتتاح بلنسية من يد أمير طليطلة ، فترتبط ارتباطاً شديداً بتاريخ الإمارات المسلمة ، ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نقص تاريخ هذه الإمارات بادىء ذى بدء[1] .

---

(١) يجمل ابن خلدون تاريخ إمارة برشلونة فى فقرة موجزة فى ختام حديثه عن الممالك النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) .

الفصل الثانى

تاريخ الدول الإسـلامية

التى قامت على أنقاض الدولة الأموية فى اسبانيا

كانت أسرة أمية ذات الحول والسلطان — وهى التى بسطت خلافتها من دمشق ، حكمها على العـالم الإسلامى ، والتى استطاعت بعد سقوطها على يد بنى العباس ، أن تحـكم اسبانيا أحد أقطار دولتها الشاسعة ، وأن تقيم بها دولة باهرة ، ظلت بضعة قرون — قد انتهت رياستها كما ينتهى كل شىء فى هذا العالم وحاقت النقمة بعقبها ، فغاضوا فى زوايا التاريخ دون أن يتركوا لهم أثراً .

وإن دولةً تسقط صرعى نقائصها ، وليس من جراء ظفر أعدائها الخارجين ، لا تثير فى الواقع كبير عطف . بيد أنه ممـا يدعو إلى التأمل ، أن يكون سقوط الدولة القديمة ، مهداً لنشوء بذور وحدات جديدة . ذلك لأن كل هدم فى الواقع إنمـا هو عمل من أعمال الإنشاء والتجديد .

لقد ذهبت الخلافة الأموية فى اسبانيا ضحية لغطرسة الحرس الخليفى وبغيه ، وأطماع الولاة ، وانحلال شعب فقد حبه وولاءه للأسرة الحاكمة القـديمة ؛ فمن كان ذا بأس ووجاهة كان يجنح إلى استخدام قواه ، لا فى سبيل الدولة ، وإنمـا لتحقيق مجده الشخصى . وهذه الأحزاب التى تقاسمت أشلاء الدولة وقادتها بذلك إلى الدمار ، لم تمت بذهاب الدولة الأموية ، وإنمـا كان ذهابها فى الواقع بدء النضال فيما بينها ؛ وانقسمت الدولة الإسلامية فى اسبانيا بادئ ذى بدء إلى دويلات

عديدة حتى كان لـكل مدينة تقريباً أميرها المستقل ، متخذاً لقب الملك أو الأمير أو الوالى أو القاضى ، تبعاً لحجم المدينة أو المنطقة التى يحكمها . ولـكن سرعان ماتبين أن هذه الحال لايمكن أن تطول ؛ أولا : لما كان يجيش به الجميع من الأطماع ، وثانياً : لتباين القوى والرياسات . ذلك أن الأقوى كان يحاول أن يبطش بالأضعف ، فيحاول الأضعف أن يدرأ الخطر بالتحالف مع جار أقوى ، يغدو تابعاً له ويعاونه على إحراز النصر على عدوهما المشترك أو يهزم معه . هذا إذا لم تنجده معونة الأمراء النصارى ، وهى معونة يؤجرها بثمن غال .

وهكذا تكونت بعد معركة داميـة بين الأحزاب ، من هاته الدويلات الإسلامية العـديدة ، أربع دول رئيسية غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها . ففى جنوب اسبانيا ، فى غرناطة وفى جزء من الأندلس غلب الحزب الأفريقى (المغربى) الأدارسة أو بنو حمود أصحاب مالقة ، وحالفهـم أميرا غرناطة وقرمونة ؛ وكانوا فضلا عن ذلك يحكمون عدة مدن فى شمال المغرب مثل مليلة وطنجة وسبتة . وكان بنو عباد أمراء إشبيلية يخوضون الحرب مع الحزب الأفريقى بلا انقطاع حتى تم لهم الظفر . وكانوا قد غلبوا بالحرب والخـديعة على جميع الأمراء والولاة فى جنوب غربى اسبانيا . واضطر أميرا قرطبة وبطليوس إلى الانضواء تحت لوائهم حلفاء أو مغلوبين ، ولم يقف فى سبيل محاولة بنى عباد الاستيلاء على اسبانيا المسلمة كلها سوى بنى ذى النون أمراء طليطلة الأقوياء ، الذين حكموا أواسط أسبانيا . بيد أنهم لم يحققوا ذلك إلا على حساب استقلالهم . ذلك أنهم كانوا يدفعون الجزية لملك قشتالة التماساً لعونه ضـد خصومهم . وأما الفريق الرابع الذى حكم فى شرق اسبانيا فكان أضعف من الباقين وحدة وأقلهم استقلالا . ذلك أنه كان طبقاً للظروف يعقد التحالف مع الأدارسة أومع بنى عباد أو مع بنى ذى النون . وكان بنو عامر فى بلنسية ومرسية نظراً لموقعهما الجغرافى أكثر اضطراراً لهـذا التقلب من بنى هود والتجيبيين ، سادة سرقسطة وتطيلة ووشقة .

١ — الأدارســة أو بنو حمود
وحلفاؤهم فى جنوبى اسبانيا

كان الأدارسة الذين يرجعون نسبتهم إلى على بن أبى طالب وفاطمة ابنة النبى (ص) قد أسسوا منذ أواخر القرن الثامن الميلادى دولة فى المغرب كانت عاصمتها فيما بعد مدينة فاس . وقد سقطت دولتهم تحت ضربات الدولة الأموية الأندلسـية والدولة الفاطميـة اللتين تعاقبتا فى غزوها وإخضاعها فى القرن العاشر ؛ وعاش بعض أفراد الأسرة المعزولة فى مصر والمغرب واسبانيا . فلما اضطرمت اسبانيا المسلمة فى أوائل القرن الحادى عشر ، بالحرب الأهلية ، ولىّ بعض الأحزاب المتنافسة علىّ بن حمود سليل الأدارسة الذى كان حاكما لسبتة ، قيادة الجيش الأفريقى (المغاربة) ، (وكانـــ أخوه القاسم بن حمود قد ولى فى عهد الخليفة هشام المؤيد ولاية الجزيرة ومالقة) ، ثم نادوا به خليفة وحاكما لأسبانيا المسلمة (١٠١٥) م[١] . ومن ذلك الحين سمى الأدارسة بالأندلس بالعلويين أو بنى حمود . ومع أن عليا لم يلبث أن مات بعد ذلك بعامين ، فى مؤامرة دبرت لقتله ، فإنه كان قد وطد العرش لأسرته ، وانتخب للعرش بعده أخوه القاسم بن حمود ، ولـكن حدث لسوء الحظ أن اضطرم الصراع حول العرش بين القاسم وبين ابن أخيـه يحيى . ففقد بنو حمود الخلافة ، واستردها الأمويون لمدى قصير[٢] . وانفض

(١) تولى على بن حمود الخلافة فى المحرم سـنة ٤٠٧ هـ ، وهو ما يوافق يونيه سنة (١٠١٦ م) ، وتلقب بالمتوكل على الله .

(٢) كان خروج يحيى بن حمود على عمه القاسم الملقب بالمأمون فى سنة ٤١٢ هـ ، وفرّ القاسم من قرطبة ودخلها يحيى وتلقب بالمعتلى ؛ ثم عاد القاسم فدخل قرطبـة فى ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولـكن اضطر إلى مغادرتها لثورة قامت بها فى جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ . وعول أهل قرطبة على رد الأمر لبنى أمية ، وبايعوا عبد الرحمن بن هشام المستظهر فى رمضان سـنة ٤١٤ هـ ، فلم يلبث أن خرج عليه من أسرته حفيد للناصر يدعى محمد بن عبد الرحمن فقتله لثلاثة أشهر من ولايته ، وجلس على العرش وتلقب بالمستكفى بالله ، وهو والد ولّادة الشاعرة الأندلسية الشهيرة ، ولـكنه أقصى عن قرطبة لستة أشهر فقط من خلافته ، ثم اغتاله أحد أنصاره . وعادت قرطبة إلى طاعة يحيى المعتلى ؛ ثم خرجت عن طاعته ، ورد الأمر =

من حول القاسم جميع أنصاره ، ووقع فى أسر ابن أخيه يحيى بن على . ولم يستطع يحيى أن يسترد خلافة قرطبة بادئ ذى بدء ، ولكنه استطاع أن يحتفظ بأراضيه وثغرى مالقة والجزيرة وبطنجة وسبتة فى إفريقية . ولما عادت قرطبة إلى طاعته للمرة الثانية واتخذ لقب الخلافة مرة أخرى ، ثار عليه والى إشبيلية القرى القاضى ابن عباد ، ونشبت بينهما حرب قتل فيها يحيى (٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م) . وأقام أخوه إدريس نفسه أميراً مستقلا على مالقة والجزيرة وبعض ثغور العدوة المقابلة لجنوبى اسبانيا ، وذلك أثناء خلافة هشام الثالث (المعتمد بالله) بعد نفيه من قرطبة . واشتهر إدريس من بين ألقابه المتعددة بلقب المتأيد بالله .

وتاريخ إدريس هذا ، وتاريخ خلفائه ، فياض بالمتناقضات ؛ والروايات العربية المختلفة لا تكاد تتفق فى شأنه على شىء ، بل إنها لا تتفق حتى على تعاقب الأمراء ، وعلى مدد حكمهم ؛ فالحروب المستمرة بين الأدارسة أنفسهم فى سبيل السلطان ، وتداول الملك بالسيف ، وانقسام الأسرة الحاكمة إلى فرعين ، أحدهما مركزه فى مالقة ، والآخر فى الجزيرة ، وعود الأمراء المعزولين إلى العرش ؛ واتحاد الأراضى المنفصلة تحت حكم أمير واحد ؛ ذلك كله مما يلقى كثيراً من الغموض على تاريخ لا نعرفه سوى معرفة ناقصة مما انتهى إلينا من الشذور والروايات المشوهة [1] .

ومع أن إدريس المتأيد أحسن السيرة فى حكمه (سنة ١٠٢٧ — ١٠٣٩ م) ، وحاول أن يهدئ ثورة الأنفس باستدعاء الأمراء المنفيين ، وإعلان العفو الشامل ؛ ومع أن الشعب قد أحبه لكثرة بره وإحسانه ، وأحبه العلماء والمثقفون لتعضيده العلوم والآداب ، فقد ثار عليه ابن عمه محمد بن القاسم بن حمود ، واستطاع بواسطة

= لبنى أمية مرة أخرى ، وبويع هشام بن محمد الأموى ، ودخل قرطبة سنة ٤٢٠ هـ . وتلقب بالمعتمد بالله ، وخلع بعد عامين لولايته ، ففر إلى الثغر الأعلى ولحق بابن هود صاحب سرقسطة حتى توفى سنة ٤٢٧ هـ ، وهو آخر ملوك بنى أمية بالأندلس .

(١) الواقع أن الروايات المتعلقة بتاريخ الأدارسة فى الأندلس كثيرة الغموض والتناقض . ويراجع فى ذلك ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ — ٩٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥ وج ٦ ص ٢٢١ ، وأبو الفداء ج ٢ ص ١٤٥ و١٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٢٤ و٢٢٥ ، والمراكشى ص ٣٣ — ٣٩ .

الجند الرقيق الذين كانوا يؤلفون بالجيش فرقة خاصة أن يستولى على الجزيرة ، وأن يقيم بهـا حكومة مستقلة . ثم إن ابنى أخيه يحيى وهما إدريس والحسن ، وكانا معتقلين بسبتة ، استطاعا أن يفرا من سجنهما بمؤازرة بعض الزعماء من حراسهما لقاء أمل فى تحقيق جاه أو مطمع ؛ وفى تلك الأثناء قتل إدريس المتأيد ، وليس بعيداً أن يكون قتله أمراً مدبراً ؛ ولـكن إدريس والحسن اختلفا على الملك واقتتلا . فأما إدريس وهو الملقب بالعالى ، فقد أيده القائد ابن بُقَنّـه فى مالقة وأعلنه أميراً عليها . وأما الحسن فقد أعلنه الحاجب نجا الصقلبى أميراً على سبتة ؛ ثم جاز إلى أسبانيا يحاول الاستيلاء على مالقة ؛ فلما لم يوفق فى محاولته ، رأى أن يقنع بعقد معاهدة تقسم بهـا أراضى المملـكة ، ويحتفظ بمقتضاها إدريس بن يحيى بمالقة وما إليها ؛ ويحتفظ الحسن بن يحيى بالثغور الأفريقية ، وسرعان ما ظهر أن الحاجب نجا إنما يعمل لنفسه . ذلك أنه لم يمض سوى قليل حتى قتل الحسن فى سبتة بتحريضه ، بعد أن اتخذ كل أهبة لإنجاح مشروعه الغادر . وتزوج من أرملة الحسن ، واستولى على أراضى الأدارسة فى إفريقية بواسطة جيش ضوعفت أرزاقه ونادى عليها بإمارة محمد بن القاسم (المهدى) أمير الجزيرة ، وقد تردد فى البداية بين قبول الإمارة تحت ظل الحاجب القوى وبين معاونة بنى عمه . ولما وطد نجا سلطانه فى إفريقية ، عبر البحر فى أسطول كبير إلى أسبانيا ، واستطاع بالغدر والخيانة أن ينتزع مالقة ، وأن يأسر إدريس بن يحيى (سنة ١٠٥٣ م) .

فلما وقف محمد بن القاسم أمير الجزيرة على فعلة الحاجب ، بادر بالزحف فى جنده إلى مالقة ليعاقب العصاة ، ولم يدخر الحاجب وسعاً فى التأهب لمحاربته . بيد أنه ما لبث أن رأى فى روع تردد الجند فى تأييده ، فاضطر أن يسعى لسلامة نفسه ، وبادر إلى مالقة لـكى يقضى على الأمير الأسير إدريس بن يحيى ، ثم يمتنع هنالك حتى يأتيـه المدد من إفريقية ؛ بيد أنه قُتل قبل أن يصل إلى المدينة بيد جماعة من الزعماء الموالين للأدارسة ؛ وفى الحال بادر هؤلاء إلى مالقة فأطلقوا سراح إدريس بن يحيى المعتلى ، ورفعوه إلى العرش مرة أخرى (أواخر سنة ١٠٥٣م) .

ولم يكن باديس الظافر أمير غرناطة أقل عونا لإدريس على استرداد عرشه من الزعماء الأدارسة . ومن ثم فإنه يبدو من الخطأ الواضح ما تذهب إليه بعض الروايات العربية من أن الأمير باديس صاحب غرناطة قد افتتح مالقة ونزع إدريس عن عرشه (فى سنة ١٠٥٣ م) [١]. وحكم إدريس الثانى بعد ارتقائه للمرة الثانية عدة أعوام ، وبسط سلطانه على جميع الأراضى التى كانت تابعة للأدارسة ، ومنها الجزيرة انتزعها من محمد المهدى لما أساء فى حقه ، ونفاه إلى إفريقية . بيد أنه ما لبث أن ذهب ضحيةً لبغض أسرته ؛ ذلك أن محمد بن إدريس وهو من عقب محمد ابن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة ائتمر به ونزعه عن العرش وألقاه إلى السجن ، فلبث يرسف فيه أعواماً حتى توفى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) . ولسنا نعرف إن كان محمد هـذا هو نفس محمد المهدى الذى تولى الحكم قبل ذلك بأعوام ، ثم أسقطه إدريس بمعاونة صاحب غرناطة ، وبعث به إلى المنفى فى إفريقية ؛ فإنه من المتعذر علينا أن نتحقق من ذلك نظراً لتماثل الأسماء وإيجاز الرواية وغموضها [٢] . وقد كانت هذه المعارك المستمرة بين الأدارسة أنفسهم أهم الأسباب التى أدت إلى سقوط دولتهم على يد بنى عباد أمراء إشبيلية ، الذين استطاعوا بما لهم من قوة شامخة ، أن يبسطوا سلطانهم على جنوب أسبانيا كله . وخلف محمداً القاسم أكبر أولاده الثمانية وتلقب بالمستعلى ، وأنفق كل وقته فى حروب مستمرة مع إشبيلية ، وسقطت الجزيرة فى يد بنى عباد سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢م) [٣] ؛ ثم سقطت مالقة فى

(١) لم يذكر لنا المؤلف أين استقى هذه الرواية . على أنه يلوح لنا أن الأمر قد اختلط عليه هنا ، والواقع أن باديس صاحب غرناطة قد استولى فعلا على مالقة . ولكن بعد ذلك بأعوام قلائل إذ انتزعها من يد محمد بن إدريس المستعلى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، والمستعلى هو آخر من تولاها من بنى حمود (راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١٨) .

(٢) محمد بن إدريس المشار إليه هنا إنما هو شخص آخر وهو الملقب بالمستعلى . أما محمد ابن إدريس الأول فهو الملقب بالمهدى ، وكانت ولايته سنة ٤٣٨ — ٤٤٦ هـ (١٠٤٧ — ١٠٥٤ م) .

(٣) القاسم المشار إليه هنا هو القاسم بن محمد بن حمود ، وهو آخر ولاة بنى حمود ولم =

أيديهم بعد ذلك بثلاثة أعوام . وعندئذ اضطر الأدارسة إلى الفرار إلى إفريقية حيث بقيت لهم بعض الثغور . أما سلطانهم فى اسبانيا فقد انتهى من ذلك الحين .

وكان حلفاء الأدارسة أمراء مالقة وأتباعهم فى معنى من المعانى ، أمراء غرناطة وألبيرة وجيّان وأصحاب قرمونة واستجه ؛ وكان هؤلاء يشدون أزر مالقة فى حروبها مع إشبيلية ؛ وكان مؤسس إمارة غرناطة الزعيم البربرى زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى الملقب بالمنصور ؛ وخلفه فى حكمها ابن أخيه حبوس بن ماكسن (٤٢٠ هـ — ١٠٢٨ م) على أن يبقى مرتبطا بمحالفة مالقة على محاربة قرطبة وإشبيلية ، وقد كانتا مصدراً لأعظم خطر على غرناطة ؛ ومن ثم بادر حبوس وأمير مالقة ، إلى إغاثة محمد بن عبد الله البرزالى أمير قرمونة واستجه ، حينما هاجمه ابن عباد أمير إشبيلية ، فبعد أن افتتحت قرمونة ، وحوصرت استجه ، ظهرت فى الميدان أمداد مالقة وغرناطة ؛ ومع أن بداية المعركة كانت سيئة بالنسبة للجيوش المتحالفة ، فإن أمير غرناطة الذى اشتبك بجيشه فى معركة دموية ضد الأشبيليين استطاع أن يوقع بهم هزيمة فادحة وأن ينقذ قرمونة . بل استطاع أن يوغل فى أراضى صاحب إشبيلية وأن يثخن فيهـا ؛ على أنه حدث بعد ذلك أن اضطرمت مالقة بالقلاقل عقب موت إدريس المتأيد ؛ وكذلك توفى حبوس بن ماكسن روح هذه الحركة (٤٢٩ هـ — أواخر سنة ١٠٣٨) فدب الخلاف بين الجيوش المتحالفة وأخذت ترمى بعضها بعضاً بالخيانة ، وأصبح من الميسور على الأشبيليين عندئذ أن ينتهزوا هـذه الفرصة لتنظيم قواهم المختلة . وخلف حبوساً ولده باديس المظفر ، فعنى باديء ذى بدء بتوطيد سلطانه قبل أن ينزل إلى ميدان الحرب واستطاع إدريس الثانى (العالى) بمعاونته القوية أن يستعيد عرشه فى مالقة ؛ ولبث باديس مدى حكمه الطويل (من سنة ١٠٣٨ إلى سنة ١٠٧٢م) فى حرب دائم مع إشبيلية يقتتل مع بنى عباد بلا انقطاع ، بالتحالف مع أمراء مالقة وقرمونة واستجه ؛

= يتلقب بالمستعلى ، وكانت ولايته قاصرة على الجزيرة وحدها . وقد نزعها منه المعتضد بن عباد سنة ٤٤٩ هـ أو سنة ٤٥٠ هـ (سنة ١٠٥٨ م) ، وليس فى سنة ٤٦٤ هـ كما يقول المؤلف .

وحدث أن هزم إسحاق بن سليمان الذى خلف محمد البرزالى فى حكم قرمونة ، وأخذت المدينة (سنة ١٠٥٣م) ، ولم يستطع حلفاؤه استعادتها يومئذ من صاحب إشبيلية ، ولكن بنى عباد لم يستطيعوا أن يحققوا لأنفسهم ظفراً يذكر ضد جيوش غرناطة ومالقة ؛ ومن ثم فقد عمدوا بالخيانة والدس إلى إثارة الخلافات الداخلية ، لا فيما بين الحلفاء وحدهم ، بل وفى قلب الأسر الحاكمة ذاتها ، لكى يحطموا بذلك قوى خصومهم ؛ ومن الواضح أن اضطراب سلطان الأدارسة من جراء تقلب العرش بتلك الصورة المنيفة ، يرجع بالأخص إلى الدسائس الخفية التى كان يحوكها أمراء أشبيلية .

فلما انتهز الأمير محمد المعتمد صاحب إشبيلية فرصة الاضطراب فى جنوب اسبانيا ، واستولى على الجزيرة واستجه ومالقة (سنة ١٠٧٥ م) وقضى بذلك على سلطان الأدارسة وأتباعهم أصحاب استجه ، أضحت غرناطة وما يتبعها من أراضى ألبيرة وبياسة وجيان على وشك الوقوع فى قبضة الفاتح ، ولكن وقوع إشبيلية نفسها فى يد ألفونسو السادس وحليفه الأمير المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، اضطر بنى عباد أن يتركوا فتوحهم فى ولاية غرناطة ؛ وكان يحكم غرناطة يومئذ أمير ذكى شجاع هو عبد الله بن بُلُكين بن باديس خلف باديس الظفر وحفيده ، وكان قد استقل بعد ذهاب دولة الأدارسة بغرناطة وجيان وبياسة وألبيرة واستمر فى حكمها حتى نزع المرابطون سلطانه عنها .

٢ — بنو عباد ملوك إشبيلية وحلفاؤهم بنو جهور أصحاب قرطبة وبنو الأفطس أصحاب بطليوس فى جنوب غربى الجزيرة

كان أمير إشبيلية أقوى ملوك الطوائف أو أمراء أسبانيا المسلمة ، الذين قاموا على أنقاض الخلافة الأموية . وينتمى بنو عباد إلى أصل من أصول الشام . وقد وفدت أسرتهم إلى الأندلس فى أواسط القرن الثامن (الميلادى) . ولما قامت الحروب الأهلية التى أدت فى أوائل القرن الحادى عشر إلى سقوط الدولة الأموية

ظهر عميدهم إسماعيل بن عباد بين زعماء الأندلس بالحكمة والثراء والوجاهة الملوكية. وكان المبعدون من قرطبة يلقون منه فى إشبيلية كل عون وحماية. وقد اصطنع لنفسه بفيض جوده، ورقة خلاله، كثيراً من الأصدقاء والأتباع. وهذا النفوذ الكبير الذى كان يتمتع به إسماعيل، هو الذى حمل الخليفة الإدريسى، القاسم ابن حمود على أن يعتمد على معاونة إشبيلية، وعلى أن يعين ابنه أبا القاسم محمداً، من بعده والياً لأشبيلية. فلما اضطرمت الحرب الأهلية، واضطر الخليفة، أن يغادر الحاضرة قرطبة، استخلص محمد لنفسه سيادة إشبيلية بالعنف والخديعة (سنة ٤١٣ هـ — ١٠٢٢ م) وعاونه فى مشروعه جماعة من الزعماء الأقوياء، فأقطعهم بعض الأراضى على أن يؤدوا له الجزية؛ وهكذا وثق علائقهم به وضمهم إلى جانبه. ومع أنه يدين إلى الأدارسة قبل كل شىء بولايته، فإنه ما لبث أن انقلب عدوهم الألد. ولم يقتصر على أن كان أول من جاهر بالثورة والانفصال عن خلافة قرطبة، بل استطاع أيضاً أن يظهر تفوقه على الخليفة يحيى بن على بن حمود فى معركة نشبت بينهما بجوار إشبيلية هزم فيها الخليفة وقتل (سنة ١٠٢٦ م) واستمر محمد من بعد ذلك يبسط سلطانه على نواحى الأندلس، بينما كانت البقية الباقية من بنى أمية فى قرطبة تمزق بعضها بعضاً ويخرج الحكم من يدها.

ولما اضطر هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين، إلى الفرار من قرطبة من جراء خيانة وزرائه وبطانته، قبض على زمام الحكم أبو الحزم جهوَر بن محمد بن جهور، وكان كأسلافه من أكابر رجال الدولة؛ وكان قد ولى الوزارة أو الحجابة لهشام وقبض على زمام الحكم من قبل. فلما خلا العرش طمح إلى استخلاص الملك لنفسه، وهى غاية كانت تقتضى كثيراً من الحكمة والبراعة والدهاء فى مثل هذا الظرف الذى اضطرمت فيه العواصف بين مختلف الأحزاب، وأراد كل أن يأمر، ونكل الجميع عن الطاعة.

ورأى ابن جهور أن يضم الزعماء المتوثبين الطامحين إلى حكومته، وأن يكبح جماح الأحزاب، فدعا العظماء إلى مشاركته فى شؤون الحكم، وبذا أنشأ للدولة

نوعاً من الدستور الأرستقراطى ، وهو نوع من نظم الحكم يندر أن نراه فى الدول الإسلامية ، ولم يتمتع قط بحياة طويلة . وقد انتهى ابن جهور نفسه إليه بتأثير الظروف . ذلك أنه كان من حسن السياسة أن يكسب صداقة الزعماء الأقوياء الذين لم يك من الميسور إخضاعهم بقوة السلاح ، بمنحهم بعض الامتيازات ، وإشراكهم فى مجلس الدولة . وكانت هذه « الجماعة » التى ألفت من أكابر رجال الدولة وأوجههم ، تختص بالنظر فى شؤون الدولة العليا . وكان ابن جهور يعتبر لها رئيساً فقط . بيد أنه ما لبث أن اتخذ منها فى يده أداة يوجهها كيف شاء . وكان لهذا النظام ميزة خاصة ، هى أن يستطيع أن ينسب إلى هذا المجلس الأعلى من تصرفات الحكومة ، كل ما هو بغيض وصارم ، وأن ينسب لنفسه منها ، ما يقبله الشعب ويرضاه . بيد أنه لا ريب أيضاً أنه استطاع أن يغنم رضى القرطبيين بما حققه من إصلاحات عديدة . ذلك أنه خفض الضرائب الفادحة التى كان يقتضيها بذخ الأمويين وتبذيرهم ، تخفيضاً عظيما ، وألغى البعض منها بتاتاً . وسار فى حياته الخاصة سيرة قناعة ومجانبة للإسراف ، وجنح إلى البساطة والاعتدال . بل لقد أبى بادئ ذى بدء أن يسكن فى القصور الملكية ، تفادياً لما يقتضيه ذلك من كثرة الحشم ، واستطاع أن يحقق بإقالة رجال الحاشية ، وهم جمهرة كبيرة ، وفراً عظيما فى النفقة . وأصلح القضاء الذى انهارت دعائمه فى أواخر الدولة الأموية من جرّاء انتشار التجسس والرشوة ، وأقام جماعة قليلة من المحامين ذوى رواتب كالقضاة ، ألفوا مصلحتهم فى سرعة إنجاز القضايا ، وتبسيط سير العدالة بقدر المستطاع . ورأى فيما يتعلق بمزاولة الطب ، أن يبعد عن المدينة كل الأدعياء وألا يسمح بمزاولته إلا لمن جاز الامتحان أمام لجنة من أكابر الأطباء . وأنشأ شرطة بارعة تسهر على حسن تموين المدن بالمواد الغذائية ، وعلى رخص أسعارها . وعهد إلى الجند الشعبى (المليشيا) الذى درب خلال الحرب الأهلية بالسهر على أمن المدينة وسكينتها . ورصد إيرادات الدولة ونفقاتها فى جرائد سنوية تذاع على الشعب ، وفرض على جباة الضرائب والمكوس (الجمارك) رقابة

صارمة . وهكذا تمتعت المدينة التي عانت مصائب الحرب الأهلية حقبة طويلة بنعم السلام والرخاء في ظل حكومة رفيقة عادلة ، وازدهرت العلوم والتجارة والصناعة ، وقامت فوق الأطلال الدارسة والميادين الخربة مرة أخرى ، أبنية شامخة يعمرها قوم سعداء يدعون لسلطانهم بطول البقاء[1] .

وإذ كانت قرطبة من قبل عاصمة اسبانيا المسلمة فكذلك كان جهور يطمح إلى توسيع سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يغدو مثلما كان عليه سلطان الأمويين من قبل ؛ وكانت هذه أمنية جريئة خصوصاً إذا ذكرنا أن سلطانه لم يكن يشمل بعد قرطبة سوى مدن قلائل ، وأن ولاة الأقاليم الذين أقاموا أنفسهم أمراء مستقلين كان في وسعهم أن يردوا أطماع جهور عن أراضيهم بالسيف . والواقع أنه لم يك ثمة عماد لأي حق أو دعوى في السلطان سوى القوة والعنف . ولما أرسل جهور إلى أمراء مالقة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة وبطليوس وبلنسية ، يدعوهم إلى الاعتراف بطاعته لم يتنازلوا حتى بالرد عليه . وحاولوا أن يذيعوا في جميع أنحاء اسبانيا مختلف الإشاعات عن حكمه الظالم . أما جهور فكان من جانبه يتجاهل استقلالهم ومزاعمهم ، ويمتدح في رسائله إليهم ، غيرتهم وعنايتهم بتأييد السلام في الأقاليم الموكولة إليهم ، وكون توطيد دعائم الدولة لا يكون إلا بالطاعة والاتحاد .

وكان أقلهم اكتراثاً بدعاوى جهور أبو القاسم محمد بن عباد أمير إشبيلية ، وكان يومئذ قد انتهى من حصار قرمونة وافتتاحها . بيد أنه لما هرع أميرا مالقة وغرناطة إلى إغاثة البرزالي صاحب قرمونة ، وهزما جيش أشبيلية ، وهددا إشبيلية ذاتها ، رأى محمد أن في مخاصمة جهور خطراً كبيراً عليه ، وفكر في حيلة يتقي بها شر أعدائه . ورأى لكي يسبغ على قضيته مسحة الحق ، ويغتنم

(١) تفيض الرواية العربية في مناقب الوزير جهور وفي رفيع خلاله وبارع حكمه ، وتصف لنا نظام الجماعة الذي أنشأه في قرطبة وبرنامجه الإصلاحي في كثير من الإعجاب والتقدير . يراجع في ذلك بالأخص ابن الأبار في كتاب الحلة السيراء ص ١٦٨ . والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٦ نقلا عن ابن حيان .

تأييد الشعب فى جميع الولايات ، ثم لـكى يقضى بالأخص على زعامة جهور فى قرطبة ، أن يذيع فى كل مكان أن الخليفة هشاما الثانى (المؤيد) (الذى أذيع موته مرة من قبل ورفع ثانية إلى العرش)[1] لم يقتل كما يتوهم الناس ، ولـكنه ما يزال حيا يقيم فى أشبيلية ، وأنه دعا محمداً إلى إغاثته وعونه ؛ ثم أمر فدعى لهشام فى الخطبـة على جميع منابر إشبيلية ، ونقش اسمه على السكة بها . وطلب إلى جميع المسلمين المخلصين أن يلزموا الولاء لسيدهم الشرعى ، وأن يعترفوا به خليفة لهم . كما طلب إلى رؤساء الأقاليم والمدن أن يقيموا له البيعة . بيد أن مزاعم محمد لم تلق بين الأمراء كبير تأييد ، ولم يقبلها سوى بنى عامر أصحاب بلنسية ومرسية ، فوعدوا وحدهم بالإعانة والطاعة . أما الباقون فقد استقبلوا دعوة محمد إلى المعونة بالسخرية ، ولو ظهر هشام الحقيقى فيما بينهم لما أطاعوه . على أن محمداً استطاع مع ذلك أن يحقق غايته من بعض الوجوه ، فقد بث الشجاعة فى نفوس أصدقائه وبث التفرقة إلى أعدائه ، ورد سيرهم المظفر إلى إشبيلية . كذلك أثارت دسيسة محمد فى قرطبة قلاقل وثورات ضد حكم جهور ، وشغل جهور بقمعها ، فلم يكن بوسعه أن يتقدم لمقاتلة محمد . وكذا ثارت الفتنة فى مالقة بين الأدارسة حول العرش ، وهزم الأدارسة وحليفهم صاحب غرناطة فى ميدان الحرب (٤٢٩ هـ — ١٠٣٨ م) . وبذا أنقذ محمد ، وكافأ محمد قائده الـكبير أيوب بن عامر ابن يحيى اليحصبى الذى حقق له النصر ، فأقطعه حكم ولبه[2] وجزيرة شلطيش ، على أن يؤدى الجزية .

وكان ثمة فى جنوبى غربى الأندلس ، فضلا عن مملـكتى إشبيلية وقرطبة ،

(١) تختلف المصادر العربية فى مصير الخليفة هشام المؤيد اختلافا كبيراً ، وتقدم إلينا عن موته واختفائه وظهوره روايات كثيرة متناقضة ؛ وتختلف أيضاً فى شأن هذه الواقعة التى يشير إليها المؤلف ؛ فالبعض يرى أنها من حبل ابن عباد وتمويهاته ، مثل ابن حيان (البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٨) ، وابن الأثير (ج ٩ ص ٩٧) ، وأن ابن عباد اخترع هـذه القصة اختراعا ليستعين بها على أمره ويهدد خصومه ؛ ويرى البعض مثل أبى الفداء أنها واقعة حقيقية (ج ٢ ص ١٤٧) .

(٢) ولبه Huelva ، ويطلق عليها أحياناً اسم « أونبه » .

بنو الأفطس يقيمون فى بطليوس مملكة ذات شأن ، ويرجع الفضل فى قيامهم على عرشها إلى سابور الفارسى ، مولى الخليفة الحكم الثانى (المستنصر) ووالى مقاطعة الغرب فى عهد هشام الثانى (المؤيد) . وعهد سابور بولاية ماردة إلى فتى من مكناسة هو عبد الله بن مسلمة بن الأفطس التجيبى وأولاه ثقته ، وكان يستشيره فى جميع شؤون الحكم . ولما توفى سابور أثناء الحرب الأهلية ، نادى عبد الله بن الأفطس بنفسه أميراً مستقلا فى « الغرب » (غرب الأندلس) وتلقب بالمنصور[1] ، واتخذ بطليوس مقرا لحكومته ، وكان له حلفاء أقوياء فى بنى عمه التجيبيين أمراء سرقسطة (بنى هود) . ولم يكترث ابن الأفطس لدعوة ابن جهور إياه إلى الطاعة . ولكى يوطد ملكه فى المنطقة التى تشمل بطليوس وماردة ويابرة وباجة وقورية وأشبونة وشلب وما إليها ، عين ولده أبا بكر محمد وليا للعهد ، وهو الذى تلقب فيما بعد بالمظفر .

وكما حاول أيوب وأحمد ابنا أحمد والى لبلة (سنة ١٠١٩ م) أن ينشئا بالأندلس فى ولبة وجزيرة شلطيش ولبلة إمارة مستقلة ، وهى إمارة سرعان ما تطلع بنو عباد وبنو الأفطس إلى إخضاعها ، فكذلك قامت إمارة صغيرة أخرى جنوبى البرتغال هى إمارة شَنْتَمرية (سانتا ماريا) الغرب (الغربية) من أعمال ولاية الغرب الحالية وقاعدتها مدينة اكسونبه ، ويحكمها الوزير أبو جعفر أحمد بن سعيد ، وصهره سعيد بن هارون اعتماداً على حق الوراثة . أما شَنْتَمرية الشرق (الشرقية) وأرضها المعروفة بالسهلة المتاخمة لولاية طليطلة ، فكان يحكمها هذيل بن خلف بالوراثة عن جده الحاجب عز الدولة أبو محمد هذيل بن رزين ، وعاصمتها شنتمرية الشرق[2] ، وكان أميرها يستظل بحماية بنى ذى النون أمراء طليطلة .

وبينما كان جهور أمير قرطبة يطمح إلى امتلاك شنتمرية الشرق ، كان

---

(١) فى أبى الفداء (٢ ص ١٤٨) ، وابن الأثير (٩ ص ٩٩) أن الذى تلقب بالمنصور هو الفتى سابور .

(٢) هى التى تعرف فى الجغرافية الحديثة باسم Albarracin ، وهو تحريف لاسم حكامها من بنى رزين .

بنو عباد يطمحون إلى امتلاك شنتمرية الغرب ، وسرعان ما رجحت كفة بنى عباد رجحانا قويا بتحالفهم الوثيق مع العامريين سادة الساحل الشرقى (بلنسية ومرسية) ، وعدل أبو القاسم محمد بن عباد فى أواخر عهده عن دعواه بأن هشاما الثانى حى يقيم فى قصره ، ولكنه عمد إلى قصة أخرى كان يرجو من ورائها النجاح ، فزعم أن هشاما توفى حقيقة ، ولكنه اختاره لولاية عهده ، وعهد إليه بالانتقام لما حل به من المحن ، واعتمد بنو عامر على ذلك الزعم الواهى فعملوا على توثيق تحالفهم مع بنى عباد ؛ وهكذا أصبحت هزيمة الأدارسة أمراً محققاً بعد أن صار الهجوم عليهم ممكناً من الناحيتين .

بيد أن ابن عباد ما كاد يجدّ فى الأهبة لمحاربة الأدارسة وحلفائهم حتى أدركه الموت (٤٣٣ ﻫ — ١٠٤٢ م) فخلفه فى الحكم ولده أبو عمرو عباد بن محمد وتلقب بالمعتضد بالله . وقد اشتهر المعتضد بوفرة ذكائه ، كما اشتهر بوسامته وروعة قوامه ؛ وكما أسبغت عليه شهرته بالقريض والغزل المضطرم والشجاعة والبذخ صورة أمير من أمراء الفروسية ، فكذلك نراه يصم هذه الصورة المثلى بشنيع جوره ، ورائع قسوته ، وبالغ استهتاره بالدين . ومع أنه كان يشغف حبا بزوجه ابنة مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية (البليار) ، فإنه كان يحتفظ بسرب من الحظايا يضم سبعمائة أو ثمانمائة امرأة ؛ وبالرغم من أنه كان ينفق أموالا عظيمة على الأبنية الشامخة ولا سيما القصور والقلاع ، فإنه كان يترك المساجد خرابا ولا يعنى بإنشاء شىء منها خلافا لما جرت عليه سنن أمراء المسلمين . وقد كان يغمر خاصة أصدقائه بعطفه وجزيل صلاته ، ولكنهم لم يأمنوا قط روعة الموت على يده . ذلك أن بذخه الطائل كان يقتضى أموالا عظيمة ، وكان ينتزعها من أولئك الذين أثروا مما أولاهم من مناصب ووهبهم من عطايا . وقد قضى بالموت على معظم وزرائه ونزع أملاكهم ليستعين بها على بذخه المغرق . وكانت تنتظم فى أبهاء قصره أقداح من جماجم الموتى محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، فيذكر أهل بطانته دائماً برؤيتها ما يهددهم من روعة المصير[١] ، وأما إزاء جيرانه فقد كان المعتضد كثير

(١) إن هذه الصورة الباهرة القاتمة التى يقدمها إلينا المؤلف عن المعتضد بالله العبادى =

الدهاء والخديعة لا يترك فرصة سانحة إلا انتهزها لتوسيع أملاكه . وكان يوجه جل اهتمامه إلى الأدارسة باعتبارهم أخطر أعداء إشبيلية . بيد أنه لم يغفل أيضاً شأن قرطبة وطليطلة ، وكان يرى أن اشتباكهما فى حرب مما يعود عليه بأكبر نفع ، إذ يستطيع عندئذ أن يتحول من محالفتهما إلى افتتاحهما بأيسر أمر .

٣ — بنو ذى النون

كانت طليطلة فى أواسط اسبانيا يومئذ أقوى دولة إسلامية فى شبه الجزيرة . ولسنا نعرف بالتحقيق أول من حكمها عقب انهيار الدولة الأموية . فالبعض يقول إن ابن يعيش كان أول أمير استقل بها عن حكومة قرطبة . ولكن معظم الروايات تجمع على أن الذى حكمها بعد ذلك هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر من بنى ذى النون أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بنصر الدولة الظفر (بعد سنة ١٠٣٠ م على ما يظهر)[١] . وتلقى إسماعيل بالسخرية دعوة جهور أمير قرطبة

= هى نفس الصورة التى رددتها التواريخ الإسلامية كلها والأندلسية منها بنوع خاص لا مبالغة فيها ولا إغراق . وقد أجملها لنا ابن بسام صاحب الذخيرة فى العبارات القوية الآتية : « قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم منه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فرس الفلا وهو رابض ، متهور تتحاماه الدهاة ، وجبان لا تأمنه الكماة ، متعسف اهتدى ، ومنبت قطع فما أبقى . . . . وكان قد أوتى أيضاً من جمال الصورة وتمام الخلقة وفخامة الهيئة وسباطة البنان وثقوب الذهن وحضور الخاطر وصدق الحدس ما فاق على نظرائه ، ونظر مع ذلك فى الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأزكى طبع ... أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة فى معان أمدته فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة . وكان على جرأته فى إحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء فاستوسع فى اتخاذهن وخلط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه ... » أوردها ابن خلكان فى ترجمة المعتضد منسوبة لابن بسام (ج ٢ س ٣٧) ووردت فى البيان المغرب منسوبة لابن حيان (ج ٣ س ٢٠٧) . وأما ما قيل فى قسوته وبطشه برجال الدولة وقصة الجماجم التى كانت تزين ساحة قصره فيراجع فيه المراكشى (ص ٥٠ و ٥١) . ويراجع أيضاً دوزى (ج ٣ س ٤٣ و ٤٩) .

(١) كان مؤسس دولة بنى ذى النون فى طليطلة إسماعيل بن عبد الرحمن يلقب بالظافر وليس بالمظفر ؛ وكان بدء دولته فيها سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦م) (ابن خلدون ج ٤ س ١٦٦ ، وأبو الفداء ٢ س ١٤٧) .

إياه إلى الطاعة تحت ظل الحكومة المركزية ، ونصح إليه بأن يقنع بإغضائهم عن اغتصابه ، وكون بعض الزعماء الضعفاء يعترفون بطاعته . وأما هو فليس يدين بالطاعة لأحد سوى الله .

ولما رأى جهور أنه لايستطيع نظراً لضعفه أن يفرض طاعته على الأمراء الأقوياء بالسيف ، تذرع بالروية والحزم وآثر أن يجرب قواه مع بعض الزعماء الأصاغر ؛ وكانت محاولته الأولى ضد صاحب السهلة الذى أبى أن يعترف بسلطان قرطبة ، فهاجمته قوة من الفرسان القرطبيين ، وأخضعت إمارته الضعيفة بسرعة ؛ وعندئذ استغاث الأمير المعزول وهو هذيل بن رزين بصاحب طليطلة ؛ وكان إسماعيل بن ذى النون ينظر بعين التوجس إلى كل توسع من جانب قرطبة ، فبادر بغوث ابن رزين ، ولم يمض سوى قليل حتى استعادت قواته السهلة ورُدت لأميرها وأخذ يهدد قرطبة ذاتها .

وكأنما كل شىء كان ينذر بسقوط قرطبة ، ففى نفس اللحظة التى كانت الحاجة فيها أشد ما تكون إلى حاكم قوى ، توفى الأمير النابه جهور ، ذلك الذى نعته الشعب بأبى الوطن والمدافع عن الدولة (سنة ٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م) . ومن سوء الطالع أن ابنه الوليد محمد بن جهورَ الذى خلفه فى الحكم ، لم يكن رجل هذا المأزق الصعب . أجل كان الوليد عاقلا عادلا ، ولكنه كان ضعيفاً مريضاً لا يقوى على أعباء الرياسة . وسرعان ما ظهر أن يديه الضعيفتين لم تكونا أهلا لقبض على زمام الحكم فى تلك الآونة العصيبة ؛ ورأى محمد أن يجتنب حرباً غير مأمونة العواقب ، فعرض الصلح على صاحبى طليطلة والسهلة ، ولكنهما رفضا عرضه بإباء ، فاضطر عندئذ أن يخوض رغم إرادته حرب حياة أو موت .

وهكذا أثخنت مدى أعوام فى المنطقة الواقعة بين قرطبة وطليطلة حرب طاحنة ؛ وكانت الهزيمة ستغدو فيما يظهر مصير ابن جهور ، لو لم يقم فرديناند الأول ملك قشتالة وليون بغزو أراضى طليطلة غير مرة ، ويرغم ابن ذى النون بذلك على عقد الهدنة مراراً مع قرطبة . فلما خضعت طليطلة لقشتالة والتزمت بأداء

الجزية ، واستطاعت بذلك أن تغنم السكينة وأن تعتمد على عون القشتاليين وقت الحاجة ، عادت إلى محاربة قرطبة بنجاح ، سيما وقد حالفها على قتال قرطبة بنو عامر أصحاب بلنسية .

٤ — بنو عامر والتجيبيون وبنو هود فى شرق اسبانيا

كان الشاطئ الأسبانى من مصب نهر أيبرو (أبره) جنوباً حتى ثغر المرية على مقربة من الجزائر الشرقية (البليار) قد اقتسمته دويلات عدة تجمعها جميعاً رابطة التحالف ، وتعترف برياسة أمير بلنسية أبو الحسن عبد العزيز المعافرى حفيد الحاجب المنصور محمد ابن أبى عامر ؛ ومع أن المنصور وأتباعه من بنى عامر كانوا أول سبب فى سقوط الدولة الأموية ، فإنهم انحازوا بعد ذلك منذ حروب الفتى خيران العامرى ضد الأدارسة إلى جانب بنى أمية . على أن الخليفة الإدريسى على بن حمود بعد هزيمته لخيران (سنة ١٠١٨ م) أقطع مع ذلك قريبه الفتى زهير العامرى ولاية دانية . واستطاع زهير خلال الحرب الأهلية بمعاونة بعض الزعماء العامريين أن يستولى على ثغر المرية بسهولة ، وقد كان يحكمها يومئذ محمد بن القاسم القيروانى من قبل أمير إشبيلية ؛ وهكذا بسط زهير حكمه على جميع الشاطئ الممتد من مرسية إلى المرية وعلى الجزائر الشرقية . وكان يحكم دانية من قبله على بن مجاهد ، ويحكم ابن عمه أبو الجيش عبد الله ، وأحمد بن رشيق الجزائر الشرقية (البليار) وأبو بكر أحمد مرسية[1] ، أما بلنسية فكانت مستقلة يحكمها أبو الحسن عبد العزيز حفيد المنصور (منذ سنة ١٠٢٢ م فيما يظهر) وكانت تربطه بزهير محالفة وثيقة ؛ فلما توفى زهير أو قتل فى المرية بعد حكم طويل قام صديقه

(١) إن أول من استقل بدانية هو مجاهد العامرى الملقب بالموفق ، واستقل بها سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، وخلفه ولده على بن مجاهد الملقب بإقبال الدولة سنة ٤٣٦ هـ (١٠٥٤ م) . وأما عبد الله فكان يلى جزيرة ميورقة من قبل عمه مجاهد ؛ وأبو بكر صاحب مرسية هو أبو بكر أحمد بن طاهر (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ وما بعدها) .

عبد العزيز الملقب بالمنصور بالأمر من بعده ، وبسط حكمه على الثغور الممتدة من المرية حتى مصب أبره (سنة ١٠٥١ م) . وكان من أتباعه أيضاً الزعيمان العامريان لبون صاحب مربيطر ، ومبارك صاحب شاطبة[1] . وكذلك وثقت أواصر التحالف بينه وبين التجيبيين أصحاب سرقسطة ، بواسطة التعاهد والمصاهرة ، ثم أقطع المنصور ولاية المرية لصهره وزوج ابنته معن أبى الأحوص ابن والى وشقة[2] .

ولا ريب أن سادة ولاية سرقسطة (الثغر الأعلى) كان مركزهم أشد حرجاً من مركز أى أمير آخر من أمراء اسبانيا المسلمة ؛ وكان يتبعهم ولاة وشقة ولاردة وطرطوشة ، وهم من بنى تجيب ؛ وقد اختلف فيما إذا كان بنو هود أمراء سرقسطة ينتمون إلى فرع من بنى تجيب ، أم أنهم ينتمون إلى أصل آخر ، والأول هو الأرجح والأصح . كذلك اختلفت الرواية فى شأن أمراء سرقسطة الأوائل . والمعروف أنه حينما اضطرمت الحرب الأهلية التى انتهت بسقوط الدولة الأموية ، استطاع المنذر بن يحى التجيبى أن يستقل بشؤون سرقسطة منذ سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م ثم أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بالمنصور . والروايات القليلة التى انتهت إلينا عنه يناقض بعضها بعضا . بيد أنه يلوح لنا من المحقق ، أنه لا صحة للرواية العربية القائلة بأن حكمه قد امتد حتى سنة ١٠٣٩ م . وأن هشاماً الثالث آخر الخلفاء الأمويين قد لجأ إليه واستظل بضيافته ، وأنه قتل بيد بعض أقاربه أثناء رحلة له إلى غرناطة . ويبدو من الأصح أن موت المنذر كان فى سنة ١٠٢٦ على الأكثر ، وأن ولده يحى الملقب بالمظفر الذى لا تذكره معظم الروايات قد خلفه

---

(١) مربيطر هى بالأفرنجية Murviedro وهى Sagonto الحديثة ، وقد كان صاحبها أبو عيسى بن لبون (ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٦) ، وتراجع أخبار مبارك العامرى صاحب شاطبة فى البيان المغرب ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) هو ذو الوزارتين أبو الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبى صاحب المرية ولورقة وبياسة وجيان ، وكانت له ولابنه أبى يحى بن معن الملقب بالمعتصم بالمرية دولة زاهرة دامت زهاء نصف قرن ، واشتهرت بحماية الشعر والأدب (سنة ٤٣٣ — ٤٨٤ هـ) .

فى الحكم ، ثم انتزى عليه سليمان بن أحمد بن هود والى لاردة ، فانتزع سرقسطة ؛ وحكمها بنو هود من ذلك الحين . وعلى أى حال فلا بد أن يكون ذلك قد حدث قبل سنة ١٠٣١ م ، إذ تجمع الروايات الوثيقة على أن هشاماً الثالث قد لجأ فى هذه السنة إلى سليمان بن هود أمير سرقسطة واستظل برعايته وحمايته[1] . واتخذ سليمان لقب المستعين بالله ، ووطد دعائم استقلاله بقوة وشجاعة ضد النصارى والمسلمين على السواء . ورفض ما طلبه إليه جهور من الاعتراف برياسته ؛ واعترف ولاة وشقة وطرطوشة وغيرها من المدن القريبة من سرقسطة بسيادة بنى هود ، بعضها طوعاً والبعض الآخر كرهاً . وإذ كان التحالف وثيقاً بين التجيبيين والعامريين لما بينهما من صلة القرابة ، فقد كان بوسع سرقسطة التى عانت كثيراً من غزوات جيرانها النصارى ، أن تعتمد على معاونة بلنسية ، هذا إذا لم تنقذها الحروب الأهلية بين القطلونيين والقشتاليين والأرجونيين والناڤاريين (البشكنس) .
وناضل ولد سليمان وخلفه أبو جعفر أحمد المقتدر (٤٣٧ هـ — ١٠٤٦ م) بمثل حزمه وشجاعته ؛ بيد أنه اضطر أخيراً لكى يتقى غلبة البشكنس والأرجونيين والقطلونيين ، أن ينضوى تحت لواء فرديناند الأول ملك قشتالة ، وأن يؤدى له الجزية ، وأن يكفل بذلك معونته ضد جميع أعدائه .

---

(١) تختلف الرواية العربية فى شأن منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة ، فالبعض يقول إنه حكمها حتى سنة ٤١٤ هـ ، وخلفه فى حكمها ولده يحيى الملقب بالمظفر ، واستمر فى حكمه حتى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) حيث انتزعها منه سليمان بن هود وقتله (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠) . ولكن البعض الآخر يغفل ذكر المظفر ويقول لنا إن منذراً استطال حكمه حتى سنة ٤٣٠ هـ ، وأنه قتل بيد رجل يدعى عبد الله بن حكيم غلب على سرقسطة حينا ثم انتزعها منه سليمان بن هود سنة ٤٣١ (البيان المغرب ٣ ص ١٧٨ و١٧٩) . وأما ما يشير إليه المؤلف من التجاء هشام الثالث الأموى الملقب بالمعتمد إلى صاحب سرقسطة ، فقد حدث ذلك سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) حسبما يذكر المؤلف ، ولكن قبل تغلب ابن هود عليها ، وكان التجاؤه إلى منذر أو ولده المظفر .

الفصل الثالث

حروب الطوائف بمؤازرة النصارى

حتى افتتاح ألفونسو السادس لطليطلة

(سنة ٤٣٣ — ٤٧٨ هـ) — (١٠٥١ — ١٠٨٥ م)

---

١ — تفوق أمير طليطلة

هكذا كانت حال الدول الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر : كانت فيما بينها أشد خصومة وتطاحناً من النصارى ، ولم تكن تتورع عن التحالف مع الدول النصرانيـة أو أن تستمد عونها نظير الجزية . وحتى صاحب أواسط اسبانيا الأمير القوى المأمون يحيى بن ذى النون الذى خلف أباه سـنة ١٠٤٣ م ، لم يكتف باغتنام عون حليفه القوى عبد العزيز بن أبى عامر ، فعمد إلى استئجار الفرسان القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة . وقد كان سقوط ابن جهور محققاً لو أنه اجترأ على لقاء الحلفاء واتقاء العاصفة بمفرده ؛ ومن ثم فقد اضطر على مضض أن ينزل عن دعواه فى سيادة اسبانيا المسلمة كلها ، وأن يعترف باستقلال جيرانه وخصومه ، بنى عباد أصحاب إشبيلية ، وبنى الأفطس أصحاب بطليوس ، وأن يدعوهم إلى معاونته ضد طليطلة ، التى كانت تهددهم جميعاً بالويل . ومع أن المعتضد بن عباد كان يشتبك يومئذ مع الأدارسة فى معارك شديدة فانه بادر مع ذلك إلى قبول التحالف المرغوب ، إذ رأى فيه وسيلة طيبة لتوسيع سلطانه . أما أمير بطليوس فقد كان أقل أثرة وهوى . ذلك أنه ما كاد ابن جهور

يعترف بسيادته على « الغرب »[1] حتى بادر بوضع قواته رهن تصرفه .

وقد أثار هذا الحلف الذى عقد بين أمراء جنوب غربى اسبانيا الثلاثة (سنة ١٠٥١م) بالأندلس حربا عظيمة ، كان من نتائجها أن زاد سلطان بنى عباد ووجاهتهم زيادة كبيرة . وأراد الأمراء الأصاغر ، أصحاب لبلة وولبة وجزيرة شلطيش واكسونبه ، الانضمام إلى هذا الحلف ؛ ولكن ابن عباد عارض فى قبولهم كحلفاء مستقلين ، فى حين أنهم يستظلون بسيادته . بيد أنهم عقدوا مع ذلك فيما بينهم تحالفا وثيقاً ، وفوضوا عبد العزيز اليحصبى صاحب لبلة (الذى خلف أحمد منذ سنة ١٠٤٢)[2] فى أن يعقد باسمهم محالفة خاصة مع قرطبة ، يتعهد الجميع بمقتضاها أن يتعاونوا فى الدفاع عن أنفسهم . وتطبيقا لهذا التحالف سار الجميع فى قواتهم إلى قرطبة لإنجادها . وعندئذ عمد ابن عباد إلى انتهاز هذه الفرصة ، فاكتفى بأن أرسل إلى محمد بن جهور خمسمائة فارس ، وزحف فى جيش قوى على لبلة وولبة وجزيرة شلطيش واكسونبه ، واستولى عليها ؛ ولاذ أمراؤها بالفرار اتقاء الأسر أو الموت ، وأسلمها ابن عباد إلى أسَر الأمراء الفارين ، على ألا تعتبر هذه المنحة ذات صفة شخصية ، بل تعتبر مقابل خدماتهم ، فلا تكون الجزية وراثية ، وإنما يزاول بمقتضاها حقه فى السيادة باختيار خلفائهم . ومن ثم فقد عهد ابن عباد إلى والى لبلة الجديد عبد الله بن عبد العزيز ، بالقيام بمحاربة قرمونة ، فحاربها وافتتحها سنة ١٠٥٣ كما قدمنا .

أما الحرب بين طليطلة وقرطبة ، فقد لبثت بضعة أعوام تتخللها معارك مضطرمة تدور سجالا بين الفريقين . بيد أنها استحالت فى النهاية بالنسبة لمحمد ابن جهور إلى وجهة محزنة . ذلك أن المأمون صاحب طليطلة ، بعد أن اجتمع

---

(١) ولاية الغرب Algarve أو غرب الأندلس .

(٢) فى إيراد ولاة لبلة على هذا النحو خطأ أو تحريف . ذلك أن أول ولاتها المستقلين هو أحمد بن يحيى اليحصبى الملقب بتاج الدين ، وخلفه فى الحكم أخوه محمد بن يحيى اليحصبى (سنة ١٠٤١م) وتلقب بعز الدين ، ولا يوجد بين ولاة لبلة من بنى يحيى من اسمه عبد العزيز .

لديه من جراء تحالفه مع بلنسية والسهلة وقشتالة ، كثير من الجند المرتزقة ، سار إلى لقاء أعدائه فى معركة حاسمة ، واستطاع أن يوقع بقوات قرطبة وبطليوس وإشبيلية المتحدة هزيمة شديدة . ثم ظهر بجيشه الظافر أمام أسوار عاصمة الأندلس القديمة ، وضرب فى الحال حولها الحصار . ولم يك ثمة سبيل لإنقاذ قرطبة إلا أن تبادر إشبيلية إلى إغاثتها ، فبعث محمد ابنه عبد الملك إلى أشبيلية ليطالب حليفه ابن عباد ، بأن يبعث إليه المدد على جناح السرعة ، لكى يرغم المأمون على رفع الحصار ؛ فتردد ابن عباد فى البداية ، ولكنه لما رأى قرطبة قد أشرفت على السقوط بعث لإنجادها جيشا قويا تحت إمرة ابنه محمد وإمرة قائده ابن عمر (ابن عمار)[1] وزودهما بخطة وأوامر سرية خاصة ، فهوجم الجيش المحاصر واضطر إلى رفع الحصار بعد معركة دموية ، ثم ارتد أدراجه مسرعا ، وخرج القرطبيون فطاردوا أعداءهم وأتموا بذلك هزيمة الطليطليين .

وهنا رأى قائد الأشبيليين (ابن عمار) الفرصة سانحة لتنفيذ خطة سيده السرية ، فبينما كان جيش قرطبة لا يزال مشغولا بمطاردة العدو بإمرة عبد الملك ابن جهور ، سار ابن عمار إلى المدينة ، ولم يظن إنسان بالحلفاء سوءاً ، ودخلها دون معارضة واحتل مراكزها الحصينة ، قبل أن يفطن القرطبيون إلى أن

---

(١) يحدثنا المؤلف فى غير موضع عن « ابن عمر » Ibn Omar قائد المعتمد بن عباد أو مبعوثه . وقد استطعنا أن نقطع فى الحال بأن إيراد الاسم على هذه الصورة به تحريف ، وأنه يجب أن ينصرف إلى ابن عمار وزير المعتمد ؛ وهو أبو بكر محمد بن عمار الشاعر الأشهر وكان من رجالات الأندلس ومن أوفرهم ذكاء وبراعة ودهاء . وزر للمعتمد ، وتولى تصريف مهامه السياسية ، وكان يرافق حملاته ويسهر على نجاحها بحسن تدبيره . وما زال يخدم المعتمد حتى سخط عليه لأمور بدرت منه واعتقله ثم قتله (سنة ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) . وقد كان فيما يظهر مرافقاً لحملة ابن عباد التى أوفدها لنجدة قرطبة ليشرف على تنفيذ أوامره السرية فى انتزاعها بعدئذ من بنى جهور . ولم يكن قائداً لأنه ليس من رجال الحرب ، وكان يقود هذه الحملة خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين (البيان المغرب ٣ ص ٢٦٠ ، ودوزى ٣ ص ٩٧ و ٩٨) . وكذلك كان شأن ابن عمار فى مرافقته حملات ابن عباد الأخرى إلى شرق الأندلس كما سيجىء ، فقد كان يتولى فيها ناحية الإشراف والتوجيه عند المآزق . ويشير المؤلف إلى « ابن عمر » فى عدة مواضع ، وقد صححناها فى سياق الكلام . (راجع فى حياة ابن عمار وشعره قلائد العقيان ص ٨٣ وما بعدها ، والمراكشى ص ٩٥ وما بعدها) .

أصدقاءهم قد انقلبوا عليهم . وكان الأمير محمد بن جهور مريضاً طريح الفراش ، فوقع أسيرا فى يد أعدائه ، ولم يعش بعد هـذه الخيانة المروعة سوى أيام قلائل . ولم يكن مصير ابنه عبد الملك بأفضل من مصيره ، فقد عاد من مطاردة الطليطليين إلى قرطبة ، فألفى أبوابها مغلقة دونه . ولما طُلب إليه التسليم أدرك فى الحال ما ارتكبه الحلفاء الغادرون من خيانة أثيمة . واستشاط سخطا ووجدا ، فألقى بنفسه أمام قوة كبيرة تحدق به من كل صوب . ولبث يقاتل قتال المنتقم اليائس حتى أثخن جراحا ، وسقط من فوق جواده مغشيا عليه ، ثم توفى فى الأسر بعد ذلك بأيام وهو يصب اللعنات على ابن عباد وعلى أهل قرطبة الذين استقبلوا الخونة طائعين (سنة ٤٥٢هـ — ١٠٦٠م) ، وهكذا انهارت دولة بنى جهور فى قرطبة ، ولما يمض على قيامها ثلاثون عاما فى محنة محزنة حقا ، وهى محنة افتدى بها الأولاد الأبرياء خيانة أبيهم جهور للخليفة هشام الثالث (المعتمد بالله) .

وعندئذ غدا أمير إشبيلية أقوى أمراء اسـبانيا المسلمة ، وعمد ابن عباد إلى استرضاء زعماء الأراضى المفتوحة بجليل الصلات ، وإلى اجتذاب الشعب بمختلف المـآدب والحفلات ومصارعة الوحوش . وسرعان ما نسى الناس حكم بنى جهور الصالح . بيد أنه كان ثمة شخص يتوق إلى الانتقام ، هو الحارث بن الحكم قائد الجيش القرطبى . وكان قد انسحب مع فرسانه إلى مدينـة الزهراء مقام الخلفاء الأمويين السالف ، فلما وقف على مصرع بنى جهور غادر ظاهر قرطبة وسار إلى المأمون صاحب طليطلة ، خصيمه الذى طالمـا حاربه من قبل ، وعرض عليه خدماته ضد العدو المشترك ، فاستقبله المأمون مغتبطا ، واتحد الاثنان بعد الخصومة وأخذا يدبران معاً هلاك عدوهما الظافر .

وكان المأمون يرى جزعا قوة صاحب إشبيلية فى ازدياد مستمر . ذلك أن حروبه مع الأدارسة كانت تكلل بالظفر المستمر . وقد انضم إليه معظم الزعماء العامريين أمراء قسطلون ومربيطر (مرفيدور) وشاطبة والمرية ودانية . ولمـا فرغ المأمون من أهبته الحربيـة دعا صهره (زوج ابنته) عبد الملك المظفر ، الذى

خلف أباه عبد العزيز فى حكم بلنسية (٤٥٢ هـ — ١٠٦٠ م) إلى معاونته بالجند . ولكن عبد الملك اعتذر عن إجابته نزولا على نصح وزيره محمد بن مروان ؛ واحتج بأن وقوف معظم العامريين إلى جانب إشبيلية ، يجعل إقدامه على هذه المعاونة خطراً على بلنسية ، فلما وقف المأمون على جواب صهره ، وخشى من جهة أخرى أن ينضم إلى ابن عباد جهز جيشه سرا ، وعقد تحالفا مع الملك فرديناند الأول صاحب السيادة عليه . وانقضت القوات المتحدة بسرعة البرق على بلنسية ، ولم يستطع البلنسيون مقاومة للفرسان القشتاليين ذوى الدروع الحديدية ؛ وسقطت ولاية بلنسية كلها فى يد المأمون (اكتوبر سنة ١٠٦٥) ولم ينقذ حياة عبد الملك سوى تدخل زوجته ابنة المأمون فأبقى المأمون عليه وأقطعه حكم « شلبة »[١] : وأما صاحب النصح المشئوم الوزير ابن مروان فقد آثر الانتحار حتى لا يشهد محنة سيده ، التى يحمل بعض تبعتها . وبعد أن نظم المأمون حكومة بلنسيه وعين واليها ، عاد إلى طليطلة وقد ضم قوات بلنسية إلى قواته استعداداً لمحاربة ابن عباد . ولكن حالت دون إتمام أهبته بعض الشؤون . ذلك أن الملك فرديناند الأول صاحب قشتالة الذى كانت واقعة بلنسية آخر غزواته المظفرة توفى بعد ذلك بأشهر قلائل . وثارت من جراء تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ، حروب شديدة ، وانتهز المأمون من جانبه فرصة اضطراب المملكة النصرانية ، فنكل عن أداء الجزية التى تعهد بها لملك قشتالة ، وأدى ذلك فى الوقت نفسه إلى حرمانه من معاونة النصارى ، وهى معاونة لم يكن يستطيع دونها لقاء أمير إشبيلية ، فلما تم الأمر لسانشو (شانجه) واستولى على مملكة أبيه كلها (سنة ١٠٧٠م) فر أخواه إلى الأمراء المسلمين ، والتجأ أحدها

---

(١) تسمى الروايات العربية هذه الواقعة التى ترتب عليها سقوط بلنسية بواقعة بطرنه Paterna . وقد اختلف فى مصير عبد الملك المظفر بعد سقوط عاصمته ، والمعول عليه أن صهره المأمون اعتقله فى قرية شنت بريه من أعمال طليطلة وقتئذ ، أو فى قلعة قونقة من أعمال بلنسية ، أو فى قلعة أقليش ، (راجع البيان المغرب ٣ ص ٢٥٢ و ٢٦٧ و ٣٠٣ ، ودوزى ٣ ص ٧٩ والمراجع) . أما رواية المؤلف فقد نقلها عن كوندى وهى رواية ضعيفة . وأما مدينة شلبة Xelba أو Chelva الحديثة ، فهى مدينة صغيرة تقع شمال غربى بلنسية ، وهى غير مدينة شلب فى غرب الأندلس .

وهو جارسيا (غرسية) ملك جليقية إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والتجأ الثانى وهو ألفونسو (ادفنش) ملك ليون إلى المأمون صاحب طليطلة .

وكان المعتضد بن عباد أمير أشبيلية قد توفى أثناء ذلك (سنة ٤٦١هـ — مارس سنة ١٠٦٩م) توفى فى السابعة والخمسين من عمره بعد حكم زاهر دام سبعة وعشرين عاما . ويقال إن حزنه العميق على وفاة ابنته الحسناء طاهرة قد عجل بموته ؛ نخلفه فى حكم إشبيلية وقرطبة وقرمونة ولده الشجاع محمد الملقب بالمعتمد على الله . وكان فارسا ذا بأس (وكان يرتدى فى الحرب درعا من اللازورد الأزرق مرصعاً بنجوم من الذهب تحيط بهلال مذهب) ، وقد حالفه حسن الطالع فى حروبه مع الأدارسة وحلفائهم ؛ وفى حفل بيعته تسمى بالظافر والمؤيد بالله مضافة إلى لقبه[1].

وكان المعتمد بن عباد كأبيه المعتضد يتمتع بخلال باهرة ؛ بيد أنه كان مثله يجيش بأهواء وضيعة . وكان يغتنم بذكائه وشجاعته وجوده تقدير الشعب وثقته . وكانت جهوده فى سبيل تعويض الذين نكبتهم قسوة أبيه ، تحيط حكمه بحب الأكابر والأصاغر على السواء . بيد أنه كان مثل أبيه فى نظر الفقهاء مستهترا بالدين ، يستبيح شرب الخمر ويبيحه للجند فى الميدان ، وكان شاعراً طائر الصيت يغدق عطفه ورعايته على العلماء ، وينافس فى ذلك صديقه معز الدولة صاحب المرية .

ولما تولى المعتمد حكم إشبيلية ، كانت بقية الدول الإسلامية الأخرى بالجزيرة قد حطمتها الحروب الداخلية أو غزوات النصارى ، فلم يكن أمام المعتمد من يخشاه إذا استثنينا أمير طليطلة الذى كان يحكم بلنسية فى نفس الوقت ، وكان تفوق هذين الأميرين على باقى الأمراء عظيما جدا حتى إنهما استطاعا أن يرغما باقى الأمراء على الوقوف إلى جانب أحدهما أو الآخر . ولما رأى المأمون أن إشبيلية مشغولة بحروبها المستمرة مع الأدارسة ، وأن بنى الأفطس يقتتلون فيما بينهم بزعامة يحيى المنصور وخصيمه عمر المتوكل على الحكم عقب وفاة محمد بن عبد الله

---

(١) تلقب أبو القاسم محمد بن عباد بالمعتمد على الله ، والظافر بحول الله ، (المراكشى ص ٥٤) .

المظفر ، وأن بنى هود والتجيبيين فى ولاية سرقسطة يشتبكون مع جيرانهم النصارى فى معارك دموية مستمرة ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، والانقضاض على العامريين أصحاب تدمير ومرسية حلفاء إشبيلية وانتزاع تلك الأراضى منهم ، بحجة أنه وهو أمير بلنسية صاحب السيادة عليها .

وما كاد المعتمد يقف على فعلة المأمون حتى أرسل قائده الشجاع ابن عمار وأبا بكر بن عمرو والى تدمير وأحمد بن طاهر والى مرسية على رأس قوة من الفرسان لإنجاد مرسية . ولما كانت هذه القوة أضعف بكثير من القوة التى بعثها المأمون ، فقد جمع زعماء مرسية مبلغ عشرة آلاف من الذهب استأجر بها ابن عمار مددا من الكونت ريموند برنجار أمير برشلونة ، وبعد أن تبادل الفريقان العهود والرهائن سار ريموند على رأس قوة مختارة من الفرسان مخترقا بلنسية إلى مرسية ، وهنالك انضم إلى جيش إشبيلية الصغير ؛ ولكنه ما كاد يقترب من مرسية حتى تولته الدهشة واعتقد أنه قد غدر به ، إذ رأى حول المدينة عدة آلاف من الطليطليين يحاصرونها ؛ وعندئذ صرح بأنه من العبث الخطر أن يهاجم بتلك القوات الصغيرة جيشاً يضم قوات طليطلة وبلنسية وقونقة ودانية ومربيطر وشاطبة وشنتمرية والسهلة ، وتعاونه فرق كبيرة من المرتزقة من قشتالة وجليقية ، وأعلن انسحابه فى الحال ، وأنه لا يستطيع الانتظار حتى يأتى المدد من إشبيلية . ولكن الجبن نصف الهزيمة ؛ وقبل أن يتمكن القطلونيون من الانسحاب اضطروا إلى خوض المعركة مع جند المأمون (١٠٧٣م) وأصيبوا مع حلفائهم الأشبيليين بهزيمة شنيعة ولاذ المنهزمون بالفرار فى مختلف الأنحاء ، وحصل المأمون بهذا النصر الباهر على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى ، ونادى بنفسه فى الحال أميرا عليها . وبذا أصبح هذا الأمير القوى يسيطر على أواسط اسبانيا كلها وهو ما يعادل نحو ثلث أراضيها .

وفى ذلك الحين أيضاً انتهت الحرب الأهلية التى نشبت فى اسبانيا النصرانية عقب وفاة سانشو ملك قشتالة ، وأسر أخيه جارسيا ملك جليقية على يد الملك

ألفونسو السادس ؛ ولم ينس ألفونسو أنه لقى أثناء محنته من أمير طليطلة كل حماية ورعاية ، فعقدت عندئذ بين ألفونسو السادس والمأمون محالفة بتبادل المونة والدفاع ، وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق .

وبدا عندئذ هلاك صاحب إشبيلية ألد أعداء طليطلة ، أمراً لا مناص منه . ورأى المأمون ألا يترك لابن عباد فرصة لكي يقوى نفسه بالتحالف مع بنى هود أصحاب سرقسطة ، وبنى الأفطس أصحاب بطليوس ، وأن يقضى نهائيا على الأدارسة حسبما كان يعتزم ، فبادر بمهاجمة خصمه من ثلاث جهات ، لكي يحكم تسديد الضربة إلى قرطبة . وبينما زحف القائد ابن لبون صاحب مرسية ظافراً صوب جيان ، وسار جيش آخر إلى حدود سرقسطة ليرقب حركات ابن هود ، وتظاهر الجيشان كل بأن الحرب واقعة فى الناحية التى قصدها ، إذ هاجم الفرسان الطليطليون بقيادة الحارث بن الحكم والمرتزقة القشتاليون قرطبة على غرة ، فسقطت فى أيديهم دون مقاومة . ولكن نشبت بين الفريقين فى الزهراء فى ظاهر قرطبة معركة دموية . ودافع حرس ابن عباد ، وهم من المغاربة بقيادة ابنه سراج الدولة عن القصور الملكية دفاعاً شديداً ، حتى أثخن قائدهم الشجاع جراحاً وأسلم الروح . وأمر الحارث أن يرفع رأس الأمير القتيل على رمح ، وأن يطاف به فى شوارع قرطبة ، وأن ينادى : هذا انتقام الله ، ويا لروعة انتقامه ، لمقتل الأمير عبد الملك بن جهور .

وسرعان ما زحف معظم جيش طليطلة على إشبيلية ، ولم يكن بها يومئذ سوى قوة يسيرة ، لأن المعتمد كان قد سار فى معظم قواته إلى مالقة لافتتاحها من يد الأدارسة . وتوج زحف المأمون السريع بالظفر التام ، فاقتحم إشبيلية (٤٦٨ هـ ١٠٧٥ م) ، ولم يلق معارضة إلا أمام القصر ؛ ودافع عنه الحرس دفاعاً قويا ، حتى سحق ومزق أمام الكثرة الغالبة ، واحتوى أمير طليطلة الظافر على جميع أموال بنى عباد ، وفرقها بين جنده جزاء شجاعتهم وهمتهم ، ولكنه حرص على ألا يمس نساء المعتمد بسوء[1] .

---

(١) إن هذه الواقعة ، أى واقعة استيلاء المأمون بن ذى النون على إشبيلية ووفاته =

بيد أن المأمون ارتكب خطأ فادحاً ، إذ لم يتم الحرب كلها بسرعة . ذلك أنه بدلا من أن يسعى بعد فتح المدينتين توًّا إلى لقاء ابن عباد فى ميدان الحرب ، لبث فى إشبيلية ستة أشهر دون عمل . وفى أثنائها استطاع المعتمد أن يختتم حربه مع الأدارسة بالظفر التام ، إذ استولى على الجزيرة وعلى مالقة ذاتها ، وقضى بذلك على سلطان الأدارسة فى الأندلس ، واستطاع أيضاً أن ينتزع بعض البقاع من عبد الله بن بلكين بن باديس صاحب غرناطة . وفى الوقت نفسه كان المقتدر بن هود صاحب سرقسطة وحليف ابن عباد يقاتل جند المأمون بتجاح ، ويهدد بلنسية ؛ ومن ثم فإن المعتمد لبث قوى الأمل . ومع أن عاصمتيه قد سقطتا فى يد أعدائه ، فإنه لم يخالجه شك فى أنه مستعيدها . وما كاد ينتهى من حرب الأدارسة ، حتى سار فى معظم قواته ليسترد عاصمته ، ولم يك ثمة شك فى أن سكانها المخلصين له سيشدون أزره ؛ ولذا ما كاد يضع الحصار حول إشبيلية حتى بدأ يحالفه حسن الطالع . ذلك أن المأمون بن ذى النون توفى لمرضه وهرمه فى شهر ذى الحجة سنة ٤٦٨ (يونيه ١٠٧٦ م) ، وتوفى قبله ابنه هشام نائبه فى الحكم وولى عهده ؛ وعهد المأمون قبل وفاته بالحكم إلى ابنه الثانى يحيى الملقب بالقادر بالله الذى يصفه البعض بأنه حفيده[1] . ولما كان يحيى لا يزال حدثاً ، فقد عين للوصاية عليه حتى يبلغ الرشد ، بعض الولاة ، والحارث بن الحكم ، والملك ألفونسو

= بها ، ثم استرداد المعتمد لها ، وما يتعلق بذلك من التفاصيل التى يوردها المؤلف فى هذا المقام قد اشتقت جميعها من كوندى ومصادر أفرنجية أخرى . وهى رواية لا سند لها ولا تشير إليها المصادر الإسلامية بكلمة . والظاهر أن الأمر يتعلق هنا بخلط بين هذه الواقعة المزعومة وبين واقعة حقيقية أخرى ، وهى استيلاء المأمون على قرطبة ووفاته بها ثم استرداد ابن عباد لها . وهذه هى الواقعة التى تؤيدها المصادر الإسلامية ، فقد استولى المأمون على قرطبة سنة ٤٦٨ هـ بمعاونة مغامر ومتآمر يدعى جرير بن عكاشة ، ثم توفى بها بعد دخولها بأيام قلائل ، وقيل إنه توفى مسموما . فارتد جنده عنها إلى طليطلة ، وعاد ابن عباد فاسترد قرطبة وانتقم من قتلة ولده . ولم تخرج إشبيلية من قبضة بنى عباد قط حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، (راجع ابن الأثير ج ٩ ص ٩٩ ، وابن خلدون ٤ ص ١٥٩ و ١٦١ ، والمراكشى ص ٥٤ وما بعدها ، وراجع أيضاً دوزى ٣ ص ١٠٠ و ١٠١) .

(١) هو يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذى النون ، وهو فعلا حفيد يحيى المأمون ، (ابن خلدون ٤ ص ١٦١) .

السادس ؛ وكان المأمون يثق بألفونسو ثقة خاصة ، ويعتبره أعز أصدقائه ، وأعظم عضد لطليطلة ، ولم يخطر بباله أنه سيجنح بعد ذلك إلى نقيض ما كان يؤمل .
وكان موت المأمون إيذاناً بأفول طالع بنى ذى النون . وكانت طليطلة إبان حياته أعظم دول أسبانيا المسلمة ، وكانت مبعث البذخ والبهاء . وقد اشتهر المأمون بالأخص بما شاده من الأبنية الشامخة التى انتهى إلينا عن بنائها كثير من القصص المغرق ، ومنها ما حكى أنه ابتنى فى نهر تاجه قصراً يستطيع الجالس فيه أن يرى من عروشه البلورية الأسماك تشق النهر .

٢ — تفوق أمير إشبيلية

لم يستطع جند المأمون أن يصبروا طويلا على المقاومة بالرغم من أن موت أميرهم قد أخفى عنهم مدى حين ، وبالرغم مما أبدى قادتهم من الشجاعة والبراعة فى رد هجمات المعتمد ؛ ومن ثم فقد آثروا ترك المدينة بعد إذ رأوا ما يجب لإخضاع أهلها من كبير جهد ؛ واستطاعت قوى الفرسان الكثيفة أن تشق لجند طليطلة بين الجيش المحاصر طريقا ؛ وأن تمكنه من الوصول إلى قرطبة دون خسارة كبيرة . بيد أن عود الجند القشتاليين إلى أوطانهم نظراً لاقتراب الشتاء ، وظهور بعض القلاقل فى المناطق التى افتتحتها طليطلة ، حملا قادة القادر على مواصلة السير . وبقى الحارث بن الحكم فى قرطبة والياً لها ، وهو يمنى نفسه أن يستقل بحكمها بالرغم من قلة جنده .

ولكن لم تتح له فرصة لتحقيق أطماعه ؛ ذلك أن المعتمد الذى حالفه التوفيق فى حصار إشبيلية بادر بالاستفادة من ظفره ، فظهر أمام أسوار قرطبة قبل أن يعلم أحد بمغادرته لأشبيلية . وفى الحال أدرك الحارث أسفاً أن أهل قرطبة يؤثرون أمير إشبيلية على حكمه وحكم القادر . ورأى الخيانة والغدر من أولئك الذين كان يعتبرهم أنصاره ، فلاذ بالفرار صوب طليطلة . ولكنه فر متأخراً ؛ وما كاد المعتمد يدخل قرطبة على رأس جيشه فى موكب رائع ، حتى انقلب إلى دته مطار فى سرية من الفرسان وأدركه غير بعيد . ثم طعنه بحربته فى ظهره طعنة

نفذت إلى صدره ، وذلك انتقاماً لموت ابنه سراج الدولة . وعلقت جثته فوق سارية على قنطرة قرطبة وشنق إلى جانبه كلب مبالغة فى الإهانة . وترك الحارث ولداً هو أحمد عينه القادر والياً لقلعة رباح[1] .

وهكذا غادر طليطلة حسن طالعها وتحول عنها إلى أمير إشبيلية ولم يكتف ابن عباد باستعادة المدن والأراضى التى فقدها ، بل عمد فوق ذلك إلى انتزاع مرسية وبلنسية من القادر . ذلك أنه بعث وزيره الماكر ابن عمار إلى تلك المنطقة ليعمل على إثارة العامريين على بنى ذى النون ؛ وسرعان مارفع عبد الملك بن عبد العزيز صاحب شلبه ، وأمير بلنسية السابق علم الثورة[2] ، واستطاع أن يسترد بلنسية وسيادته القديمة عليها بلاصعوبة . ولما توفى بعد ذلك بقليل (سنة ٤٧٠هـ — ١٠٧٨م) خلفه فى حكمها ولده أبو بكر . ولكنه كان فى الواقع أكثر خضوعا لابن عباد منه كأمير مستقل . غير أن ابن عمار لم يستطع أن يكسب عبد الرحمن بن طاهر والى مرسية بمثل هذه السهولة ، وكان حليفا مخلصا لبنى ذى النون ، فاضطر أن يضرب الحصار حول المدينة مدى حين حتى نفدت أقواتها واضطر ابن طاهر إلى التسليم (سنة ١٠٧٩م) . ورأى ابن عباد أن يعاقبه على مقاومته فنزع منه ولاية المدينة وأعطاها لابن عمار جزاء له على جهوده الموفقة فى خدمته .

ولكن المعتمد لم يكن ليطمئن إلى هذا الظفر كله ما دام فى وسع القادر صاحب طليطلة أن يعتمد على معاونة ملك قشتالة . وكان يرى أنه لا بد من إبعاد هذا الحليف القوى عن بنى ذى النون ، مهما كلفه ذلك من عظيم التضحية ، إذا أراد أن يغنم سيادة اسبانيا المسلمة كلها ؛ ولو أنه استطاع أن يظفر بصداقة ألفونسو السادس وعمل ألفونسو من جانبه على تهديد طليطلة وشغلها ، لكان من المحقق

---

(١) يراجع الهامش السابق ، ويورد دوزى واقعة مطاردة ابن عباد للحارث وقتله والتمثيل بجثته منسوبة لابن عكاشة ، فهو الذى طورد وقتل ومثل بجثته وهو الأرجح (ج ٣ص ١٠١)

(٢) أشرنا فى هامش سابق إلى اختلاف الرواية فى مصير عبد الملك المنصور صاحب بلنسية بعد سقوطها فى يد المأمون والى أن شلبه المقصودة هنا هى غير مدينة شلب فى غرب الأندلس .

أن تنتصر جيوشه الظفرة على الإمارتين الباقيتين ، وهما إمارة بنى باديس فى غرناطة وإمارة بنى الأفطس فى بطليوس . ثم إن بنى هود فى سرقسطة لا بد أن يخضعوا لسلطانه ، نظراً لأن الأعداء المجاورين يحدقون بهم من كل صوب ؛ وكان المقتدر ابن هود يحكم سرقسطة منذ سنة ١٠٤٦م ولم يتح له إنقاذ ملكه من أطماع راميرو الأول وسانشو الأول ملكى أراجون إلا بمعاونة المرتزقة القشتاليين سنة (١٠٦٣م) ثم بالتحالف مع البشكنس (نافار) . بيد أنه خسر كل ما غنمه من المزايا فى معارك استمرت أعواماً . ذلك أن سانشو الأول ملك أراجون ضم معظم نافار إلى مملكته وأخذ يهاجم أراضى سرقسطة بقوى كبيرة ويستولى على قلاع الحدود واحدة بعد أخرى .

ومن ثم كانت الظروف كلها مواتية لأطماع أمير إشبيليه . بيد أنه أدرك أنه لا بد أن يبادر إلى عقد التحالف مع ملك قشتالة قبل أن يسبقه إليه أمير آخر . ومع أنه توقعا لأسوإ النتائج ، وهى أن يأبى ألفونسو أن يترك حلفه القديم مع بنى ذى النون ، قد جدد علائق الصداقة مع أمير برشلونة على يد ابن عمار والى مرسية ، وعرض أموالا كثيرة لاستئجار الجند المرتزقة ، فإنه رأى من الأصلح والأوفق لخططه ، أن يسعى بكل ما وسع إلى صداقة ملك قشتالة وليون ، إذ هى أدعى إلى النجاح بلا ريب . فبعث مفاوضه البارع ابن عمار إلى ليون وكانت يومئذ مقرا للملك قشتالة ، وفاز ابن عمار بأن يعقد بين ألفونسو وبين سيده معاهدة يتعهد بها ملك قشتالة أن يعاون أمير إشبيلية بالجند المرتزقة ضد جميع أعدائه المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال . ويتعهد بالأخص عما هو أهم ، وهو ألا يعترض مشروع ألفونسو فى افتتاح طليطلة . وهكذا ضحى المعتمد بمعقل اسبانيا المسلمة ، لكى يفوز ببسط سيادته على الإمارات التى لم تخضع له بعد وهى إمارات غرناطة وبطليوس وسرقسطة .

ووهب ألفونسو السادس ابن عمار منظم هذه المعاهدة خاتمين ثمينين جزاء جهوده . ومع أنه لا صحة لما يروى من أن ملك قشتالة تزوج فى هذه المناسبة

بسيدة ابنة المعتمد توثيقاً للتحالف ، فإنه من المرجح أن ألفونسو استطاع على أثر هذه المحالفة أو فى محالفة تالية (سنة ١٠٩١ م) أن يضمها إلى زوجه كخظية له ، وهو تشبه بالتقاليد الإسلامية كان ذائعاً بين أمراء أسبانيا النصرانية ، بالرغم مما كانت تثيره الكنيسة ضده من شديد الاحتجاج[1] .

٣ — افتتاح ألفونسو السادس لطليطلة

وفى سنة ١٠٧٩ م أعلن ألفونسو الحرب على طليطلة اعتماداً على المعاهدة المعقودة ، وذلك بالرغم من أنه لقى فى طليطلة من قبل ملاذاً وحماية من مطاردة أخيه سانشو وبالرغم من أنه لبث إلى تلك الآونة يرتبط ببنى ذى النون بروابط الصداقة ، وقد أقسم أن يعاون ولد المحسن إليه على الاحتفاظ بأملاكه . نسى الأمير الظمىء إلى الفتح كل ما يفرضه العرفان والصداقة ، وتفرضه العهود ، واستعان بمعرفته لنواحى طليطلة أيام إقامته منفيا بها ، على الغدر بأولئك الذين أولوه حمايتهم ورعايتهم ؛ وقد شعر المؤرخون النصارى بلا ريب بفداحة هذا العدوان ، فلم يذكروا شيئاً عن التحالف بين ألفونسو وأمير إشبيلية والتزموا الغموض فى رواية الحادث حتى لا تبدو شناعته .

وكان الأمير القادر بالله قبل أن يبدأ ألفونسو محاربة طليطلة ، قد اضطر إلى مغادرة المدينة فراراً من عواقب ثورة قامت بها ، ومن المرجح جدا أن زعماء الثورة استدعوه حينما بدأ ملك قشتالة غزوته لأراضى طليطلة .

---

(١) استقى المؤلف هذه الرواية من بعض المصادر اللاتينية والنصرانية حسبما يبين فى تعليقاته (ج ١ ص ٣٨١) وترد فيها اسم ابنة المعتمد هكذا Zaida أو Ceida . وهى رواية تحمل سيما الإغراق والبطلان . وإذا لم يكن من المعقول أن يرضى أمير مسلم عظيم كالمعتمد ابن عباد أن يزوج ابنته من أمير نصرانى ، فانه مما لا يقبله العقل مطلقاً أن يرتضى أن تكون ابنته خليلة غير شرعية لمثل هذا الأمير ؛ وإذا لم يكن ابن عباد يقيم فى مثل هذا التصرف الشائن وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية ، وهو فى ذاته مما لا يعقل ، فمن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لنتائجه السياسية ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه وأن يسحقه ويسحق أسرته .

وفى ذلك الحين كان أمير إشبيلية قد سار فى جيشه إلى غرناطة ليخضع أميرها عبد الله بن بلسكين بن باديس إلى سلطانه ؛ وكان المقتدر بن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليه يوماً فيوماً من سانشو الأول (شانجه) ملك أراجون ، خصوصاً بعد أن سقطت فى يده قلاع الحدود بوليه وجرادوس وبترايادا وأرجويداس ومونزون ، واحدة بعد الأخرى ، ومن ثم فإنه لم يستطع إنجاد طليطلة من بين الأمراء المسلمين سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور ، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو ؛ وكان ألفونسو قد أثخن عندئذ فى ولاية طليطلة حتى صيرها قفراً بلقعاً ، ولم يكن يعنى بهذا العيث والتخريب ، سوى تجريد القلاع من كل وسيلة للحصول على القوت . ومن ثم فإنه لما شعر باقتراب المنصور ، ارتد أدراجه ، فعاد المنصور عندئذ بجيشه إلى حيث أتى ؛ ولم يمض سوى قليل حتى توفى مبكيا عليه من شعبه (٤٧٣ هـ — ١٠٨٢م)[1] فخلفه أخوه أبو محمد عمر بن محمد المتوكل ، وكان والياً ليابرة (إفورا) وجعل ولده الفضل والياً على ماردة وولده الآخر العباس والياً ليابرة .

وفى العام التالى عاد ألفونسو فعاث فى بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى . وكان المعتمد قد استطاع عندئذ أن ينتزع جيّان وأوبدة وبياسة ومرتوس من آل باديس أمراء غرناطة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يسير قواته ضد طليطلة ، فإنه سيرها نحو الغرب ، وزحف على بطليوس ، وبذا استطاع أن يحول دون معاونة بنى الأفطس للقادر ؛ وكانت بلنسية قد عادت بعد وفاة أميرها أبى بكر إلى ولائها نحو طليطلة ولكن شغلها أمير دانية . وأما سرقسطة فكان أميرها العالم الباسل المقتدر بن هود قد توفى (٤٧٣ هـ — ١٠٨١م) . وخلفه فى حكمها ولده يوسف

---

(١) فى هذا التاريخ تحريف ، وقد توفى المظفر أمير بطليوس فى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) وخلفه ولده يحيى المنصور واستمر فى الحكم نحو أربعة أعوام . ثم خلفه ولده الثانى عمر الملقب بالمتوكل واستمر فى الحكم حتى سقطت بطليوس فى أيدى المرابطين سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) . وعلى ذلك فقد كان أمير بطليوس وقت غزو النصارى لأراضى طليطلة هو عمر المتوكل (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ ودوزى ٣ ص ٢٣٩) .

ابن أحمد المؤتمن . وكان المؤتمن يرى وجوب معاونة القادر بن ذى النون معاونة قوية حتى لا تقع سرقسطة ذاتها فريسة للنصارى أو لابن عباد ، ولكن نضاله المستمر ضد أراجون وبرشلونة ، لم يكن يمكنه من أن يسيّر ضد قشتالة قوة يعتد بها . بيد أنه حاول أن يقضى على ألفونسو فى كمين دبره . وذلك أنه أوعز إلى حاكم حصن روطة المنيع أن يتظاهر ضده بالثورة وأن يستدعى إليه ألفونسو لكى يتسلم منه الحصن بنفسه ، ثم يفاجئه بالاعتقال والأسر . ولكن ألفونسو ارتاب فى الأمر فلم يحضر بنفسه ، وأرسل ولدى أخيه ملك نافار اللذين ربيا فى بلاطه مع جماعة من أكابر قشتالة لاستلام مفاتيح القلعة . وهنالك انقض المسلمون عليهم وقتلوهم عن آخرهم ؛ ولم يستطع ألفونسو أن يثأر لهذه الخيانة الأثيمة لمناعة القلعة واستحالة أخذها .

واستطالت الحرب أعواماً وألفونسو يعيث فى بسائط طليطلة أعا عيث وقد انتسف كل زروعها وأقواتها ، واستولى على كثير من أماكنها الحصينة . وفى العام السادس لبدء الحرب زحف على طليطلة ذاتها بجيش ضخم وضرب الحصار حول المدينة الزاخرة وقطع كل علائقها مع الخارج . وكان يحيى القادر أميراً مترفاً يؤثر العيش الناعم على حياة الحرب والنضال ، ولم يكن لقسوته وبطشه ، يتمتع حتى بحب شعبه ؛ ومع ذلك فقد حاول أن يبذل آخر وسيلة للدفاع عن ملكه فاستنهض بنى الأفطس لعونه وقد أغاثوه من قبل ، واضطروا ألفونسو إلى الانسحاب ؛ وكان عمر المتوكل يواجه عندئذ خطر إشبيلية ، ومع ذلك فقد رأى من واجبه ألا يترك القادر لمصيره ، فبعث ولده الفضل والى ماردة بجيش لإنقاذ طليطلة ؛ ولكن جيش ألفونسو كان يفوقه عدة وعدداً . وبذا هزم الفضل فى جميع المعارك التى خاضها ، واضطر أن يعود إلى ماردة ، وقلبه فياض بالأسف والحسرة إذ كان يرى أن سقوط طليطلة قد غدا أمراً مقضياً ، وأنه سيجر معه اسبانيا المسلمة كلها إلى الهلاك .

ولما رأى القادر نفسه محروماً من كل عون ، ورأى ما يهدد شخصه من شعب

عزت أقواته ، عرض على ألفونسو أن يدفع الجزية ، وأن يعترف بسلطانه ، وأمل بهذا الثمن أن يفتدى العاصفة التى تنذره بالهلاك ؛ ولكن ملك قشتالة أبى كل عرض فى هذا السبيل ، وأصر على وجوب خضوع المدينة وتسليمها دون قيد ولا شرط ؛ ولم يلق الشجعان القلائل الذى نادوا بالموت فى سبيل الحرية والاستقلال استحساناً ولا تأييداً من الشعب ، وقد كان يتوق إلى التخلص من بؤسه . وهكذا أصبح القادر عاجزاً عن الدفاع واضطر أن يسلم المدينة بعد أن تعهد ألفونسو لسكانها بتأمين أنفسهم وكافة أموالهم ، وأن يبقى مسجدها الجامع مفتوحاً للصلاة ، وأن يستبقى المسلمون شرائعهم وقضاتهم ، وأن يسمح لهم بالهجرة إلى الأراضى الإسلامية ، وأن يحملوا أموالهم دون معارضة . وهكذا سلمت قلعة المدينة ، وكذلك جميع نقطها الحصينة إلى ملك قشتالة ، وتعهد المسلمون بأن يؤدوا له جميع المكوس التى كانت تؤدى إلى بنى ذى النون .

ودخل ألفونسو السادس عاصمة القوط القديمة (طليطلة) فى السابع والعشرين من محرم سنة ٤٧٨ الموافق ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ . وعادت طليطلة إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنتين وسبعين عاما ؛ واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين ، وغدت بذلك عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولم يمض قليل حتى عاد أسقف طليطلة إلى تبوء منصبه كرئيس للكنيسة الأسبانية كما كان الشأن أيام المملكة القوطية . ولما كانت طليطلة دائما منزل كثير من النصارى واليهود ، فقد تناقص عدد سكانها المسلمين بسرعة . ذلك أن كثيرا من النصارى هرعوا إليها عندئذ من أنحاء قشتالة وليون ؛ ومن جهة أخرى فقد هجرها كثير من المسلمين ممن تبعوا أميرهم القادر إلى بلنسية التى منحت إليه ولايتها ، إما طوعا أو كرها بمعاونة ألفونسو . وهكذا اختتمت دولة بنى ذى النون فى طليطلة .

وكان سقوط طليطلة ضربة قاضية على التفاهم بين ألفونسو وأمير إشبيلية . ذلك أن ملك قشتالة لم يقنع بالاستيلاء على تلك القاعدة الهامة ، ولكنه استولى

أيضاً على جميع الأراضى الواقعة على ضفتى نهر التاجه ، وعلى قلاع مدريد (مجريط) ، ومقودة ووادى الحجارة وقلعة رباح ، بل غدا يهدد قرطبة وماردة وبطليوس ؛ وهكذا جزع المعتمد وساوره الندم على تحالفه مع ملك النصارى ، وصب جام غضبه أولا على الوزير ابن عمار الذى عقد هذا الحلف ، والذى اشتهر يومئذ بمقدرته فى ميدان الحرب ، كما اشتهر بروعة شعره ، وبراعته فى عقد العلائق السياسية . فقبض عليه وألقاه فى السجن ، ثم أمر به فأعدم بالرغم من عديد خدماته وشفاعة العظماء من أصدقائه ، بل قيل إن المعتمد هو الذى تولى إعدامه بنفسه[1] .

وكتب المعتمد إلى ألفونسو ألا يتعدى فى فتوحاته طليطلة ، فإن هو نمل فإن ذلك يعتبر خرقا للتعاهد ؛ ولكن ملك قشتالة لم ير فى إنذار حليفه ما يحمله على وقف سيره المظفر ، وأجاب المعتمد بقوله إنه يملك ولاية طليطلة بالاشتراك مع صديقه الأمير يحيى القادر صاحب بلنسية . ولكى يدلل على أنه من جانبه مخلص لشروط التحالف أرسل إليه خمسمائة فارس من ذوى الدروع الحديدية لمعاونته فى محاربة غرناطة ؛ ولكن المعتمد ، وقد غدا يرتاب فى جميع تصرفات ألفونسو ، خشى أن يكون هؤلاء الفرسان الذين قدموا فجأة إلى جوار إشبيلية دون دعوة منه ، قد قدموا ليدبروا له مكيدة ما ، فبادر بعقد الصلح مع غرناطة لكى يعود الفرسان النصارى فى الحال من حيث أتوا .

وما أن وصلوا إلى طليطلة حتى أبدى ألفونسو دون حرج أنه ينوى افتتاح الولايات المسلمة كلها ؛ ولما أبى المعتمد أن يسلم إلى ملك قشتالة بعض حصون من ولاية طليطلة كانت فى يده ، أعلن ألفونسو ضده الحرب ، كما أعلنها على جميع الأمراء المسلمين ؛ ورأى الأمراء المسلمون بعد فوات الوقت كيف قدموا بأنفسهم من جراء تفرقهم إلى عدوهم الوسيلة لتقوية سلطانه عليهم .

وزحف ألفونسو على سرقسطة بادئ ذى بدء ؛ والواقع أن أميرها المؤتمن لم يكن ليستحق لوماً على تقاعسه عن نجدة طليطلة ؛ ذلك أنه مثل بنى الأفطس ،

(١) راجع الهامش عن ابن عمار ص ٥١ .

بذل كل ما يستطيع لغوث القادر ، ولكن جهوده لم تغن شيئا ؛ وكان ملك أراجون وقوامس [١] قطلونية يهاجمونه بلا انقطاع ، ويشغل فى الوقت نفسه بمحاربة أمراء دانية وقسطلون المسلمين ، فلم يكن بوسعه أن يحشد قواه فى نقطة بذاتها ، وقد أبدى فى معارك لاردة ووشقة ضروبا بديعة من البسالة ، ولكن جهوده لم تتوج بالظفر . ثم شهد قبيل موته سقوط طليطلة وعزه المصاب ، فحزن لموته جميع المسلمين المخلصين أيما حزن ؛ ذلك لأنهم فقدوا بفقده عضدا لدينهم ؛ وفى الروايات الشعرية ما يفيد أن الفارس القشتالى المنفى السيد الكنبيطور قد عاش فى كنفه عدة أعوام [٢] وحارب من أجله ضد النصارى والمسلمين على السواء ، بيد أن معظمها ينتظم فى سلك القصة ولا يدخل فى حيز التاريخ .

وخلف المؤتمن ولده أبو جعفر أحمد الملقب بالمستعين بالله (٤٧٧هـ — ١٠٨٥ م) وما كاد يلى الحكم حتى أغار عليه ألفونسو ، وأضحت سرقسطة مهددة بمصير كمصير طليطلة ؛ وهنا رأى الأمراء المسلمون جميعا شبح السقوط ماثلا أمام أعينهم ، فاتحدوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حدا لفتوح ألفونسو . وإذ كانت قواهم مجتمعة لا تكفى لرد عدوانه ، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالمرابطين فى إفريقية واستدعائهم إلى الجزيرة .

---

(١) القوامس فى الرواية العربية جمع قومس مشتقة من اللاتينية Comes وهى الكونت وأحيانا يعبر عنها بكلمة قمط (راجع ابن خلدون ٤ ص ١٨ و ١٨١ و١٨٢) .

(٢) كان السيد الكنبيطور (الكمبيادور) يتقلب فى خدمة بنى هود وقد خدم المؤتمن أعواماً ، واشترك فى حروب كثيرة .

الفصل الرابع

نشأة المرابطين

وأسباب عبورهم إلى اسبانيا

(من سنة ٤٤٢ — ٤٧٨ هـ) (١٠٥٠ — ١٠٨٥ م)

---

١ — عبد الله بن ياسين

كان اللمتونيون الذين اشتق اسمهم من ثوبهم البسيط « اللمت » يرجعون أصلهم مثل أقربائهم من بني كدالة ومسطاسة[١] إلى قبيلة صنهاجة التي نزحت من بلاد العرب إلى المغرب[٢] وكانوا من البدو الرحل يتنقلون في صحارى إفريقية من واحة إلى أخرى حتى انفصلوا في النهاية عن باقي القبائل ، ونزلوا في قاصية غربي إفريقية على مقربة من المحيط الأطلانطي[٣] . وكانوا يجهلون العلوم والفنون والكتابة ، ويجهلون تعاليم الإسلام بالرغم من مجاورتهم للأمم الإسلامية ، وكان دينهم « المجوسية »[٤] ، وقد حرموا تذوق الرفاهة التي تخلقها حضارة الإنسان ، ولكنهم كانوا أيضاً بمنجاة من الرذائل التي تترتب عادة على ارتفاع مستوى الحياة

---

(١) يورد المؤلف اسم مسطاسة محرفا « مسطافة » ، وهنالك قبيلة أخرى من قبائل صنهاجة تسمى « مسوفة » ، ولكن الأرجح أنه قصد الأولى . وكدالة تكتب أحياناً جدالة . (راجع روض القرطاس (طبع أوربا) ص ٧٥ ، وابن خلدون ٦ ص ١٤٤ ، والاستقصاء للسلاوى ١ ص ٩٨ ، وأبو الفداء ص ١٧٤) .

(٢) راجع ابن خلدون ٦ ص ١٥٣ ، وروض القرطاس ص ٧٥ .

(٣) يعرف المحيط الأطلانطي في الجغرافية العربيـة بالبحر المحيط والبحر الأعظم وبحر اقنابس وبحر الظلمات وغيرها .

(٤) راجع ابن خلدون ٥ ص ١٨١ .

البشرية ؛ وكما حدث فى العصر القديم بالنسبة لاناخرسيس الاسكيتى[١]، فقد خرج يحيى بن إبراهيم اللمتونى فى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى لتحصيل المعارف التى تنقص قومه فى البلدان الأخرى ، فتجول فى بلاد المغرب ورحل إلى بلاد العرب ، ووقف على مبادئ الإسلام ، وكذا على العلوم والمعارف التى كانت ذائعة فى العالم الإسلامى فى هذا العصر ؛ وكان يحز فى نفسه ما يراه من شدة تأخر قومه عن الأمم المتمدنة . وقد عقد العزم على ألا يدخر وسعاً فى تثقيف اللمتونيين فى صحاريهم بعلوم الإسلام ، وتعريفهم بمزايا المدنيـة ؛ وكان يحتاج فى ذلك إلى عالم مسلم ، فوقع على بغيته أثناء مقامه بالقيروان على يد فقيه من معارفه ، وألفى طلبته فى رجل يضطرم غيرة لتلك المهمة الشاقة ، أعنى تثقيف أولئك البدو الصحراويين هو عبدالله بن ياسين[٢] . وكانت قبائل لمتونة وكدالة ومسطاسة تعرف باسم مشترك هو : « الملثمون » وذلك إما لأنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعا خاصا من الحجاب ، أو لأنه حـدث ذات مرة فى بعض حروبهم ؛ أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن فى عداد الرجال[٣] ؛ واستقبل « الملثمون » الرسول الجديد عبد الله بفتور ، ولـكن دروسه ما لبثت أن نفذت إلى قلوب البدو البسطاء ، وما لبث أن رفعه أولئك المسلمون الجدد إلى أعظم مقام واتخذوه سيدهم وحاكمهم . ثم دانت معظم قبائل الصحراء لعبد الله تارة بالإقناع وتارة بالسيف ، واجتمعت تحت لوائه . وأعلن زعيم الملثمين نفسـه أبو زكريا يحيى بن عمر أنه تلميذه وتابعه ، وقنع من الزعامة بقيادة المجاهدين «فى سبيل الله» إلى ميدان الحرب ، فاختاره عبد الله وهو الإمام وصاحب الأمر ، أميراً وقائداً ، وأطلق على الملثمين اسماً جديداً هو «المرابطون» (أى الذين يتعاهدون على أن يخصصوا أنفسهم لخدمة

---

(١) هو فيلسوف من سيكيتيا نزح الى اليونان ليتعلم فيهـا ، ويقال إنه كان صديقا لسولون ، وقد اشتهر بوفرة الذكاء والحـكمة .

(٢) هو عبد الله بن ياسين الـكزولى أو الجزولى (روض القرطاس ص ٧٨ و ٧٩ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والاستقصاء ١ ص ١٠٠) .

(٣) الاستقصاء ١ ص ٩٨ .

الله أو بمعنى آخر مشتق من كلمة «الرابطة» المسلمون الورعون المنقطعون للعبادة)[١]

وبث الدين الجديد فى أهل الصحراء حماسة واضطراماً ودفعهم زعماؤهم إلى الفتح ، فسارعوا من نصر إلى نصر . وكان المغرب الأقصى (موريتانيا) قد استقل عن اسبانيا المسلمة فى أوائل القرن الحادى عشر ، وبسط آل زيرى من قبيلة زناتة سلطانهم على معظم أرجائه ، فغمرته جيوش المرابطين الضخمة ، وكانت تتألف من فرسان مهرة ، وتضم بالأخص صفوفاً من المشاة البارعين فى فنون القتال ؛ وتؤلف الخطوط الأولى من صفوف من أشجع الجند المشاة يحملون حراباً بالغة الطول . وكان المرابطون يحرزون النصر بجرأتهم وجلدهم فى كل حرب تقريباً . وكان مَثَل زعيمهم وهو يتقدمهم محارباً فى أول الصفوف يذكى شجاعتهم وبسالتهم . على أن هذا الإغراق فى الجرأة من جانب القائد يحيى أبى زكريا لم يكن مما يرضى الإمام عبد الله بن ياسين حتى أنه أمر به ذات يوم فعوقب على تهوره بالجلد عشرين سوطا[٢] . ومع ذلك فإن أبا زكريا لم يفارقه شغفه بخوض المعارك فى صميم لظاها ، حتى سقط ذات يوم قتيلا مقاتلا فى أحدى الوقائع . ولكن جنده أحرزوا النصر مع ذلك .

فاختار الإمام بما له من السلطة العليا ، أخا أبى زكريا أبا بكر بن عمر مكانه ؛ وفى العام التالى لقى عبد الله حتفه حينما كان يغزو ضد أهل تامسنا ، ويقاتل دون تحوط ، واثقا فى حظه وطالعه (٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م)[٣] .

وكان مؤسس الدولة المرابطية يضطرم بتعصب مغرق استطاع أن يبثه فى قبائل الصحراء ، وكان يرى سحق جميع الذين لا يتلقون تعاليمه كلها دون قيد ولا شرط ، وكثيرا ما فعل ذلك متى توفرت له الوسيلة . وكان شديد التقشف فى مأكله ومشربه . وكان خطيبا موهوبا قوى التأثير والإقناع ، واسع العلم والمعرفة

---

(١) هذا التفسير تنقصه الدقة فالمرابطون مشتقة من الرابطة . وأصل معنى الرباط إرتباط الخيل بإزاء العدو فى الثغور ، ومنه المرابط وهو من لازم الثغر لدفع العدو ، أخذا من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

(٢) راجع روض القرطاس ص ٨١ .

(٣) راجع روض القرطاس ص ٨٤ .

يرى فيه البدو البسطاء مخلوقا فوق البشر ، وبلغ من نفوذه لدى هذه الجموع البدائية أن استطاع أن يقودها لفتح أهل المغرب والقبائل البربرية ؛ وكانت تعاليمه غاية فى البساطة تسير جنبا إلى جنب مع نظم الدولة البسيطة . وكانت أخص واجبات المرابط الورع تنحصر فى الصلاة والزكاة وأداء العشر . وكانت الغنائم التى تحصل فى الحرب بعد أن يفرز منها خمس الإمام توزع على المجاهدين فتحفزهم بذلك إلى الغزو والظفر من جديد .

• ٢ — فتوح يوسف بن تاشفين فى إفريقية

ولما توفى عبد الله بن ياسين قبض أبو بكر على زمام الحكم دون شريك ، ولم يكن قبل ذلك سوى قائد للإمام ؛ ولما كانت مدينة « إفريقية » (؟) التى جعلها الأمير — وهو اللقب الذى اتخذه أبو بكر — مقامه قد أخذت تضيق بجموع صحبه الزاخرة فضلا عن سوء موقعها ، فقد رأى أن يختار موقعا آخر يبتنى فيه عاصمة جديدة لملكه ، وسرعان ما ظفر بهذا الموقع فى بسيط حافل بالزرع والماء ؛ وأقيمت به غير بعيد قصور ومنازل عديدة ، وسميت المدينة الجديدة « مراكش » . ومع أن أبا بكر لم يشرف على بنائها ، بل أشرف عليه خلفه ، فإنه يجب أن يعتبر مع ذلك مؤسس هذه المدينة الشهيرة ، وكان تأسيسها على الأرجح فى أوائل سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م .

ذلك أن أبا بكر بينما كان مشغولا باختطاط عاصمته الجديدة ، إذ نشبت حرب أهلية بين قبيلتى كدالة ولمتونة ، فهرع إلى الصحراء لكى يحول بتدخله دون أن تبطش إحدى القبيلتين بالأخرى ، وكانت كلتاهما تقاتل الأخرى بمنتهى النكال والشدة دون أن تتضح أسباب هذه الخصومة . ولما تعذر إقناع القادة من الفريقين بعقد الصلح ، بادر الأمير إلى نجدة لمتونة فى خيرة جنده نصرة لها على خصومها ، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت من قبيلة صنهاجة على العاصمة الجديدة وأمره أن يتم تخطيطها وبناءها [١] .

---

(١) راجع فى تأسيس مراكش روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٤ والاستقصاء ١ ص ١٠٧ وما يورده فى ذلك من مختلف الروايات .

وبينما كان أبو بكر يقاتل كدالة فى الصحراء ، عمد يوسف بن تاشفين إلى توطيد سلطانه في المغرب الأقصى . وكان هـذا الرجل الذى خلق للزعامة يجمع بين جمال الطلعة والجسم ، وبين أبدع المواهب العقلية . وكان يتمتع بأوفر قسط من الذكاء والرأى الثاقب والشجاعة وبعد النظر ، وهى أخص صفات الزعامة ؛ وكانت شهامته وشغفه بالحرب ، وقد كان يقودها بفطنة وحسن طالع ؛ يسبغان عليه خلال الفروسية ؛ وكان جوده وولاؤه ؛ واحتقاره لمظاهر الترف فى الملبس والمسكن ، تكسبه محبة شعبه ، وتقوى فى نفوسهم من جهة أخرى عواطف التوقير والشرف التى وطدتها صرامته وعدالته ؛ وقد بلغ من اعتداله وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ، ولا يشرب سوى لبن الإبل ؛ وإلى هذا الاعتدال والتقشف يرجع الفضل فيما كان يتمتع به من صحة بديعة ؛ وفى كونه قد عاش مائة عام ، وهو عمر نادر البلوغ [1] .

وابتنى يوسف فى مراكش مسجداً بديعاً ، وقصراً حصيناً ؛ وعدة أبنية أخرى (سنة ٤٦٣ هـ — ١٠٧٠ م) ، بيد أنه لم يهمل شأن الحرب ؛ وكان لديه فضلا عن حرسه الخاص المؤلف من ألفى عبد اشتراهم من ساحل غيانه ، وفضلا عن قوة أخرى تسهر على شخصه ، مؤلفة من بضع مئين من الصقالبة النصارى من اسبانيا يحذقون فنون القتال ، جيش ضخم يضم زهاء مائة ألف مقاتل ، وينقسم إلى خمسة جيوش ؛ فإذا دقت الطبول سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو فى أكمل نظام . وقادها يوسف ببراعة ، فغلبت على أنحاء موريتانيا (المغرب الأقصى) كلها ، وافتتحت مدينة فاس الحصينة ، وملأ يوسف خزائنه بالمال مما أصاب فى غزواته المظفرة ، وبالأخص مما انتزع من اليهود الذين كانوا يقطنون المغرب يومئذ بكثرة ، وكان يشتد فى مطاردتهم .

أما أبو بكر فبعد أن أتم حربه ضد كدالة ، وفاز بالنصر عليها ، وقاد جيشه

---

(١) كان مولد يوسف بن تاشفين سنة أربعمائة من الهجرة ووفاته سنة خمسمائة . راجع فى نشأته وخلاله روض القرطاس ص٨٧ وما بعدها ، وابن خلدون ج٦ ص١٨٤ وما بعدها ، والحلل الموشية (طبع تونس) ص ١٢ وما بعدها .

المظفر حتى قلب بلاد السودان فقفل راجعا إلى مراكش (سنة ٤٦٦ هـ — ١٠٧٣ م) ولما اقترب من المدينة دعا يوسف إلى لقائه متظاهرا بصداقته ، وكان قد وقف على أطماعه وعظيم فتوحه وقواته معتزماً أن يجرده من الولاية التى قلده إياها بالغدر لا بالعنف ، فسار يوسف إلى لقائه فى مكانه بجيش ضخم ؛ فارتاع أبو بكر ، ورأى أنه لم يبق له من السلطان سوى الاسم ، وأعلن فى الحال استعداده لأن يترك لابن عمه مملكة المرابطين كلها وعاصمتها مراكش ، وأن يقنع بحكم اللمتونيين فى الصحراء ، فلم يتردد يوسف فى قبول هذا العرض ، وفى الحال أخذ البيعة لنفسه من جمهرة الزعماء الحاضرين ، وارتد أبو بكر إلى اللمتونيين فى الصحراء . وهنا تختلف الروايات فى مصيره ، فيقول البعض إنه لبث هنالك يحارب قبائل السود المجاورة مدى ثلاثة أعوام حتى توفى فى سنة ٤٦٩هـ — ١٠٧٦م ويقول البعض الآخر إنه عكف على الأهبة للحرب لأنه لم يستكن إلى فقد سلطانه ، وأنه سار إلى محاربة يوسف ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها أبو بكر ، وأن الظافر لم يشعر نحو المحسن إليه بشىء من العرفان فأمر بإعدامه[1] .

وكان يوسف بن تاشفين يبسط سلطانه يومئذ فى شمال غربى إفريقية على مملكة تمتد من حدود غيانه خلال الصحراء ، وخلال موريتانيا (مراكش) حتى البحر الأبيض المتوسط ، ويحدها المحيط الأطلانطى من الغرب ، ويحدها من الشرق ولاية قرطاجنة (تونس) التى كانت تنضوى يومئذ تحت لواء خلفاء مصر الفاطميين . وفى سنة ١٠٧٠ م سقطت فى يده طنجة ، وكانت فى يد الأدارسة الذين أخرجوا من مالقة . وعاونه فى أخذها المعتمد بن عباد أمير إشبيلية نكاية فى أعدائه ، فبعث السفن لمحاصرتها من البحر ، وحاصرها يوسف من البر حتى سقطت ، ولم ينقصه سوى سبتة ، للاستيلاء على جميع بر العدوة المقابل لشاطىء الأندلس .

ولما امتد سلطان المرابطين نحو الشرق بافتتاح تونس (سنة ٤٧٢هـ — ١٠٨٠م)

---

(١) تضع الرواية العربية وفاة أبى بكر سنة ٤٨٠هـ . راجع فى لقائه بيوسف ومصيره روض القرطاس ص ٨٧ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ١ ص ١٠٦

سقطت سبتة كذلك فى أيديهم ، بعد حصار طويل (سنة ١٠٨٤ م) ؛ وهنا بدت شبه الجزيرة الأسبانية لهذا الأمير المطبوع على الظفر فتحا يسير المنال ، لا سيما وقد دعاه أهلها المسلمون لنجدتهم ضد النصارى .

٣ — الأخطار المحدقة بالإسلام فى اسبانيا

اجتمعت كلمة ألفونسو السادس ملك قشتالة وسانشو الأول ملك أراجون ونافارا (نبره) ، وكذلك الكونت برنجار ريموند فيما يظهر ، على سحق الدولة الإسلامية فى اسبانيا . ذلك أنه بالرغم من أن المسلمين قد حكموا معظم أرجاء الجزيرة زهاء أربعمائة عام ، فقد كان النصارى يرون أن حقوقهم ما تزال قائمة عليها ، وأن أرض اسبانيا ما تزال ملكا لهم ، ولم يكن يخالجهم شك فى أنهم سوف يستعيدون الجزيرة كلها ذات يوم ، ويخرجون الفاتح الأجنبى منها . وكان ألفونسو السادس يرى أن هذا اليوم قد حل . ذلك أن الممالك النصرانية نبذت عندئذ كل خصوماتها ومعاركها التى كانت فيما مضى تشل قواها ، وأخذت تسدد كل قواها مجتمعة ضد أعداء النصرانية . وكان من الميسور عقد هذه الوحدة ، فمنذ بعيد لم تجتمع أطراف المملكة النصرانية كما اجتمعت يومئذ ، إذ كان ألفونسو السادس يحكم جليقية وجزءا من البرتغال وأشتوريش وليون وقشتالة وبسكونية ؛ وكان سانشو راميرز يحكم أراجون ونافارا ، وكان الكونت برنجار ريموند يحكم برشلونة وأورجل ؛ وإذن فقد كان النصارى الأسبان على حق فى أمانيهم ، خصوصاً بعد أن سقطت طليطلة الحصن العظيم فى أيديهم ، وكانت أعظم معقل للدولة الإسلامية فى اسبانيا ، وكان كل شىء يبدو عندئذ ممكناً .

وبينما سار إلى الأندلس جيش ضخم من جليقية وليون وانتزع مدينة قورية من بنى الأفطس ، ووصل إلى بسائط إشبيلية ، فأحرق قراها وانتسف حقولها ، وسارت قوة من الفرسان إلى شذونة ، ثم اخترقت جزيرة طريف قاصية اسبانيا حتى البحر ، إذ حاصر القشتاليون بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين ، وضمهم ألفونسو تحت قيادته فيما يظهر ، قاعدة سرقسطة الحصينة ؛

وسقوط سرقسطة يضع منطقة الايبرو (ابره) كلها حتما فى يد النصارى ، ويجعل الشواطئ الأسبانية مما يلى البحر الأبيض عرضة لغزواتهم .

وأثخن النصارى فى ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف ، ولم يكن يردهم فى الحرب أى اعتبار إنسانى ما دام الأمر متعلقا بأعداء الدين ، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة ، وتلقى المؤتمن بن هود وعدا بوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين فى جنوب الجزيرة . بيد أن النصارى كانوا يشددون الضغط على سرقسطة يوما بعد يوم ، وكان المسلمون فى شبه الجزيرة يرتجفون جميعاً لاحتمال سقوط هذا المعقل المنيع ، وكانت قواتهم وأهباتهم فى حالة يرثى لها وكانت دون قوى النصارى ، ومن ثم فقد كانوا بلا ريب يتطلعون إلى عون من الخارج . عندئذ اتجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين الناهضة فى إفريقية ، وكانوا قد استولوا على بعض مدن الأندلس دون معارض ، وعولوا على استدعائهم والتماس عونهم وغوثهم[1] .

وكان المعتمد بن عباد وهو يومئذ أعظم أمراء الأندلس يتحمل بتصرفه الطائش فى معاونة ألفونسو على محاصرة طليطلة أكبر تبعة فى تلك النكبة التى نزلت به وبإخوانه المسلمين . بيد أنه غدا بعد أن تبين خطأه أوفرهم نشاطا فى العمل على تحطيم صولة النصرانية ، وكان يرى مثل باقى الأمراء والولاة المستقلين أن قواهم قاصرة لا تكفى . ففى خلال مؤتمرين عقد أولهما فى إشبيلية ، وثانيهما فى قرطبة اتفق الأمراء المسلمون على أن يرسلوا سفيراً إلى يوسف بن تاشفين فى إفريقية يلتمسون عونه وغوثه . أجل عارض البعض فى ذلك ولا سيما عبد الله ابن سكوت والى مالقة ، وكان يرى أن المرابطين أشد خطراً عليهم من النصارى وأنه ما يزال من الميسور أن ترد عادية النصارى بالاتحاد والمثابرة ، ولكن معظم الأمراء كانوا يائسين من الاعتماد على قواهم ، فألحوا باللوم على عبد الله ساخطين ، بل رماه بعضهم بالخيانة ، وعهدوا إلى المتوكل أمير بطليوس ، وكان يومئذ أعلم

(١) فى روض القرطاس تفصيل حسن لغزوات النصارى فى تلك الفترة (ص ٩٢) .

أمراء الأندلس ، بأن يكتب إلى يوسف رسالة يصف فيها ما يلقاه المسلمون من النصارى من المحن ، ويلتمس إليه أن يبادر بغوثهم قبل أن تقع الطامة الكبرى ، ووقع هذه الرسالة ثلاثة عشر من الأمراء المستقلين ؛ فلما وصلت الرسالة إلى يوسف تشاور فى أمرها مع أكابر الزعماء والقربى فيما يجب صنعه . ورأى هؤلاء القادة الذين خرجوا حديثا من القفر ، ولم يسمعوا من قبل باسم النصارى ، ولم يبلموا أن للإسلام مثل هـذا العدو القوى ، أنه يجب نزولاً على حكم الدين أن يبادر المسلم إلى غوث المسلم ضد أعداء الدين .

على أن زعيم المرابطين وقد صقلته التجارب وبلغ ذروة النضج ، (وكان يومئذ قد جاوز السبعين) لم ير أن واجبه يقتصر فى ذلك على النزول عند بواعث النعرة الدينية ؛ ونظراً لنقص معرفته بالجزيرة وبالعدو المنتظر وكونه يخشى أن محاربة النصارى الأسبان قد لا تسفر عن النجاح المحقق ، فقد رأى أن يتبع فى ذلك نصح كاتبه عبد الرحمن[1] وهو أندلسى المولد يعرف الجزيرة وشؤونها حق المعرفة ، فشرح له عبد الرحمن ما يعترض الحرب فى الجزيرة من عظيم الصعاب ، لأن معظم الجزيرة فى يد النصارى ، والجزيرة ذاتها وعرة البسائط تعترضها جبال صعبة المسالك تحول دون الفتوح السريعة ، ويمكن تشبيهها بسجن يندر أن يستطيع الداخلون إليه الخروج منه . وتساءل الكاتب أى صداقة تربط سيده بأولئك الأمراء ؟ وأى قربى تحمله على غوثهم ؟ وأى ضمان قدموه إليه ؟ قال : فاذا انتصر عليك الأعداء فقد يقطع عليك طريق العودة إلى إفريقية بأيسر أمر . ومن ثم فنصحى إليك هو أن تخطر أمير إشبيلية أنك لا تستطيع العبور إلى اسبانيا قبل إخلاء حصن الجزيرة ، وبذا تملك موضعاً أميناً تشغله حامية مخلصة ، وتبقى فى كل وقت على اتصال دائم بإفريقية[2] .

---

(١) هو كما فى الحلل الموشية عبد الرحمن بن أسبط ، وكان أندلسيا من أهل المرية (ص ٣٢) .

(٢) يورد ابن الخطيب نص الحديث الذى أدلى به عبد الرحمن إلى يوسف فيما يأتى : «فقال (أى عبد الرحمن) له أيد الله الأمير تعمرون الثمن ، وسبعة أثمان يعمرها النصارى ،

وفى ذلك الحين الذى وجهت فيه الرسالة إلى أمير المرابطين بطلب الغوث ، وانتظرت منه الأمداد ، كان ملك قشتالة لا يزال يثخن فى أراضى المسلمين ، وفضلا عما كانت تشعر به سرقسطة كل يوم من ازدياد الضغط عليها وكونها كانت تحارب جيرانها العامريين ، كان بنو الأفطس إزاء خطر دائم . ذلك أن ألفونسو كان ينذرهم بتخريب جميع مدائنهم إذا أبوا الخضوع لسلطانه المظفر . وقد رد الأمير العالم عمر المتوكل صاحب بطليوس على مطالبه برسالة طويلة ، بيد أنه لم يحجم عن المضى فى غزواته وفتوحه[1] .

٤ — غلبة ألفونسو السادس على أسبانيا المسلمة

وبينما كان يوسف بن تاشفين يتردد فى العبور إلى أسبانيا إما لأنه لم يستكمل أهبته أو لأن الحصون المطلوبة لم تسلم إليه ، حاول عدة من الأمراء بأداء الجزية وتسليم حصون الحدود أن يحصلوا على مهادنة ألفونسو ولو إلى حين . ولم ينج أمير إشبيلية نفسه من ذلك الإذلال المهين . وبعث ألفونسو إلى إشبيلية سفيراً تسميه الرواية العربية بقرمط البرهانس[2] ومعه إلى المعتمد رسالة تفيض كبرياء وصلفا ينعت فيها نفسه بالقيصر وسيد الشعبين ، وإمام الشريعتين[3] . وتقول

— وهى (أى أسبانيا) ضيقة حرجة صريحة سجن لمن دخلها لايخرج منها إلا تحت حكم صاحبها ؛ وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك فى نفسك من شىء ، وهو الرجل الذى استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصلة ، ويتقى إذا قضى الله الغرض من العدو أمسك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكتبوا إليه (أى إلى المعتمد) فإنه لا يمكنك الجواز إلى أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتعجل فيها أثقالك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت » (الحلل الموشية ص ٣٢) .

(١) راجع نص هذه الرسالة فى الحلل الموشية (ص ٢٠ و ٢١) ، وهى رسالة تفيض شجاعة وإباء ونبلا .

(٢) هكذا ورد اسم السفير فى خطاب ألفونسو السادس إلى المعتمد ، حسبما ينقله إلينا ابن الخطيب فى الحلل الموشية (ص ٢٢ و ٢٣) ، ولكن يلوح لنا أن هناك تحريفاً فى كلمة « القرمط » والأرجح أنها كلمة « القومط » البرهانس ، (أى الكونت) وهو بالأفرنجية (Alvar Fanez) وقد كان من أكابر قادة ألفونسو ورجال دولته .

(٣) ألفاظها كما وردت فى الحلل الموشية « من الإنبيطور ، ذى الملتين الملك المفضل الأدفنش بن شانجه » ولعل الإنبيطور هنا هى الإمبراطور .

الرواية العربية إن المعتمد أجاب على هذه الرسالة برسالة أشد كبرياء وعنفاً ولكنها تذكر مع ذلك أن المعتمد اضطر إزاء تردد يوسف فى العبور إلى اسبانيا أن يؤدى جزية مشينة ، ومن ثم فإنه يحق لنا أن نرتاب فى صحة هذه الرسالة[1] . وكان مع سفير ألفونسو قرمط البرهانس يهودى بارع فى شؤون النقد يدعى ابن شاليب ، والظاهر أن ألفونسو وقع غير مرة على مال زائف مما يقبضه من جزية الأمراء المسلمين ، فأمر اليهودى أن يفطن إلى ذلك فيما يقبضه من المعتمد ، فلما حمل إليه الوزراء مال الجزية التى يجب أن يؤديها المعتمد إلى ملك قشتالة أبى أن يتقبله دون فحص للتحقق من صحته ، فأثار ذلك نقاشا حادا ، وحاول السفير تسوية الخلاف فاقترح أن يقدم ابن عباد بدل المال المطلوب سفناً حربية بقيمة الجزية لأن اليهودى مأمور ألا يتسلم المال دون فحص وتحقيق .

ولكن المعتمد ازداد غضباً لأقوال السفير وصاح بأنه لا يستطيع أن يحتمل بعد طغيان النصارى الأوغاد بل قيل إنه بطش بالسفير خلافا لما يقضى به قانون الأمم (القانون الدولى) . وفى بعض الروايات العربية أن المعتمد فقأ عينى السفير بنفسه وقتل رفاقه وهم ثلاثمائة ، ولم ينج منهم سوى ثلاثة لاذوا بالفرار . وضرب اليهودى حتى غشى عليه ثم صلب ؛ ولكن توجد ثمة رواية غربية أخرى أوثق من هذه (والروايات النصرانيـة لا تذكر شيئاً عن الحادث) مفادها أن المعتمد كان أقل خشونة فى معاملة السفير . ذلك أن السفير كان يقيم مع حاشيته فى الخيام فى ظاهر إشبيلية ، فانسل إلى خيمة اليهودى بعض العبيد الصقالبة وقتلوه والنصارى الذين كانوا معه . وكان ذلك بأمر المعتمد بلا ريب . أما حياة السفير فقد حفظت نزولا على قانون الأمم ، وارتد السفير إلى طليطلة وهو يتوعد بنقمة مولاه[2] .

(١) ورد فى الحلل الموشية نص هذه الرسالة ، وفيها ينعى ابن عباد على ألفونسو كبرياءه وصلفه ويرد إليه وعيده (ص ٢٣ — ٢٥) .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارة وما وقع للسفير النصرانى وزميله اليهودى ابن شاليب فى الحلل الموشية ص ٢٥ و ٢٦ ونفح الطيب ٢ ص ٤٧٠ وابن خلكان ٢ ص ٣٩ وابن الأثير ٩ ص ٤٨ والاستقصاء ٢ ص ١١٣ ؛ والروايات العربيـة تختلف فى بعض التفاصيل ولكنها تتفق فى هذه السفارة وفى غايتها ، راجع أيضاً دوزى ٣ ص ١١٩ .

وتبين المعتمد بعد التأمل الهادئ سوء تصرفه ، ونصح الوزراء بأن يصور الحادث كفورة سخط جاش بها الشعب ضد اليهودى لما أبداه من عدم الثقة ، وأن يمد ألفونسو بالترضية الكافية وذلك اتقاء للعاصفة التي تبدو قريبة في الأفق ؛ ولكن المعتمد كان يرى رأياً آخر فاستدعى ابنه الرشيد ، وكان قد أخذ له البيعة بولاية عهده ، وأفضى إليه بأنه إذ يستحيل عليه مقاومة أطماع ألفونسو وطغيانه بالسيف يعتزم أن يستدعى المرابطين إليه ، وأنه يؤثر أن يسحق على يد إخوانه في الدين على أن يسحقه ألفونسو اللعين . وحديث المعتمد مع ولده يشف عن السبب الذي حمل يوسف بن تاشفين على التريث في إجابة دعوة أمراء الأندلس ؛ ذلك أنه طلب تسليم حصن الجزيرة في الأندلس وهو من أراضي أمير إشبيلية ، فتردد المعتمد في تحقيق طلبه ، ولكن المعتمد رأى عندئذ أنه يجب أن يختار بين أن يسحق على يد ألفونسو وأن يلقى بنفسه في يد المرابطين . ولما بين الأمير الرشيد لوالده ما ينطوى عليه التجاؤه إلى المرابطين من الخطر أجابه المعتمد بما يأتي : « أى بني والله لا يسمع عنى أبداً أننى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ، فتقوم على اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيرى ؛ في حرز الجمال والله عندى خير من حرز الخنازير »[1] .

٥ — يوسف بن تاشفين يعتزم العبور إلى اسبانيا

وبادر المعتمد فأرسل إلى المغرب سفارة تحمل رسالة بخطه وفيها ينعت سلطان المرابطين « بأمير المؤمنين » . وكان يوسف قد تلقب بأمير المؤمنين قبل ذلك بقليل نزولا على رغبة الزعماء وشفعه بلقب « ناصر الدين » ، وكانت هذه خطوة ذات شأن ، ذلك أن أحداً لم يجرؤ على ادعاء الخلافة قبل ذلك إلا إذا كان من سلالة النبي (ص) أو ادعى ذلك على الأقل . ومع ذلك فقد كان يوسف يعترف

---

(١) هكذا وردت في الحلل الموشية (ص ٢٨) ، وقد أوردها المؤلف بشيء من الزيادة في العبارة الأخيرة هكذا : « وتالله يا بنى إننى لأوثر أن أرعى الجمال لسلطان مراكش على أن أغدو تابعاً لملك النصارى وأن أؤدى له الجزية » . وراجع أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٣ في ترجمة يوسف بن تاشفين . وما قاله ابن عباد بهذه المناسبة موضع خلاف . والمتفق عليه هو أنه قال إن رعى الجمال خير من رعى الخنازير .

بدعوة خليفة بغداد العباسى ، بل قيل فى بعض الروايات العربية إن الخليفة المستظهر بالله قد عينه أميراً على إفريقية ، وأحيط هذا التعيين بجميع الرسوم والتقاليد المرعية [١] .

ويصف المعتمد فى كتابه (إذا صح النص الذى انتهى منه إلينا) ما وصل إليه المسلمون فى الأندلس من جراء خلافهم وتفرق كلمتهم من حال يرثى لها ويتحدث عن ألفونسو ملك قشتالة فى أعنف لهجة ، ويذكر كيف أنه فى كل يوم ينقض على أراضى المسلمين كالكلب المسعور فيعيث فيها ، ويفتتح الحصون ، ويسبى السكان ، ويثخن فى كل شىء دون أن يهب أحد من أمراء الأندلس لغوثهم والدفاع عنهم ، وذلك بالرغم من أنهم يرون بأعينهم محنة ذويهم وأصدقائهم وجيرانهم ؛ وينسب المعتمد هذا الخور والتخاذل إلى اعتدال جو الأندلس ، وإلى الشغف بالملاذ ، وإلى الحمامات ذات الماء المعطر ، وإلى المآكل الشهية والعيش الناعم الرغد ، ويرجو ألا يتردد يوسف وهو سيد أمم عظيمة وملك ضخم فى أن يعبر إلى أسبانيا ، وأن يقاتل ذلك العدو الذى يطارد المؤمنين بكل ما يملك من غدر وخديعة قاصداً محو الإسلام فى اسبانيا [٢] ، وكتب الوزير أبو بكر [٣] كتاباً بنفس المعنى يؤكد فيه بحق أن انهيار سلطان المسلمين فى اسبانيا لا يرجع إلا إلى تفرقهم وتخاذلهم ، وأنه بينما يقوى النصارى بالاتحاد وينتزعون أراضى المسلمين ومعاقلهم بالعنف والخديعة وبالوعيد والوعد وبالسيف والإقناع ، إذا بقوى المسلمين تنضب يوماً بعد يوم . وقد غصت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء

---

(١) وردت هذه الرواية فى ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ وراجع الحلل الموشية ص ١٦ .

(٢) راجع نص هذا الخطاب الذى ينسب لابن عباد إرساله إلى يوسف بن تاشفين فى الحلل الموشية ص ٢٨ و ٢٩ ، وقد لخصه المؤلف تلخيصاً حسناً ؛ وقد أشار إليه فى روض القرطاس (ص ٩٢) .

(٣) جاء فى الحلل الموشية أن أبا بكر هذا الذى تنسب إليه هذه الرسالة هو « أبو بكر ابن الجد » (ص ٢٨) ، ولكن يلاحظ من جهة أخرى أن أبا بكر بن زيدون ولد الشاعر الأشهر أبو الوليد بن زيدون المخزومى كان يومئذ من وزراء المعتمد بن عباد ، وكان بين رسل المعتمد وسفرائه إلى يوسف بن تاشفين ، ولعله هو كاتب الرسالة المشار إليها (راجع ابن خلكان ج ١ ص ٥٤ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٦) ، أما نص هذه الرسالة فقد ورد فى الحلل الموشية (ص ٣٠ و ٣١) .

الدين ، ونشرت الصلبان فوق المنائر التى كان يتلى فيها الأذان من قبل ، وأخذت النواقيس تقرع للقداس بعد أن كان يدعى للصلاة . ويختم الوزير كتابه بقوله إن يوسف قد غدا معقد الآمال وإنه يعتقد أن الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام[1].

ولما كان يوسف قد أبدى أنه لا يستطيع العبور إلى أسبانيا إلا إذا أعطى له حصن الجزيرة فقد ارتضى أمير إشبيلية هذه التضحية بالرغم من اعتراض ولده الرشيد . وأرسل المعتمد إلى يوسف ينبئه بهذا القبول . ثم أرسل إلى ولده يزيد الراضى بالله والى الجزيرة يأمره بأن يسلم المدينة إلى المرابطين الذين يعينهم ابن تاشفين لتسلمها[2] .

ثم رأى المعتمد أن يسعى إلى اجتذاب زعيم المرابطين إليه خاصة ، وأن يحمله على التعجيل بمقدمه إلى أسبانيا ، فسار إلى زيارته بالعدوة خفية فألفاه فى مكان يبعد عن سبتة بثلاثة أيام يقوم بأهبات عسكرية عظيمة ، ولم يكشف المعتمد عن شخصه حتى جاز إلى قصر الأمير ، ثم طلب إلى رجال الخاص أن يخطروا أمير المسلمين بأن ابن عباد يقف ببابه ، فذعر ابن تاشفين وظن أن المعتمد قدم فى جيشه ولكنه أدرك فى الحال خطأه ، واستقبل المعتمد بود وترحاب ، وسرعان ما أشار إليه أن يعود إلى اسبانيا ليقوم بإعداد المؤن اللازمة للجيش الذى يعده للعبور إلى الأندلس . فعاد ابن عباد إلى إشبيلية مستاء لخيبة المسعى الذى قصد وهو أن يحمل يوسف على أن يختاره نائباً من قبله لأسبانيا المسلمة . وعلى أثر ذلك أمر يوسف بعبور جيشه من سبتة إلى الجزيرة[3]

(١) تشير الرواية العربية إلى مراسلات أخرى وجهت من أمراء الأندلس إلى يوسف (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٢) .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ ونفح الطيب ج ١ ص ٤٧ .

(٣) فى هذه الرواية بعض الغموض ، فالمتفق عليه أن ابن عباد عبر إلى المغرب لزيارة يوسف بن تاشفين . ولكن المختلف عليه هو ما إذا كانت هذه الزيارة قد حدثت قبل موقعة الزلاقة أو بعدها . والرواية الثانية أرجح وهو أن ابن عباد عبر إلى المغرب بعد الزلاقة ليستمد عونه فى بعض شؤونه (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠) . ويأخذ دوزى بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٣٤) ويورد المراكشى (ص ٧٠) وصاحب روض القرطاس (ص ٩٣) الرواية الأولى وهى التى أخذ بها المؤلف .

الكتاب الثانى

سيادة المرابطين فى شبه الجزيرة
فى عصرى ألفونسو السادس ملك قشتالة
وألفونسو المحارب ملك أراجون

الفصل الأول

فتوح المرابطين فى اسبانيا

فى عهد يوسف بن تاشفين وولده على

حتى موقعة اقليش

(من سنة ٤٧٩ — ٥٠٢ هـ) — (١٠٨٦ — ١١٠٨ م)

---

١ — حملة يوسف لإنجاد الأندلس ضد ألفونسو السادس

فى شهر ربيع الآخر سنة أربعمائة وتسع وسبعين من الهجرة الموافق أغسطس سنة ١٠٨٦ م عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة . وما كادت السفن تنشر قلاعها حتى صعد يوسف إلى مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازى هذا خيرا وصلاحا للمسلمين فسهل علىّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . ويروى المسلمون الأتقياء أن البحر ما لبث أن هدأ وجازت السفن سراعا فى أبدع جو إلى شاطئ الأندلس . وما كاد يوسف يعبر إلى الشاطئ حتى صلى مفتتحا عمله باسم الله[1] ، ثم تسلم قاعدة الجزيرة الخضراء التى تعهد بتسليمها المعتمد وأتى هنالك لاستقباله والاحتفاء بمقدمه جمعا كبيرا من القضاة والفرسان وعلى رأسهم صديقه محمد المعتمد أمير إشبيلية[2] ، وأراد المعتمد أن يترجل عن جواده وأن يقبل يد يوسف إشارة

---

(١) هكذا ورد دعاء يوسف فى روض القرطاس وروايته فى جواز السفن على أثر ذلك فى ريح طيبة وصلاة يوسف على أثر عبوره هى المقصودة هنا (راجع ص ٩٣) .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية فى هذه الواقعة فالبعض يقول إن المعتمد بن عباد استقبل =

بخضوعه ، فمنعه يوسف من ذلك لأنه لم يكن سيد القوم بعد ولم يكن سوى حليفهم ، مؤثرا أن يفرض طاعته على الجميع فى فرصة أخرى . وإذ كانت الجزيرة مفتاح اسبانيا فقد أمر بتحصينها أتم تحصين ورتب بها حامية مختارة لتسهر عليها ، وشحنها بمقادير عظيمة من الأقوات والذخائر لكى تغدو ملاذا أمينا يلتجئ إليه إذا منيت حملته بالفشل[1] ، ثم غادرها فى جيشه إلى إشبيلية . وكان كل أمير من أمراء الأندلس قد تعهد بأن يجمع ما فى وسعه من الجند والمؤن ، وأن يسير إلى مكان معين فى وقت معين . وكان أمير إشبيلية قد عنى عناية خاصة بإعداد مقادير عظيمة من المؤن تكفى لتزويد جيش ضخم ، واستطاع بذلك أن يسبق زملاءه الأمراء فى اغتنام عطف يوسف . ولبث أمير المرابطين فى إشبيلية ثمانية أيام فقط رتب أثناءها قواته وينتظر مقدم الأمراء الأندلسيين فى قواتهم . وقبل السير تركت جميع الأثقال والعتاد التى لا حاجة إليها . ثم غادر الجيش إشبيلية مخترقا أراضى أمير بطليوس ، وكان أخوه المستنصر قد عنى بجمع الجند والخيل والدواب . ورتبت القوات على النظام الآتى : سار فى الطليعة فرسان المرابطين وعدتهم عشرة آلاف يقودهم أبو سليمان داود بن عائشة ، وتلتهم قوات الأندلس يقودها المعتمد أمير إشبيلية . وكانت قوات الأندلس تؤلف وحدها جيشا خاصا منفصلا عن جيش المرابطين المؤلف من جند إفريقية . وسار من بعدهم بيوم جيش المرابطين يقوده يوسف بن تاشفين ، وكان ينزل فى المساء فى المحلة التى يغادرها أمير إشبيلية فى الصباح ، ووصلت الجيوش على هذا النحو إلى « أرطوشة » على مقربة من بطليوس ولبثت هنالك ثلاثة أيام[2] .

= يوسف فى الجزيرة وهى رواية المراكشى (ص ٧٠) وصاحب روض القرطاس (ص ٩٣) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) والبعض الآخر يقول إن المعتمد استقبل يوسف فى إشبيلية ولم يستقبله فى الجزيرة الخضراء (راجع ابن الأثير ١٠ ص ٥٢ والحلل الموشية ص ٣٧ ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١١٥) والأولى هى الأرجح فيما يظهر .

(١) راجع الحلل الموشية ص ٣٥ .

(٢) أرطوشه Artosa كما فى الرواية الأفرنجية ، ولكن الرواية الإسلامية تقول « ظرطوشة » ، وظاهر أنها تقصد بلدة أخرى غير ثغر « طرطوشة » الشهير فى مقاطعة سرقسطة (راجع روض القرطاس ص ٩٤ والاستقصاء ج ١ ص ١١٦) .

وفى تلك الأثناء كان نبأ مقدم المرابطين إلى اسبانيا قد وصل على جناح السرعة إلى معسكر النصارى أمام أسوار سرقسطة ، وكان الملك ألفونسو السادس قد سير إليها معظم قواته لكى يعجل بسقوطها ، ولم يحمله على رفع الحصار عنها سوى الخوف على عاصمته طليطلة وعلى أراضيه الجنوبية . فعقد مجلسا من كبراء مملكته ، ثم حشد قواته ، وقام بأهبات حربية عظيمة ، ليخوض المعركة مع فاتحى إفريقية بنجاح . وإذ كانت المحنة تملى بالاتحاد فقد تحالف مع سانشو راميرز[١] Sancho Ramirez ملك أراجون وصاحب بنبلونه والكونت برنجار ريموند ، وكان الأول يشتغل يومئذ بمحاصرة طرطوشة ، وكان الثانى يتأهب لغزو بلنسية ، فعدل كل منهما عن مشروعه ، وانضما بقواتهما إلى ألفونسو ، وكان قد حشد قوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونية واشتوريش وقشتالة ، ومن الأراضى الإسلامية التى فتحت أخيرا ، ووفدت فى الوقت نفسه لنجدة النصارى الأسبان سريات من الفرسان ، من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك وجويانه وبرجونيه وبروفانس مؤملة أن تجنى بمقاتلة أعداء الدين مغانم عظيمة ، وأن تحقق سلام روحها . وتقول الرواية العربية ، وهى تبالغ أحيانا فى أقوالها ، إن جيش ألفونسو كان يبلغ زهاء مائة ألف من المشاة وثمانين ألفا من الفرسان ، منهم أربعون ألفا من ذوى العدد الثقيلة ، والباقون من ذوى العدد الخفيفة . ومن هؤلاء نحو ثلاثين ألف فارس من المسلمين من رعايا ألفونسو . أما الرواية النصرانية فإنها تلتزم الصمت إزاء عدد النصارى أسوة بالرواية العربية إزاء عدد المسلمين ، ولكنها تقدر عدد الجيش الإسلامى ببضع مائة ألف أو تقول إنه كان لا يحصى عديده كجيش من الجراد المنتشر . وقد نقترب من الحقيقة إذا قدرنا قوات كل فريق بنحو مائة وثلاثين ألفا إلى مائة وخمسين ألفا . ذلك أن جيش المرابطين الذى قاده يوسف إلى اسبانيا لا يحتمل أن يزيد كثيرا على سبعين ألف مقاتل ، ويمكن أن يقدر ما حشده أمراء الأندلس بمثل هذا العدد . ولم يك ثمة ما يحمل النصارى

---

(١) هو المعروف فى الرواية العربية بابن ردمير .

على أن يحشدوا للقتال أكثر مما حشد أعداؤهم سيما وقد استطاعوا بعد ذلك بقليل أن يحشدوا مثل هذا الجيش مرة أخرى[١] .

وعسكر الجيشان المتحاربان على قيد بضعة أميال من بطليوس في سهل تتخلله الأحراش ، وتسميه الرواية العربية بالزلاقة أو السهلة وتسميه الرواية النصرانية « سكرالياس » sacralias وفرق بين الجيشين نهر صغير تسميه الرواية العربية بنهر حجير[٢] وضرب يوسف محلته (معسكره) وراء ربوة عالية منفصلا عن محلة الأندلسيين[٣] وعسكر الأندلسيون أمام النصارى ، وكانت جموع فرسانهم التي لا تدرك نهايتها الأبصار تبعث إلى قلوب الأمراء الأندلسيين اليأس من النجاح والظفر .

وكان احتشاد هذه الجموع الهائلة مع ما كانت تحمل من مؤن قليلة يهدد الجيشين بالجوع إذا طال مكثهما في تلك البقعة ، ومن ثم فقد أرسل يوسف إلى ألفونسو كتابا يخيره فيه بين ثلاث : إما أن يعتنق الإسلام ، أو يؤدي الجزية لأمير المرابطين ، فإذا أبى الاثنين فعليه أن يبادر بالأهبة إلى القتال ، وأنه أي أمير المرابطين القوي قد عبر بنفسه إلى اسبانيا ليوفر على ملك النصارى هذا العناء وليلقاه بنفسه . وقد شاء الله أن يجمع الآن بينهما في ميدان واحد ،

---

(١) هذه تقديرات مبالغ فيها ، وتبدو مبالغة الرواية النصرانية بنوع خاص حين تقدر المسلمين بمئات الألوف . كذلك تقدم إلينا بعض الروايات الإسلامية مثل هذه التقديرات المبالغ فيها بالنسبة للنصارى ، ففي رواية مثلا أن النصارى كانوا مائتي ألف راجل وثمانين ألف فارس (راجع روض القرطاس ص ٩٠ ، وفي سياق الرسالة التي قيل إن يوسف بعث بها إلى المغرب عقب النصر ص ٩٧) ، وفي الحلل الموشية أن النصارى كانوا ثمانين ألفا ، منهم أربعون ألفاً من ذوي الدروع الثقيلة (ص ٣٨) . ولكن الروايات الإسلامية المعتدلة لا تذهب في التقدير إلى هذا الحد ، فمثلا يقدر ابن الأثير جيش النصارى بخمسين ألف مقاتل (ج ١٠ ص ٥٢) ، وفي رواية أخرى أن النصارى كانوا أربعين ألفاً غير الأتباع (نفح الطيب ٢ ص ٥٢٨) ، وفي الحلل الموشية أن المسلمين كانوا ثمانية وأربعين ألفاً نصفهم من الأندلسيين ونصفهم من المرابطين (ص ٣٨) ؛ ويقول المراكشي إن المسلمين كانوا عشرين ألفاً فقط (ص ٧١) ، وعلى أي حال فإنه يستخلص من الروايات المختلفة أن عدد المسلمين كان أقل من عدد النصارى ، (راجع أيضاً دوزي ج ٣ ص ١٢٧) .

(٢) ويسميه صاحب روض القرطاس نهر بطليوس (ص ٩٤) .

(٣) روض القرطاس (ص ٩٤) ، والاستقصاء (ج ١ ص ١١٦) .

وذلك لكي يقضي على طغيان النصارى وجشمهم [1] .

فلما قرأ ألفونسو الكتاب ألقاه على الأرض مغضبا وقال للرسول : اذهب فقل لمولاك إننا سنلتقي في ساحة الحرب . وأما عن يوم اللقاء فقد كتب ملك النصارى إلى أمير المرابطين ما معناه : « إن غدا يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ولست أراه يصلح للقتال واليوم التالي وهو السبت يوم اليهود ومنهم كثيرون في المعسكرين وإذاً فلست أختاره للقتال أيضاً . كذلك لست أختار اليوم التالي وهو يوم الأحد لأنه يوم النصارى ، وعلى ذلك فإني أقترح للقاء يوم الاثنين ففيه يستطيع كل منا أن يجاهد بكل قواه لإحراز النصر دون الإخلال بيومه » فوقع هذا الاقتراح من يوسف موقع الرضى وتحدد للقاء يوم الاثنين ٢٦ أكتوبر سنة ١٠٨٦ وهو الموافق ١٥ رجب سنة ٤٧٩ [2] .

ولكن ألفونسو كان يرى وفقاً لمبدإ ذميم ، أنه يحق له أن يلجأ في الحرب إلى كل خدعة ، وأن ينكث بالعهد المقطوع فيقاتل قبل اليوم المضروب ليفاجئ العدو وليتمكن بذلك من هزيمته . ومن ثم فقد اعتزم أن يلجأ إلى مثل هذه الخديعة وأن يختار للقتال يوم الجمعة وهو يوم المسلمين .

بيد أن المسلمين بالرغم من إرجاء موعد القتال إلى ما بعد أيام لم يدخروا وسعا في التحوط ضد أية مفاجأة . وكان المعتمد أمير إشبيلية يرتاب بنوع خاص في نيات ملك قشتالة سيما وقد خبر من قبل خدعه في الحرب ، وعانى من جرائها

---

(١) تورد الرواية الإسلامية ملخص كتاب يوسف إلى ألفونسو فيما يأتي : إنه بعث كتاباً على مقتضى السنة يعرض على الأذفونش الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية ، ومن فصول كتابه : « بلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (راجع الحلل الموشية ص ٣٥ ، وابن خلكان ٢ ص ٤٨٣ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٧ ، والاستقصاء ١١٤) ؛ هذا مع خلاف يسير في العبارات بين مختلف الروايات .

(٢) تشير الرواية الإسلامية إلى رسالة ألفونسو ليوسف (أو لابن عباد) في هذا المعنى (المراكشي ص ٧٢ ، والحلل الموشية ص ٣٩ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٩) ، وراجع أيضا دوزى (٣ ص ١٢٩) .

غير مرة ، فبث عيونه بالليل ليرقبوا كل حركة فى معسكر النصارى ، ووقف هؤلاء على أهبة النصارى للقتال فارتدوا مسرعين إلى المعتمد ، وكان قد أعد جنده للنزال قبل أن يتحرك جند ألفونسو من محلتهم . وفى الحال أخطر يوسف أيضاً بحركات النصارى وكان يقود المعسكر الثانى والقلب والجيش الاحتياطى .

وكان ألفونسو قد قسم جيشه إلى قسمين ، فسير أولهما بقيادة الكونت جارسيا والكونت رودريك وانقض هذا الجيش بمنتهى العنف على معسكر الأندلسيين بقيادة المعتمد ، وأمل ألفونسو أن يبعث بذلك الهجوم المفاجئ الروع والاضطراب فى صفوف العدو . ولكن شد ما دهش النصارى إذ رأوا أمامهم قبل أن يصلوا إلى المعسكر الأندلسى ، جيشاً من المرابطين قوامه عشرة آلاف فارس بقيادة داود ابن عائشة وهو من أشجع قادة يوسف وأقدرهم . أجل لم يكن فى وسعه أن يصمد لكثرة النصارى وعنف هجومهم وذلك بالرغم من اعتماده على قوة كبيرة من رماة السهام والنبال ، ولكنه استطاع على الأقل بوقفته الباسلة أن يحطم من عنف هجمة النصارى وأن يرغمهم بذلك على الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى . ولم يكن ذلك بالطبع دون خسارة فادحة لحقت بالمرابطين واضطرتهم إلى الارتداد فيما بعد . وعهد ملك قشتالة بقيادة جناحى جيشه إلى سانشورامبريز صاحب أراجون والكونت برنجار رعوند ، وتولى هو قيادة القلب بنفسه . واقترن زحف النصارى وهجومهم بصياح حربى مروع وقرع هائل للطبول . وكان أمير إشبيلية يصطحب معه منجما فسأله عن سير الموقعة فأجابه فى البداية بما يثبط الهمم ولكنه عاد فبشره بحسن العاقبة ولم يكن لديه شك فى نصر المسلمين[1] ومع ذلك فقد هاله ما رأى من انقضاض العدو على معسكره فى مثل هذه الجموع الضخمة وبث منظر الفرسان النصارى فى دروعهم الحديدية — وكأنهم كتل من السحب القاتمة ، يهوون بسيوفهم على الأندلسيين كالبرق — بين الأمراء الأندلسيين أيما روع ، فأيقنوا بالهلاك قبل خوض المعركة ولاذوا جميعاً بالفرار الشين . وطوردت

(١) يشير ابن الخطيب فى الحلل الموشية إلى قصة ابن عباد مع منجمه (ص ٣٩ — ٤٠) .

الصفوف الفارة فى غير انتظام حتى أسوار بطليوس ، بيد أن فرسان إشبيلية يقودهم أميرهم الشجاع المعتمد استطاعوا نوعا أن ينقذوا شرف مسلمى الأندلس ، وكان أولئك الفرسان وقد أحاطت بهم من كل صوب آلاف مؤلفة من فرسان العدو يقاتلون كالأسود المجروحة ، ويؤازرهم الفرسان المرابطون بقيادة داود ابن عائشة وهم الذين قاتلوا فى البداية بمنتهى البسالة والجلد ؛ وهكذا استطاعوا أن يصمدوا لهذه المعركة الهائلة مدى حين .

وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر حينما رأى مقاومة المعتمد تضعف تباعا ورأى حركة الفرار تتسع بين المسلمين شيئاً فشيئاً . وكان جيش المرابطين بقيادة يوسف ابن تاشفين يرابط فى المحلة الثانية وراء أكمة عالية تحجبه عن أنظار النصارى ، ولم يكن قد اشترك فى المعركة بعد . ولم يشترك فيها مع الجيش الأندلسى من الإفريقيين سوى الآلاف العشرة من الفرسان المرابطين بقيادة داود ابن عائشة ؛ ولكن ألفونسو ظن لسوء طالعه خطأ أنه قد خاض المعركة مع قوى الأعداء جميعها .

ففى تلك الآونة الحاسمة وثب الجيش المرابطى المظفر إلى الميدان فى الوقت الذى أخذت فيه قوى النصارى فى الهبوط ، وأرسل يوسف لغوث المعتمد عدة فرق من زناتة وغيرها من البربر بقيادة أبى بكر وعزز بذلك جانب الأندلسيين فى معركة مالت إلى هزيمتهم ، وبادر فى الوقت نفسه بالزحف فى حرسه الضخم من اللمتونيين والمرابطين ، وقد كان عماد ظفره فى جميع حروبه الإفريقية . واستطاع بحركة بارعة أن يباغت معسكر ألفونسو وأن يحدق به . وكان ألفونسو يدفع جنده فى غمرة المعركة دائما إلى الأمام ، حتى استطاع أن يوقع الهزيمة بالمعتمد ، وأن يلجئه إلى الفرار بالرغم من قدوم النجدة المرابطية لغوثه ؛ وبينا هو مشتغل بمطاردة العدو المنهزم ، إذا به يقع فجأة على جموع فارة من النصارى ، وقد كان أولئك حرس معسكره ، فانقض عليهم يوسف بجيشه الزاخر واضطرهم إلى الفرار . وعلم النصارى مع الروع أن يوسف قد احتوى المعسكر النصرانى وفتك بمعظم حراسه واستولى على جميع ما فيه من نفائس ، وأحرق الخيام وغث المتاع .

وما كاد ألفونسو يقف على هذا النبأ حتى ترك مطاردة الأندلسيين ومن معهم من المرابطين ، وارتد من فوره ليسترد معسكره الذى انتزعه يوسف وليوقع الهزيمة هنالك بأعدائه . ولكن يوسف لم ينتظر حتى يهاجمه ألفونسو بل انقض فى جموعه الظافرة على النصارى كالسيل يحمل من يصادره . ومع أن النصارى كانت قد خبت قواهم من استطالة النضال ، فإنهم قاتلوا قلب الجيش الافريقى بشجاعة وجلد حتى أن يوسف بالرغم من عنف وثبته وجدة قواه بدأ يرتاب فى بلوغ النصر ، فأخذ يثب بجواده السريع بين جنده من صف إلى آخر وهو يذكى حماستهم للقتال ويقول : « يامعشر المسلمين اصبروا واصبروا داعماً فى هذا الجهاد المقدس . ولقد نقص الله عدد المشركين ، وإن الجنة مثوى الشهداء ، وإن اخوانكم الذين استشهدوا لينعمون بأعظم ضروب السعادة فى جنات الخلد »[1] ولم يكن تشجيع يوسف لجنده بقدوته أقل من كلماته ، فقد كان فى مقدمة الصفوف يخوض غمار المعركة فى ذروة لظاها ، وقد قتلت تحته أفراس ثلاث ، وكأنما كانت تحميه من الطعان يد العناية . وقاتل المرابطون فى هذا اليوم وهم يضطرمون شوقا إلى الاستشهاد ، وكأنما كانوا يجدّون فى طلب الموت فى أعمق صفوف العدو حتى يفوزوا بنعيم الخلد . كذلك قاتل النصارى فى هذا اليوم العصيب بإخلاص يضطرم للدين وللوطن . ودام القتل الذريع بضع ساعات ، وسقطت ألوف مؤلفة وقد حصدهم الموت حصاد الهشيم ، وغمر دم القتلى ساحة الحرب ، وغرق بعض الساقطين فى دم الأولى قتلوهم . وأخيراً بدت طلائع الوقعة الحاسمة قبيل دخول الظلام ؛ وكان أمير إشبيلية وداود ابن عائشة قد لاحظا عند ارتدادهما فى اتجاه بطليوس أن ألفونسو قد كف عن المطاردة فجأة ؛ وسرعان ماعلما كيف مال

(١) المفروض أن المؤلف يقصد هنا إلى معانى العبارات التى خاطب بها يوسف جنده فى ذلك الموقف ، وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية تصف هذا المنظر بما يأتى : « وكان أمير المسلمين على فرس أنثى يمر بين ساقات المسلمين يحرضهم ويقوى نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول : « يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة » ، فقاتل المسلمون فى ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب فى الموت (روض القرطاس ص ٩٥) .

النصر إلى جانب يوسف ، فجمعا قواتهما وهرولا إلى الميدان مرة أخرى ؛ وهكذا هوجم النصارى من الجانبين فى وقت واحد ، وهكذا حقت عليهم الهزيمة ولم يبق أمامهم إلا أن يقاتلوا قتال اليأس أو أن يركنوا إلى الفرار . على أن الظافرين فى يومهم لم يفكروا فى مسائهم إلا فى موت شريف وذلك بعد أن أفل طالعهم كل الأفول . ولما جن الليل وبسط الظلام حجابه على السهل الذى غطى بالجثث والدماء ، ركنت فلول ضئيلة من الجيش النصرانى إلى الفرار ، وهلكت البقية فى موت مجيد من أجل الوطن والدين .

وأصيب الملك ألفونسو من طعنة حربة بجرح شديد فى فخذه ، وكان يقاتل بشجاعة فائقة ويقود الصفوف بنفسه ؛ ولم يرد أن يعيش بعد الهزيمة ، ولم توجد قطرة ماء يروى بها الجريح عطشه المروع ، وأخيراً وقع بعضهم على قليل من النبيذ فسقوه للملك ؛ وقاده بالرغم منه زهاء خمسمائة فارس وحملوه معهم إلى ربوة عالية ، وانحدروا منها تحت جنح الظلام حتى مدينة قورية .

وتعرف الرواية العربية هذه الموقعة المزدوجة التى استمر لظاها فى يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م الموافق ١٢ رجب سنة ٤٧٩ ﻫ باسم واحد هو موقعة الزلاّقة[1] ، وهو اسم السهل الذى وقعت فيه ؛ وتسمى الرواية النصرانية الموقعة الأولى التى نشبت ضد أمير إشبيلية وداود ابن عائشة بموقعة « رودا » ، وتعرف الموقعة المروعة التى نشبت ضد يوسف بموقعة « ساكرالياس » . ويبدو من الإيجاز الذى يلتزمه الرواة النصارى إزاء هذا النصر العظيم للإسلام على النصرانية

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ موقعة الزلاقة ، فيقول ابن خلكان (نقلا عن البياسى) إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ ﻫ (ج ٢ ص ٤٨٤) ، ويتفق ابن الأثير معه فى السنة ولكنه يقول إنها كانت فى أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) ، ويقول المراكشى إنها كانت فى ١٣ رمضان سنة ٤٨٠ ﻫ (ص ٧٢) ، ويقول ابن خلدون إنها كانت سنة ٤٨١ ﻫ (ج ٦ ص ١٨٦) ؛ ولكن ورد فى روض القرطاس (ص ٩٦) وفى الحلل الموشية (ص ٤٠ — ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ ﻫ وهذا اليوم يوافق ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ، وهو التاريخ الذى تضمه الرواية النصرانية للموقعة ، وهى بذلك أصح الروايات ، راجع أيضاً دوزى (ج ٣ ص ١٢٩) والهوامش .

فى شبه الجزيرة مرة أخرى كيف يتناول المنهزمون سير هزائمهم فى غضاضة وإحجام ؛ وهذا الإيجاز والغموض اللذان أحاطا بالرواية النصرانية هو السبب فى كونها قد جعلت من الموقعة الواحدة موقعتين مختلفتين تبعاً للزمان والمكان .

والظاهر أن عدد القتلى فى الزلاقة كان فادحا جدا ، ويعترف النصارى أنفسهم بأنه قد سقطت منهم جموع عظيمة . على أنه يبدو من الإغراق ما تقصه الرواية العربية من أن عدد القتلى والأسرى من النصارى قد بلغ مائة وثمانين ألفاً . وأن ألفونسو لاذ بالنجاة إلى طليطلة فى مائة فارس فقط ، وأن المسلمين لم يفقدوا سوى ثلاثة آلاف مقاتل[1] ؛ بيد أنه من الواضح أن خسارة المسلمين لم تكن أقل بكثير من خسارة النصارى[2] .

وقضى المسلمون ليلتهم فى ساحة القتال فوق أكداس القتلى والجرحى ، وقد امتزجت أناشيد نصرهم بأنين المحتضرين وزفراتهم . فلما بزغ الفجر أدوا صلاة الصبح فى السهل الدامى ، ثم حشدوا جموع الأسرى وجمعوا الأسلاب والغنائم لقسمتها . وأعد يوسف من عمله الدامى لجيشه منظراً مدهشاً مروعا ؛ ذلك أنه أمر برؤوس القتلى من النصارى فجزت وصفت فى ساحة القتال على شكل أهرام ، ثم أمر فأذن للصلاة من فوق أحدها . وقد جمعت على هذا النحو عشرون ألف رأس ، وهو عدد يبدو بعيداً عن المبالغة . ولكن الذى تطبعه المبالغة هو ما يقوله بعض الرواة المسلمين من أن يوسف قد أرسل من هذه الرؤوس عشرة آلاف إلى إشبيلية ، ومثلها إلى قرطبة ، ومثلها إلى بلنسية ، وعشرة آلاف إلى سرقسطة ومرسية ؛ وأرسل أربعين ألف رأس لتوزيعها على مدن المغرب ؛

---

(١) هذه رواية صاحب روض القرطاس (ص ٩٦) .

(٢) راجع أقوال الرواية الإسلامية فى هذا الموطن فى روض القرطاس (ص ٩٧) ، وابن الأثير (ج ١٠ ص ٥٣) ، وابن خلكان (ج٢ ص ٤٨٤) ، والمراكشى (ص ٧٢) ؛ وأرجح الروايات فيما يظهر هو أن ملك قشتالة فر فى بضع مائة من جنده فقط قد يبلغون ثلاثمائة أو خمسمائة ، وهى متفقة مع أقوال الرواية النصرانية (راجع أيضاً أقوال صاحب الروض المعطار فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٥٣١) .

وذلك لكى تحتفظ جميع الحواضر بذكرى النصر العظيم[1] .

وذاع خبر هذه الموقعة الكبرى فى جميع الأقطار وأمر يوسف فكتب عنها بلاغ أرسل إلى إفريقية وقرئ فى المساجد فى جميع مدن المملكة ، وعقدت صلوات الشكر على جانبى المضيق فى إفريقية والأندلس ابتهاجا بإنقاذ الإسلام فى أسبانيا : وفاض قريض الشعراء فى الإشادة بمظاهر يوم الزلاقة ؛ ونظم المعتمد أمير إشبيلية الباسل — وقد أصيب فى الموقعة بستة جروح — فى الحال قصيدة يصف فيها الموقعة الرائعة كما شهدها[2] وكتب فى نفس المساء إلى ولده الرشيد فى إشبيلية يبشره بانتصار المسلمين وما أصاب النصارى من هزيمة ساحقة ، وحملت البشرى السارة حمامة كان قد حملها معه لإجراء المخابرة السريعة ، فطارت من بطليوس إلى إشبيلية فى بضع دقائق[3] وأمر الأمير فقرئت البشرى على الناس فى المسجد الجامع ، وعقدت صلوات الشكر وحفلات الابتهاج واقترنت بإضاءة المدينة وفقاً لتقاليد العصر ؛ وهكذا احتفل بالنصر فى إشبيلية وهى على مسيرة أيام من الزلاقة فى نفس الليلة قبل أن يغادر جيش المرابطين والأندلسيين ساحة الحرب الدامية . وقد ورد فى بعض الروايات العربية والنصرانية أن يوسف تلقب عقب انتصاره فى الزلاقة بأمير المؤمنين وهى رواية يشك فى صحتها ولا تتفق مع ما تقدم من أنه اتخذ هذا اللقب من قبل[4] .

---

(١) هذا هو ما تذكره الرواية العربية فى الواقع بنصه وتفصيله ، وخصوصاً صاحب روض القرطاس (ص ٩٦) ، وراجع أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١ . بيد أن هذه التفاصيل تحمل فيما يبدو طابع المبالغة ويقدم إلينا فى الحلل الموشية رواية أكثر اعتدالا (ص ٤٤) .

(٢) راجع شعر المعتمد بن عباد فى يوم الزلاقة فى قلائد العقيان (ص ١٣) .

(٣) أورد صاحب الروض المعطار مضمون كتاب ابن عباد إلى ولده الرشيد (أو نصه) عن نبأ النصر العظيم (راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١) ، وأشار ابن خلكان إلى قصة الحمامة التى حملت البشرى فى نفس اليوم (ج ٢ ص ٤٨٥) .

(٤) هذه هى رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس (ص ٨٨) ، ولكن سبق أن أشرنا إلى رواية ابن خلدون فى ذلك ، وأن يوسف بن تاشفين اكتفى بلقب أمير المسلمين ، وأنه كان ينضوى تحت لواء الدعوة العباسية ، وأن الخليفة العباسى أجابه إلى ما طلب من إقراره على ولاية المغرب ، وأرسل إليه بالعهد والخلع والتشاريف (ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨) .

وقد كان حريا أن تترتب على هذا النصر الباهر الذى أحرزه المرابطون نتائج عظيمة لو أحسن استغلاله ، وكان ألفونسو أقل همة وعزما مما أبدى ؛ وكما حدث عقب موقعة شريش الفرنتيرة من انهيار المملكة القوطية فى نحو عام ، فكذلك كان حريا أن تسحق المملكة النصرانية فى مثل هذا الوقت القصير لو أن الظافرين تابعوا سيرهم فى الحال ، كما فعل فاتحا الأندلس طارق وموسى ولم يتركا للنصارى وقت للنهوض من عثرتهم ؛ ولكن كان من حسن طالع أسبانيا النصرانية أنه لم يكن على رأسها يومئذ ملك ضعيف مثل لذريق (رودريك) بل كان على رأسها ملك بطل هو ألفونسو السادس . ولم تبعث المحنة يأسا إلى قلبه بل أخذ يجد فى حشد جيش جديد ، وعاونه فى ذلك ظرف موافق هو أن يوسف تلقى عقب فوزه من إفريقية نبأ بوفاة ولده أبى بكر سير الذى خلفه أثناء غيابه على حكومة مراكش ، فعجل قبل كل شىء بالعود إلى إفريقية . ولما كان فى نيته أن يعود إلى الأندلس بعد تدبير شؤون مراكش ليتابع فيها الحرب بنفسه ، فقد ولى أثناء غيابه قيادة الجيش المرابطى الذى فقد من جراء موقعة الزلاقة كثيرا من قوته قائده الشجاع سير بن أبى بكر ؛ ونفذ سير مع أمير بطليوس إلى أواسط البرتغال الحالية مما يلى نهر تاجه وأثخنا فى تلك الأنحاء تخريباً ونهباً ، وأسرا كل سكانها العزل ؛ وزحف المعتمد أمير إشبيلية فى قوة كبيرة من الفرسان على ولاية طليطلة واستولى على عدة مدن من بينها اقليش (أو اقليج) وقونقة ووبذى وغيرها ، ثم نفذ إلى أرض مرسية حيث كانت جموع كبيرة من الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور (الكمبيادور) تغير على المدن الإسلامية لحسابها الخاص ؛ وكانت قبل ذلك بقليل قد هاجمت صاحب المرية وضيقت عليه ، حتى أنه لم يستطع أن يرسل قواته لمعاونة جيش المرابطين قبل موقعة الزلاقة . وشمخ المعتمد بما أصاب من الظفر ، ولم يأبه لقوة الفرسان النصارى لكونها كانت تقل عن قوته عدداً ، فاشتبك معهم دون تحوط فى معركة خسر فيها ثمار ظفره الأخير ، واضطر أن يركن إلى الفرار وهو يضطرم سخطاً وغما ؛ ولم ينقذه من مطاردة أعدائه سوى

التجائه إلى قلعة لورقة لدى واليها صديقه محمد بن لبون ، ثم غادرها إلى قرطبة زيادة في التحوط لسلامته تاركا مرسية لمصيرها . أما الفرسان النصارى فقد انضمت إليهم قوة من القشتاليين أرسلها إليهم ألفونسو ، وأخذوا يهددون المدن الإسلامية في تلك الأنحاء ، خصوصاً وقد كان لهم في حصن لبيط (أليدو)[1] الواقع على مسيرة يوم من لورقة معقل أمين ؛ وكانوا ينطلقون منه فينقضون كالبرق الخاطف على الأراضي المجاورة ويمعنون فيها عيثاً وتخريباً .

وفي ذلك الحين استطاع ألفونسو بسرعة مدهشة أن يحشد جيشا آخر ، ووفد عليه سيل من الفرسان والمحاربين الفرنسيين والنورمانيين ؛ وكانت روح الفروسية المعاصرة التي اضطرمت بعدئذ بقليل في الحروب الصليبية قد دفعت إلى اسبانيا بآلاف من فرنسا ومن جهات الألب لتشد هنالك أزر النصرانية في معركتها ضد الإسلام .

ولم يمض عام حتى كان ملك قشتالة قد استعد لمحاربة أعدائه . وقد كان عندئذ أقوى منهم . ذلك أن الثغرة التي حدثت في صفوفهم من جراء خسائرهم في الزلاقة لم تعززها بعد جنود جديدة من إفريقية ، وقد سحب أمراء الأندلس قواتهم من الجيش العام حين عودتهم إلى أراضيهم . وتؤكد الرواية النصرانية أن ألفونسو خرج للغزو مرة أخرى في سنة ١٠٨٧ م ، وأنه وصل في غزوته إلى قرب إشبيلية . وسارت في الوقت نفسه قوة أخرى من القشتاليين بمؤازرة فرسان حصن لبيط فعاثت في ولاية مرسية . هذا بينما شغلت سرقسطة وبلنسية برد هجمات أمراء الأقاليم الجبلية فيما وراء البرنية .

ولم تك تجمع كلمة الأمراء الأندلسيين روابط الاتحاد القوية ، بل كانت تسودهم بالعكس عواطف الأثرة والحسد . وهكذا فقد كان المعتمد يرى أنه غدا بعد الحوادث الأخيرة أشدهم خسارة من حيث الهيبة ، لأن الأمراء الذين كانوا

---

(١) تسمى الرواية العربية حصن Alédo بحصن لبيط أو لبطيط ، (راجع معجم ياقوت ج ٧ ص ٣١٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٩ ، والاستقصاء ص ١١٩) ، ويسميها ابن الأثير بحصن ليط (ج ١٠ ص ٥٣) ، وكذلك المراكشي (ص ٧١) .

يخضعون له من قبل استردوا استقلالهم ، وكان يتطلع إلى استعادة سلطانه عليهم بل إلى تقويته وزيادته . وكان يعتمد فى تحقيق غايته على معاونة الجيش المرابطى ويحاول أن يوجهه فى سبيل مشاريعه . ومن ثم فقد سار إلى إفريقية لرؤية يوسف ابن تاشفين[1] ، وبسط له ما يسود الأمراء المسلمين من عوامل التفرق ، وكيف غدا قائد المرابطين فى الأندلس دون قوة ودون توقير ، ولم تتح بسبب ذلك فرصة للاستفادة من نصر يوم الزلاقة ، ثم طلب إليه نظرا لانتعاش قوى النصارى ، أن يعهد إليه بقيادة الجيوش المرابطية ، وأن يكل إليه تدبير شؤون الأندلس ؛ وشد ما كانت دهشة المعتمد حينما علم بأن يوسف بدلا من أن يجيبه إلى طلبه ، رأى لكى يعوض ما خسر الإسلام فى الزلاقة ويحقق له ظفرا جديدا ، أن يعبر فى جيش جديد إلى الأندلس وأن يتولى بنفسه تدبير كل شىء ، وهكذا عاد المعتمد إلى إشبيلية وهو عالم بهذا العزم .

وفى شهر يونيه سنة ١٠٨٨ الموافق شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ ، عبر يوسف بن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء بجيش ضخم ، وأعد المعتمد ما يجب لاستقباله ؛ وفى هذه الغزوة الثانية لأسبانيا رأى يوسف أن يسير من مالقة إلى مرسية حيث كان المسلمون يومئذ فى أشد المآزق من جراء غارات النصارى . وأمر يوسف جميع أمراء الأندلس أن يوافوه بقواتهم إلى إقليم مرسية عند حصن لبيط ليجتمعوا هنالك بجيش المرابطين ، نخف الأمراء إلى دعوته ، وفى مقدمتهم المعتمد وتميم بن بلكين والى مالقة وأخوه عبد الله بن بلكين والى غرناطة ، وولاة بياسة وجيان ولورقة ومرسية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم من الأمراء المستقلين لا من أتباع المعتمد . وظهر المعتصم أمير المرية بين فرسانه البيض فى ثوب مرابطى أسود فكان كما يصفه بعض الرواة العرب كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض . ومع أن المدافعين عن حصن لبيط من النصارى لم يزد عددهم على ألف فارس واثنى عشر ألفا من المشاة ، فإن القوى الإسلامية المتحدة لم توفق إلى

---

(١) سبق أن أشرنا إلى زيارة ابن عباد للمغرب وما ورد فيها من مختلف الأقوال .

الاستيلاء عليه بالرغم من جهودها وكثرتها وآلات الحصار التي لجأت إليها . وعاني المسلمون خسائر فادحة من انقضاض المحصورين عليهم بين آونة وأخرى . ورأى يوسف والمعتمد أخيرا عبث هذه المحاولة واعتزما أن يرفعا الحصار عن القلعة حتى لا يضيع الوقت في الحصار دون طائل ، وحتى لا يتمكن ألفونسو من المضي في أهبته . ولما أخطر المعتمد في المجلس الذي عقد لهذه الغاية أمراء الأندلس بهذا القرار ، اعترض عليه أولئك الذين تقع مدنهم وعمالاتهم في مرسية ، ورأوا فيه نوعا من الغدر بهم ، وثار أحدهم وهو عبد العزيز بن رشيق وهو من الولاة التابعين لإشبيلية ، حينما رماه المعتمد بأنه متحالف سرا مع ألفونسو ، وشهر على المعتمد سيفه ليبطش به . فأمر يوسف بالقبض عليه وسلم إلى المعتمد فشدد في اعتقاله . وكان لهذه الواقعة أكبر أثر في سير الحوادث . ذلك أن جند مرسية ما كادوا يقفون على ما وقع لأميرهم حتى اجتمعوا ساخطين ، وأبوا — رغم كل نصح — البقاء في محلة المرابطين ، وساروا بقيادة زعمائهم إلى حدود مرسية واعتصموا بشعب الجبال ، وعملوا على قطع المؤن عن الجيش المرابطي ، وسرعان ما حل به الضيق . هذا إلى أن بعض الولاة الآخرين الذين ضاقوا ذرعا بغطرسة المعتمد آثروا مغادرة الميدان .

وهكذا أنقذ حصن لبيط . ولكن ألفونسو رأى نظرا لموقع الحصن في قلب بلاد الأعداء أنه لا يمكن الدفاع عنه دون حامية كبيرة ، فأمر عندئذ بتقويض أسواره وإخلائه ممن بقي فيه من النصارى وكانوا مائة فارس وألف راجل هم البقية الباقية من ثلاثة عشر ألف مقاتل ؛ ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم ، وقد ظفر بإحباط خطط أعدائه (سنة ١٠٩٠ م — ٤٨٣ هـ)[١] .

---

(١) تتفق معظم هذه التفاصيل التي يوردها المؤرخ عن حصار حصن لبيط وما إليه من المعارك والوقائع مع ما أورده ابن زرع في روض القرطاس (ص ٩٩) ، وابن الخطيب في الحلل الموشية (ص ٤٩ و ٥٠) .

٢ — خضوع اسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين

كما أنه وجد بين النصارى وقت المحنة طائفة خانوا الوطن وتحالفوا عليه مع أعداء دينهم — ويذكر لنا التاريخ فى مقدمة هؤلاء الكونت جارسيا أردونز — فكذلك تمخضت ظروف الأندلس المضطربة عن هذه الحقيقة ، وهى أن ذوى السلطان — تسيرهم عوامل الأثرة — حاولوا توطيد سلطانهم بأى الوسائل ولو على حساب الإسلام ذاته . أجل كان المرابطون فى نظر الأمراء الأندلسيين أشد وطأة عليهم من النصارى ، ولم يتورع بعضهم عن التحالف سرا مع الملك ألفونسو أملا فى التمكن بمعونته من طرد أولئك الإفريقيين الذين استدعوهم بأنفسهم من قبل .

وقف سلطان المرابطين على جنوح الأمراء الأندلسيين إلى هذا الاتجاه من قائده سير بن أبى بكر الذى عهد إليه أثناء غيبته بقيادة الجيش فى أسبانيا ، فلم يلبث سوى قليل فى إفريقية ، ثم عاد إلى اسبانيا دون أن يستدعيه أحد من الأمراء وهو يعتزم هذه المرة أن يقضى بادئ ذى بدء على سلطان الأمراء الأندلسيين ، مؤملا أن يتمكن بعد ذلك من محاربة النصارى بنجاح وظفر .

وعبر يوسف إلى اسبانيا دون أن يقف على نيته أحد متظاهراً بأنه يعتزم محاربة النصارى بكل ما وسع ، وسير قواه الضخمة التى عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، إلى مختلف الأنحاء الداخلية . ولم يطلب هذه المرة من الأمراء المسلمين جنداً لمعونته ، ولم يعرضوا عليه هم معونتهم ، وقد كانوا يومئذ يرقبون حركات المرابطين جزعين أشد الجزع على سلامتهم . وسار يوسف على رأس جيشه العام إلى طليطلة ، وبعد أن عاث فيها ونفذ حتى ظاهر عاصمة قشتالة ، ارتد فجأة نحو الأندلس ، وسير فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن ، وسار بنفسه إلى مدينة غرناطة .

وكان يوسف أشد ما يكون ارتياباً فى أمير غرناطة عبد الله بن بلكين بن

باديس . وكان يتهم بالتحالف سرا مع ألفونسو ومعاونته بالمال . فلما اقترب المرابطون من المدينة تردد عبد الله بين إغلاقها فى وجوههم ، وبين الخروج إلى لقاء سلطان المرابطين واتقاء العاصفة الوشيكة باستقبال ودى . وكان واضحاً من حركات الجند القادمين أن يوسف لم يكن ينوى بالمدينة خيراً . وتختلف الروايات العربية فى كيفية استيلاء يوسف على غرناطة . ولكن أرجحها فيما يظهر هو أنه استولى عليها بطريق الحيلة والخديعة . ذلك أنه أخفى مقاصده واستقبله عبد الله بترحاب . وما كاد جنده يدخلون المدينة حتى أسر عبد الله وأرسل مع أهله سجيناً إلى أغمات بالقرب من مراكش[١] . وأذيع تطميناً لباقى الأمراء أن عبد الله نزل عن المدينة مختاراً وعوض عنها بأملاك واسعة فى إفريقية . وأرسل أميرا إشبيلية وبطليوس كل منهما سفيراً إلى غرناطة ينتحل لسفارته عذراً ، ولكنهما ذهبا فى الواقع ليستوضحا حقيقة الأمر فى شأن غرناطة فلقيا من يوسف كل إعراض ومهانة ، حتى أنه لم يقابلهما بنفسه ، فعادا إلى أميريهما يضطرمان جزعاً وسخطاً[٢] . وكانت حركات يوسف التالية تفصح بوضوح وجلاء إلى أى حد كان مصير عبد الله عبرة لباقى أمراء الأندلس . وقد أخفق يوسف فى القبض على أبى مروان عبيد الله عز الدولة ولد أمير المرية الذى أوفده والده إلى غرناطة لمثل المهمة التى قدم من أجلها سفيرا إشبيلية وبطليوس ، لأنه استطاع أن يفر متنكراً ولكنه قبض على تميم بن بلكين والى مالقة ، وبعث به سجيناً إلى إفريقية ليشاطر مصير أخيه عبد الله واستولى المرابطون على مدينته .

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى كيفية استيلاء المرابطين على غرناطة ، فالبعض يقول باستيلاء المرابطين عليها بطريق الغدر والحيلة (راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣) ، والبعض يقول بأنهم استولوا عليها عنوة ، (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧) ، وفى روض القرطاس أن يوسف استولى عليها بالأمان بعد أن حاصرها شهرين (ص ١٠٠) ، وفى الحلل الموشيه أن صاحب غرناطة هو الذى سلمها من تلقاء نفسه (ص ٥١) .

(٢) جاء فى الحلل الموشية أن المعتمد بن عباد والأفطس هما اللذان قصدا إلى غرناطة لرؤية يوسف وتهنئته فلقيا منه إعراضا (ص ٥١) .

ثم عبر يوسف إلى سبتة لكى يعجل إرسال الجند منها إلى الأندلس ، وترك قائده سير بن أبى بكر فى غرناطة على رأس الجيش المرابطى .

وسير يوسف إلى الأندلس أربعة جيوش فى وقت واحد ، كل منها تحت إمرة قائد خاص لتقاتل أمراء الأندلس ، ولتحول دون اجتماع قواهم فى أى مكان ولتقضى على سلطانهم بأسرع وقت . وتقرر أن تصوب الضربة الأولى إلى أقواهم وأشدهم بأساً ، وهو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرمونة واستجة وقرطبة وبقاع أخرى فى مرسية ، فيفضى سقوطه حتما إلى سقوط الآخرين . وتأهب المرابطون لذلك خير أهبة ، فسار إلى إشبيلية جيش بقيادة سير بن أبى بكر ليأخذها ، ثم ينقض بعدئذ على بطليوس . وزحف جيش ثان بقيادة أبى عبد الله ابن الحاج إلى قرطبة ، وكان واليها ولد المعتمد الفتح أبو ناصر (المأمون) ، وسار جيش ثالث بقيادة جرور اللمتونى إلى أرض رندة وفيها ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله . وزحف الجيش الرابع والأخير بقيادة أبى زكريا بن واسنو على المرية وفيها المعتصم بن صمادح صديق المعتمد الحميم ؛ وبقى يوسف فى سبتة على رأس جيش احتياطى لكى يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك[1] .

وكانت هذه الأهبة واضحة الدلالة فى كونها أعدت لسحق الأمراء الأندلسيين ، وذلك بالرغم من أن القواد المرابطين حاولوا نزولا على أمر يوسف ، إخفاء مقاصدهم العدائية مدى حين . وما كاد سير بن أبى بكر يجوز إلى أرض إشبيلية حتى ألفى المعتمد متأهباً لقتاله ، وكان قد لمح نذير العاصفة ، وبذا سقط قناع الصداقة ؛ وقاد المعتمد جنده لمقاتلة المرابطين فى الميدان بالرغم من تفوقهم عليه ؛ ومع أنه حرص على ألا يشتبك معهم فى معركة حاسمة فإنه اشتبك معهم فى عدة معارك صغيرة مؤملا بذلك أن ينهك قوى خصومه ، وأن يطاولهم مدى حين ؛ ولكن المرابطين كانوا فى وفرة من العدد وكانوا يقاتلون فى عدة أماكن ، فلم يفد المعتمد

---

(١) هذه التفاصيل فى توزيع الجيوش المرابطية تطابق ما ورد فى الحلل الموشية (ص ٥٢) .

إلا قليلا أو لم يفد شيئاً من كفاحه . وسارت قوة من المرابطين إلى جيان وانتزعتها عنوة ثم انضمت إلى الجيش الذى يقوده جرور ، وكان قد هزم أمام أسوار قرطبة . ولم يبق عندئذ فى وسع عاصمة الأندلس القديمة أن تصمد أمام هذا الجيش الزاخر ، ومن ثم فقد آثرت قرطبة أن تصغى إلى ما وعدت به من تأمين للنفس والمال إذا بادرت بالتسليم على دفاع مشكوك فى عواقبه ؛ ولكن جرور الإفريقى لم يعرف إزاء الأندلسيين قدس العهد ، كما لم يعرفه مواطنه هانيبال إزاء الرومان من قبل ، فقتل كثير من أهل قرطبة ، وأمعن الغزاة فيها نهباً وسلباً ؛ وكان بين القتلى ولد المعتمد الباسل فتح المأمون ، وكان فتى فى عنفوانه وكان معقد الآمال (صفر سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م) . وقتل فى نفس الوقت ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله والى رندة ، وكان مقتله عقب أخذها انتهاكا لكل ذمام وإنسانية بعد أن قطعت لتأمين حياته أوثق العهود .

وهكذا اقتصر سلطان المعتمد على مدينتين هما إشبيلية وقرمونة ؛ وكان المرابطون قد وصلوا فى زحفهم إلى مدن الحدود مما يلى ولاية طليطلة وأخذت سراياهم تهدد الأراضى النصرانية ؛ ثم حاصروا قلعة رباح واستولوا عليها ؛ وبذا فتحت أمامهم طريق قشتالة . فى تلك الآونة العصيبة استغاث أمير إشبيلية بألفونسو السادس ، ونسى ألفونسو عداءه القديم ، وعقد الخطر المشترك بينهما أواصر الصداقة ؛ ومن المحتمل أن يكون ألفونسو توثيقاً للروابط المشتركة قد تزوج عندئذ بسيدة ابنة المعتمد وهى التى تسمت بعد تنصرها باسم ماريا أو كما يقول البعض باسم البزابيث أو اتخذها حظية فى بلاطه[١] وقد كان بعض ملوك النصارى يقلدون أمراء المسلمين يومئذ فى اتخاذ الحظايا وكان ذلك مثار سخط رجال الدين .

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير (فى ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م) .

---

(١) سبق أن أوضحنا سقم هذه الرواية وسخفها ، والرواية الإسلامية لا تشير إليها بكلمة قط ؛ ولو صحت لأضيفت إلى ثبت التهم الشنيعة الأخرى التى تنسبها الروايات الخصيمة للمعتمد وهى لم تحجم عن اتهامه فى دينه ورميه بالإلحاد .

وكان يظن أنها لا تؤخذ لمنعتها ، فلم يبق أمام أمير إشبيلية إلا الاعتماد على أمداد النصارى . وقد سارت هذه الأمداد بقيادة الكونت جومز وعدتها أربعون ألف راجل وعشرون ألف فارس[1] ووصلت إلى مقربة من قرطبة وهنالك لقيهم قائد المرابطين إبراهيم بن إسحاق فى جنده الشجعان ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسارتهم الفادحة نصراً مبيناً ، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين ؛ وكانوا قد ضربوا حولها الحصار وكان سير بن أبى بكر يقود الجيش المحاصر . ولما وقف المعتمد على هزيمة النصارى غاض منه كل أمل فى رفع الحصار ، وتقول بعض الروايات إنه استمر فى المقاومة حتى أخذت المدينة عنوة ، وهو قول غير محتمل . والأرجح أنه سلم المدينة إلى المرابطين بعد أن قطعوا له عهداً بتأمينه وآله وشعبه فى النفس والمال ، وكان سقوطها فى رجب سنة ٤٨٤ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٠٩١ م[2] .

كانت خاتمة محمد بن عباد المعتمد مأساة أليمة ، وكانت عبرة لتقلب الدهر والجدود . ذلك أن الرجل الذى لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصاير أسبانيا ، والذى كان يحكم سواد النصف الجنوبى لشبه الجزيرة ، والذى يرجع الفضل إليه فى استيلاء ألفونسو على طليطلة ، والذى استدعى المرابطين إلى الأندلس ،

---

(١) تسمى الرواية الإسلامية قائد القشتاليين فى هذا الموطن « بالفرمش » ، وهو فيما يظهر تحريف لاسم « جومز » ، وتتفق مع الرواية النصرانية فى عدد النصارى (روض القرطاس ص ١٠٠) . ويقول دوزى إن قائد القشتاليين عندئذ كان « الفارفانيس » Alvar Fanes (وهو بالعربية البرهانس) معتمداً على الرواية النصرانية ، (راجع ج ٣ ص ١٤٩ والهامش) .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن المرابطين استولوا على إشبيلية عنوة ، وأن المعتمد بن عباد استمر فى المقاومة حتى آخر لحظة ، وتنوه كلها بفائق شجاعته وبسالته ، (راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ ، وابن خلكان ٢ ص ٤٠ و ٤١ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٧ ، والمراكشى ص ٧٧ ، ونفح الطيب ٢ ص ٤٥٣) . وللمعتمد نفسه شعر شهير فى هذه الموقعة يصف فيه كيف لقى أعداءه يوم الصراع الأخير ، راجع قلائد العقيان ص ٢١ و ٢٢ ، والمراكشى ص ٧٧) ، ويأخذ دوزى بهذه الرواية ويترجم شعر المعتمد (ج ٣ ص ١٤٩ و ١٥٠) ، وينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن المعتمد سلم المدينة بالأمان (ص ١٠١) ، ورددها ابن الأثير فقط (ج ١٠ ص ٦٥) .

اختتم حياته الباهرة فى غمر البؤس والحزن وظلام السجن . ولما أخذت إشبيلية قبض عليه وعلى نسائه وأبنائه وبناته ، وقد كان له من الولد نحو مائة ، وأرسلوا إلى إفريقية . ولما سارت السفين التى حملوا عليها ضجوا بالبكاء والنحيب فى مناظر لا توصف حينما رأوا مشارف « القصر » البديع ومنائر المساجد تغيض أمامهم كما تغيض ذكريات حلم مجد ذاهب ؛ وعامل يوسف الأسرة المنكودة دون أية مراعاة أو تقدير لسابق حالها ، فنقل المعتمد إلى أغمات على مقربة من مراكش ، وأتى به إلى غيابة سجن مروع ، ليلقى فيه موت الشهيد ببطء ؛ وهنالك فى البرج الذى زج إليه مع أسرته ، رأى المعتمد وقلبه يذوب حسرة ووجدا زوجته النابهة البارعة اعتمادا الرمكية تموت غما لما أصاب زوجها من محنة وبؤس وأسى . وحملت الفاقة بنات المعتمد على أن يشتغلن بالغزل وهن فى ثياب خلقة ، لكى يَمُلْن والدهن وكان منظرهن يذكى فى قلوب المنكودين جذوة الأسى والشجن ؛ ومع ذلك فإن المعتمد لم يطأطئ الرأس تحت غمر المحنة والبؤس ولم ينس مجده الذاهب ، بل عرف بالرغم من ثيابه الخلقة أن يحتفظ بهيبة الجلال السابق وخلاله ، فكان يشع منه الجلال كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق بها الغمام القاتم ؛ وكان عزاؤه الوحيد أو غذاؤه الروحى فى محنته ، نظم القريض الذى لم يفارقه شغفه قط . وقد بلغ من شغفه به أنه وهو فى طريقه إلى الاعتقال وهب الشاعر أبا الحسن الحصرى ستة وثلاثين مثقالاً لقصيدة قالها فى مديحه ، فكانت آخر ما استطاع أن يبذل من الصلات الملوكية[1] وقد أكثر من رثاء محنته ؛ وذاعت قصائده الرثائية لروعتها أعظم ذيوع ، حتى كان يحفظها كل إنسان ؛ ثم جاء الموت فأنقذه من أغلاله بعد أن عانى فى معتقله أربعة أعوام (سنة ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م) وحكم المعتمد وهو آخر أمراء بنى عباد إشبيلية ثلاثة وعشرين عاماً ؛ وتفرق أبناؤه بعد وفاته فى أنحاء إفريقية يغمرهم البؤس الطاحن ، ولا يقدم إلينا التاريخ من ذلك الحين عنهم أو عن عقبهم شيئا[2] .

---

(١) راجع المراكشى ص ٨٥ .

(٢) كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة مروعة مؤثرة ، وما زالت محنة هذا الأمير =

وفى نفس الوقت الذى سقطت فيه إشبيلية افتتح المرابطون ثغر المرية بإمرة قائدهم داود ابن عائشة الذى امتاز وحده بين المرابطين بالإنسانية وحفظ العهد ، وكان يحكم المرية يومئذ أبو يحيى محمد بن صمادح التجيبى الملقب بالمعتصم والواثق بالله — وأصله من وشقة — وولده معز الدولة . وكان منذ أربعين عاما قوام حكومة رشيدة عادلة يغمرها الشعب بحبه وتقديره . وقد اشتهر فى جميع أنحاء الجزيرة بمحبته للعلوم والفنون والآداب ، وكان ينافس فى هذا المضمار أعظم العلماء والشعراء والأمراء فى عصره . وأما فى الحرب فقد كان حتى بالنسبة لأعدائه الذين يقعون فى قبضته يفيض إنسانية ورحمة . ومن ثم فقد أبدى أهل الأندلس بل أبدى النصارى أنفسهم كثيرا من العطف والأسف حينما زحف المرابطون على المرية وأنزلوا بالمعتصم ما أنزلوا بصديقه المعتمد . ومع أن المعتصم كان عضد المرابطين فى كل فرصة ومناسبة وخصوصا فى حصار حصن لبيط ، حيث ارتدى رداء المرابطين الأسود فإنه لم يستطع مجانبة المصير الذى قضى به يوسف على جميع الأمراء الأندلسيين دون استثناء . فحوصرت المرية من البر والبحر أحكم حصار وأشده . ولم ير الأمير الشيخ أمامه رجاء فى الغوث ولم ير سوى شبح الأسر والمهانة فتوفى أسى وغما أو توفى مسموما[1] ، فخلفه فى الحال ولده

= الشاعر تحتفظ إلى يومنا بالرغم من كرّ العصور بكثير من ألوانها الوشية المشجية ، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف والتأثر بنوع خاص فى روايات مؤرخى الأندلس والمشرق ، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ، ويصمه بأقسى الصفات (مثال ذلك ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥) ، وأذكت محنة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر ، فنظم المعتمد فى رثاء نفسه ، ونظم أكابر الشعراء فى عصره جملة من القصائد الرائعة المؤثرة التى ما زالت تحتفظ إلى اليوم بكل روعتها وحياتها . وقد أسبغت قسوة يوسف نحو المعتمد ونحو باقى أمراء الأندلس على سيرته وعلى خلاله سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله . راجع فى سيرة المعتمد ومحنته وقصائد رثائه ، قلائد العقيان (ص ٤ وما بعدها) ، والمراكشى (ص ٧٦ — ٨٩) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٣٦ — ٤٥) ، ونفح الطيب (ج ٢ ص ٤٥١ وما بعدها) .

(١) راجع فى ترجمة المعتصم ووفاته ابن خلكان ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٢ وما بعدها ، والمراكشى ص ٧٣ و ٧٤ ، وقلائد العقيان ص ٤٧ وما بعدها .

أحمد أبو مروان معز الدولة ، وكان يشاطره أعباء الحكم أثناء حياته . (وذلك فى ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ) . بيد أن حكمه لم يطل سوى شهر واحد . ذلك أنه لما وقف على سقوط إشبيلية ولم يبق له أمل فى الإنقاذ ، واشتد به الضيق والجوع من جراء الحصار أخذ يفاوض فى تسليم المدينة ، ومع أنه لم يثق بوعود المرابطين لما كان يعلمه من مواقف غدرهم ، فإنه استطاع أن يحقق ما قصده بالمفاوضة وهو حمل العدو على تخفيف وطأة الحصار من ناحية البحر . وانتهز الفرصة السانحة ففر مع أسرته وأمواله فى سفين سارت به إلى شمال شرقى إفريقية [٢] ، ولم تمض أيام قلائل حتى استولى المرابطون على المرية دون مقاومة ، واستولوا فى الوقت نفسه على جميع المدن والحصون التابعة لها . وهكذا افتتح المرابطون ولايات الأندلس كلها — غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية — فى وقت قصير لم يجاوز ثمانية عشر شهرا .

ولم يمهل داود ابن عائشة جنــده بل سار توا إلى ولاية مرسية حتى لا يترك للأندلسيين فرصة للاحتشاد ضد المرابطين ، وزحف على دانية وشاطبة واستولى عليهما وأخذ يهدد مربيطر وبلنسية وشنتمرية الشرق (البراسين) . ومع أن أمراء هذه النواحى قد اتحدوا جميعا وتوثق حلفهم ، ومع أنهم قاوموا من مدنهم الحصينة أشد مقاومة ، وعاونهم النصارى مرارا ولاسيما السـيد الكنبيطور وفرسانه ، فإن ذلك لم يغنهم شيئا أمام طالع المرابطين وأمام تفوقهم ، وسقطت هذه المدن فى يد المرابطين واحدة بعد الأخرى . وانتهت بسقوط بلنسية عاصمة الولاية ، وكان بهـا الأمير يحيى بن ذى النون القادر يتولى الدفاع عنها . وبالرغم من أنه كان ينضوى تحت حماية ملك قشتالة ، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة من النصارى وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر ، فإن الدفاع لم يطل أمده ، ووقعت خيانة عجلت بسقوط القلعة ، كذلك غادر النصارى المدينـة

---

(١) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٤ — ١٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٠١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

حينما رأوا استحالة الاحتفاظ بها وشقوا لهم بين الأعداء طريقا ، وفتحت أبواب المدينة للمرابطين بطريق الخيانة على يد القاضي أحمد بن جحاف المعافرى ، فاقتحموها شاهرى السيوف وهم يقتلون كل من لقوا فى طريقهم ؟ وهنا تختلف الرواية العربية فى مصير القادر فيقول البعض إنه سقط عندئذ بين جنده مدافعا ، ويقول البعض إنه قتل قبل ذلك بقليل فى هجوم قام به خارج المدينة ، ويقول آخرون إن ولده وسميه القادر هو الذى كان يدافع عن أنقاض ملك بنى ذى النون ، وأنه قتل وقت سقوط المدينة فى المقتلة العامة . وعلى أى حال فإن المحقق هو أن سلطان بنى ذى النون الذى سطع من قبل فى طليطلة ، ثم استقر بعد ذلك فى بلنسية لقى يومئذ مصرعه وخاتمته (سنة ٤٨٥ هـ — ١٠٩٢ م) ، واختار المرابطون القاضى الخائن أحمد بن جحاف واليا لبلنسية [١].

وبينما كان داود ابن عائشة يفتتح شرق اسبانيا ، كان سير بن أبى بكر يقتحم « الغرب » ظافراً ، فبعد أن استولى على إشبيلية زحف على ولاية بطليوس وأميرها يومئذ محمد بن الأفطس الملقب بالمتوكل ، واستولى على شلب ويابرة بعد مقاومة قصيرة . وسرعان ما ظهر فى مروج بطليوس — وقد كانت ما تزال غاصة بعظام النصارى الذين سقطوا فى الزلاقة وتركوا فى العراء — جيش من المرابطين ، بيد أنه لم يقدم كما قدم من قبل لغوث مسلمى الأندلس ، بل كان عندئذ أشد خطراً عليهم من أعدائهم النصارى .

وكان الأمير المتوكل وأولاده يقاتلون على رأس جندهم بشجاعة فائقة لكن ذلك لم يغنهم شيئاً . ذلك أن الشعب كانت تروعه نبوءة خلاصتها أن الأمراء الأندلسيين يقهرهم فاتح من إفريقية ، ومن ثم فقد انحاز إلى المرابطين مؤثراً ألا يناهض القدر بمعركة لا خير فيها ، بل لقد كان الشعب عامة يؤثر تغيير الحكومة فى بعض الحواضر نظراً لأن نفقات البلاط فى الممالك الصغيرة كانت حقا تعاون فى نمو التجارة ولكنها كانت تزيد فى المكوس زيادة كبيرة . كذلك لم يكن ثمة

(١) راجع الحلة السيراء ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ .

أمل فى دفع عادية النصارى نظراً لما انتهى إليه الأمراء من التفرق والانحلال . هذا فضلا عن أن يوسف بن تاشفين كان يخص الأمراء وحدهم بقسوته . وقد استطاع أن يجد الوسيلة لكى يفرق بين الشعب وبين حكامه بسرعة . ذلك أن التناقض بين مصلحة الشعب والأمراء كان واضحاً ، فقد كان الشعب يطلب الاتحاد وكان الأمراء يؤثرون التفرق والخلاف .

ولما هزم جند « الغرب » فى المعركة التى نشبت وأسر الفضل والعباس ولدا المتوكل لم يبق أمام الفاتحين سوى بطليوس التى امتنع بها أميرها ؛ وكان المتوكل يعتزم الدفاع عنها غاية جهده ، ولكن أهلها لم يشاطروه هذا الرأى وحملوه على أن يفاوض المرابطين فى تسليمها . وهنا أيضاً يبدو غدر المرابطين فى أشنع مظاهره ؛ ذلك أن قائد المرابطين سير بن أبى بكر قطع على نفسه العهد بأن يترك الأمير وآله أحراراً فى الخروج بأموالهم ومتاعهم إلى حيث شاءوا (إلى أراضى النصارى فيما يظهر) . ولكن هذا العهد انتهك انتهاكا صارخاً ، فما كاد المتوكل يغادر المدينة مع آله ويحتلها سير بجنده ، حتى أرسل الأمير فى طلبه سرية من الفرسان فأدركته وأسرته ؛ وبعد أن جلد المتوكل وولداه بالسياط ، وبعد أن بلغت القسوة ذروتها بقتل الفضل والعباس أمام عينى والدهما المحزون ، أخذ المتوكل وقطعت رأسه . أما ولده الأصغر نعيم الدولة والى شنترين فقد أسر وزج إلى اعتقال طويل الأمد . وهكذا انتهى سلطان بنى الأفطس فى بطليوس فى شهر صفر سنة ٤٨٧ هـ الموافق أوائل مارس سنة ١٠٩٤ [١] .

وقد نظم أعيان شعراء العصر فى مصرع عمر وآله كثيراً من المراثى المؤثرة وفيها ينعون تقلب الجدود فى هذه الدنيا حسبما يصوره مصير بنى الأفطس ، وكان أبدعها جميعاً مرثية عبد المجيد بن عبدون وزير الأمير القتيل [٢] ، ولم يكن عمر

---

(١) راجع فى أخبار المتوكل وخلاله ومحنته المراكشى ص ٤١ وما بعدها ، وقلائد العقيان ص ٣٦ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ .

(٢) راجع مرثية ابن عبدون المشار إليها فى المراكشى ص ٤٢ — ٤٦ .

المتوكل عالماً كبيراً ونصيراً عظيما للعلوم وشاعراً مجيداً فحسب ، ولكنه كان أيضاً يشغف بقضاء معظم أوقاته فى مجالسة العلماء والشعراء ويترك فى معظم الأحيان ما عداها من الشؤون . وكان معظم وزرائه من أكابر العلماء ، ومن ثم كان طبيعيا أن تعتبر دولة التفكير والثقافة موته خسارة فادحة للعلوم والفنون .

وفى نفس الوقت الذى سقطت فيه بطليوس افتتحت سفن المرابطين الجزائر الشرقية (البليار) ، وكان واليها يومئذ من بنى شهيد أتباع أمراء بلنسية ودانية من قبل فلم يستطع لضعفه أية مقاومة ، وهكذا سقطت أسبانيا المسلمة كلها ما عدا ولاية سرقسطة فى يد المرابطين فى النصف الأول من سنة ١٠٩٤ م — ٤٨٧ هـ .

٣ — ولاية سرقسطة

كان أبو جعفر أحمد بن هود المستعين بالله هو الذى استطاع وحده من أمراء الأندلس أن يفيد من نجدة المرابطين دون أن يفقد من جرائها سلطانه . ذلك أن سرقسطة التى كان يحاصرها جنود ألفونسو السادس حين عبور يوسف بن تاشفين الأول إلى أسبانيا ، أنقذت من الحصار عندئذ . ولما هزم النصارى فى موقعة الزلاقة عاد سلطان بنى هود فتوطد فى أنحاء سرقسطة ولاردة وربشتر ووشقة ، وطرطوشة ، وقلعة أيوب ، وتطيلة ، وأفراغة ، وقلعة دروقة ، ومدينة سالم ، ووادى الحجارة ، وما إليها من الأراضى . ولكن سرعان ما عادت السحب والعواصف تحدق كرة أخرى بمدن الحدود فى ولاية سرقسطة . ذلك أن الملك سانشو راميرز (ابن رذمير) صاحب أراجون الذى استطاع كما قدمنا أن يقوى نفسه بالاستيلاء على جزء من نافارا (بلاد البشكنس) وباستقدام عدة كبيرة من المرتزقة الفرنسيين ، سار غازياً من الجبال البرينية إلى نهر الأيبرو (أبرة) وقد قيل إن الفارس الأسبانى السيد الكنبيطور (السد الكمبيادور) الذى نفاه سيده ملك قشتالة كان يحارب يومئذ إلى جانب أمير سرقسطة ضد إخوانه فى الدين ويعرقل ظفرهم ؛ بيد أنه ليس من الميسور أن نتحقق من صحة هذه الرواية نظرا لأن تاريخ السيد كما

انتهى إلينا من الروايات والقصص النصرانية فياض بالأساطير والخرافات(١) ، وسار جيش سانشو وقوامه زهاء عشرين ألف مقاتل فالتقى فى ظاهر وشقة بجيش المستعين وهو فى مثل عدده تقريبا ، واجتمع النصارى للقتال على نفخ القرون والمزمار ، واجتمع المسلمون على قرع الطبول ، ودار القتال سجالا مدى حين ، ولكن الفرسان النصارى استطاعوا فى النهاية فى فيض من الشجاعة والحماسة هزيمة المسلمين المتعبين وإرغامهم على الفرار . ولجأ الجيش المنهزم إلى قلعة وشقة ، وأنقذ بذلك من سحق شامل . وفى الحال نصب النصارى آلات الحصار حول وشقة ، ولكن المدينة المحصورة استطاعت نظرا لمنعتها الطبيعية والفنية ، أن تقاومهم بشدة ؛ وعانى الجيش المحاصر خسائر فادحة من جراء انقضاض المحصورين عليه بين آونة وأخرى . ولما رأى المستعين بن هود أن النصارى مضوا فى سيرهم المظفر واستولوا على أفراغه ، وشددوا الحصار على وشقة خبت شجاعته ، وأيقن أنه لا يستطيع الوقوف أمام هذا السيل دون معاونة من الخارج . ولكنه بعد أن اتجه فى البداية نحو ألفونسو ملك قشتالة ، وقد كان ينظر إلى فتوح سانشو بعين الحسد ، ووعده بأن يقوم بدفع الجزية نظير حمايته من اعتداء أراجون ، عاد فنبذ هذا الميثاق إذ رأى ألفونسو نفسه يواجه خطر المرابطين وليس فى وسعه أن يحول جيوشه ضد أراجون ؛ هذا إلى أن المستعين كان يؤمل بعد وفاة ملك أراجون أن تميل كفة النصر إلى جانبه ؛ ذلك أن سانشو راميرز ركب ذات يوم لرؤية قلعة وشقة التى حالت مناعة موقعها دون سقوطها وأمر جنده بمهاجمتها من نقطة لاح له أنها أقل مناعة من غيرها . ولكن المسلمين خرجوا فى الوقت نفسه لمهاجمة النصارى وأصيب ملك أراجون خلال المعركة بجرح مميت من جراء سهم أصابه . فاستدعى فى الحال كبراء جيشه مؤثراً أن يفكر فى مصير مملكته على تفكيره فى نفسه . وبعد أن طلب إليهم أن يقطعوا عهد الولاء والطاعة لولده

---

(١) تؤيد الرواية الإسلامية استخدام بنى هود للسيد الكنبيطور فى حروبهم ضد خصومهم من المسلمين أو النصارى ، وقد أشار ابن بسام فى الذخيرة إلى ذلك بشىء من التفصيل ، ونقل دوزى هذه النبذة بنصها العربى فى كتابه عن « السيد » .

الأكبر الدون بيدرو ، طلب إلى ولده أن يقطع العهد على نفسه بأن يمضى فى حصار وشقة حتى سقوطها ، وقطع ولده الثانى ألفونسو أمامه مثل هذا العهد . ولما اطمأن إلى مصير الحصار صارح الحضور بأنه يشعر بدنو أجله ، ثم انتزع السهم من جرحه ومات وهو موقن بأنه قاد شعبه إلى الظفر كما مات إبا منونداس زعيم طيبة (٦ يوليه سنة ١٠٩٣)[1] .

ولبث المستعين بن هود حيناً يساوره التردد وهو يرى جيوش النصارى تشدد الضغط عليه ، وتروعه فتوح المرابطين فى جنوبى اسبانيا وفى شرقيها . على أنه اضطر أن يعتزم أمره ، وقد آثر أخيرا محالفة إخوانه فى الدين ، أعنى المرابطين ، وكانوا يومئذ قد افتتحوا بلنسية والجزائر الشرقية ؛ وقد كان حريا بيوسف بن تاشفين نفسه أن يدرك أن أمير سرقسطة نظراً لاعتماده على وعورة أرضه ، ومنعة قلاعه ، وإخلاص رعاياه ، يستطيع إذا ما هاجم أرضه مهاجم أن يعقد الحلف مع النصارى ، ومن ثم فقد رأى يوسف أن يستجيب إلى ما عرضه المستعين ، من أن يعقد معه محالفة دفاعية ؛ وأرسل المستعين وقد كان يحرز بتجارته مع مصر والشأم ثروات طائلة ، إلى المغرب تحفاً وهدايا جليلة ، كان فى وسع يوسف أن يعتبرها بمثابة الجزية ودليل الطاعة ، كما أرسل ولده عماد الدولة عبد الملك إلى مراكش ليعقد التحالف المنشود[2] ، واستطاع عبدالملك بحسن سعيه وتصويره للخطر الذى تتعرض إليه وشقة أن يحمل يوسف على أن يمد حليفه الجديد بستة آلاف راجل وألف فارس من المرابطين كنجدة أولى مع الوعد بإرسال نجدات أخرى أوفر عدداً ، وإخطار ولاة دانية وشاطبة والسهلة ، (شنتمرية الشرق) بالمبادرة إلى غوث المستعين . على أنه بالرغم من هذه القوى الضخمة التى انضم إليها أيضاً الكونت جارسيا أردونز فى جنده ، وقد كان إلى جانب المرابطين من قبل ؛

---

(١) هو من زعماء اليونان القديمة وقادتها ، قاد بلده طيبة إلى النصر مرارا ، وتوفى قتيلا فى معركة مانتينا سنة ٣٦٢ ق . م التى ظفرت فيها طيبة بالرغم من مقتله .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارة وفى أحوال المستعين الحلل الموشية ص ٥٣ — ٥٥ ، والحلة السيراء ص ٢٢٥ .

وبالرغم من أن المستعين استطاع فيما يظهر أن يقوم ببعض الفتوح فى البداية فإن قوى المسلمين لم تستطع أن تناهض جيش النصارى الذى يقوده الدون بيدرو ملك أراجون . ورفع الدون بيدرو حصار وشقة ، وسار إلى لقاء المسلمين وهزمهم هزيمة حاسمة فى « الكرازة » ؛ وعلى أثر ذلك سقطت وشقة فى يد النصارى (أواخر سنة ١٠٩٦ م)[١] واتخذ ملك أراجون مقامه فى وشقة ، وصير مسجدها الجامع فى الحال كنيسة تلا فيها الأرجونيون أدعية الشكر لربهم لما أولاهم من نصر باهر فى « الكرازة » ، ونسبوا الفضل إلى حاميهم القديس جورج . وعندئذ فقط دفن الملك القتيل سانشو ، وكان ابنه بيدرو قد آثر أن يقوم بهذا الواجب البنوى بعد الاستيلاء على وشقة وفاء للعهد الذى قطع .

وكان لسقوط وشقة بالنسبة لشمال شرق اسبانيا ، أعنى بالنسبة لأراجون من الأهمية مثلما كان لسقوط طليطلة قبل ذلك بأحد عشر عاماً بالنسبة لقشتالة . ذلك أنه ترتب على ذلك سقوط هذين المعقلين المنيعين لسلطان الإسلام فى اسبانيا أن فُتح طريق الأرجونيين إلى سرقسطة ، كما فتح طريق القشتاليين إلى الأندلس . بيد أن الفتوح التى كان واجباً أن تتم عقب الاستيلاء على هذين الحصنين المنيعين أرجئت إلى حين لما بذله المسلمون من عظيم جهد فى الدفاع ، ولما أصاب الأمراء النصارى من عوامل التفرق والخلاف .

وثمة معقل هام ثالث يمكن أن يهدد منه جميع الشاطئ الشرقى لأسبانيا المسلمة ، على أن افتتاحه لم يكن إلا ظفراً خلباً[٢] . هذا فضلا عن أنه لم يترتب عليه ما كان متوقعاً من الآمال الكبيرة . وليس من المستطاع أن نتحقق مما انتهى إلينا فى شأن هذا الفتح من الروايات النصرانية والعربية ما إذا كان قد وقع قبل سقوط وشقة أو بعده . فإذا كان الدون بيدرو قد افتتح وشقة سنة ١٠٩٤ م كما

(١) يشير ابن خلدون إلى هذه الموقعة بأنها موقعة وشقة ، ويضع تاريخها سنة ٤٨٩ هـ — ١٠٩٦ م (ج ٤ ص ١٦٣) .

(٢) يريد المؤلف هنا افتتاح بلنسية .

يقول البعض ، فمن الواضح أن استيلاء « السيد » على بلنسية كان بعد هذا التاريخ . بيد أنه يوجد لدينا من الأسباب القوية ما يحمل على الاعتقاد بأن افتتاح وشقة كان فى أواخر سنة ١٠٩٦ م ، ومن ثم فإن بلنسية تكون قد سقطت قبل ذلك فى يد النصارى ، والظاهر أن سقوطها كان فى النصف الأخير من سنة ١٠٩٤ م .

٤ — فتح السيد لبلنسية

لم يقع فتح بلنسية على يد أحد من أمراء أسبانيا النصرانية ، ولكنه وقع على يد فارس جعل منه الشعب الأسبانى بطله الأمثل . ذلك هو الكونت رودريجو دياز دى بيفار ، المعروف بالسيد الكمبيادور (السيد الكنبيطور) . وإذا كان البحث التاريخى المحقق لأعمال السيد قبل هذا الفتح يقضى بوضعها فى عداد القصص الشعرى ، وأن معظمها يناقض المصادر التاريخية ، فإنه يبقى لبطل أسبانيا عمله الباهر ، أعنى فتح بلنسية دون نزاع .

وترجع سيرة السيد وأعماله الأولى — حتى مع التسليم بأن الشعر والروايات المنمقة اللاحقة تقص الحقيقة ، فى معظمها — إلى الحياة الخاصة أكثر مما ترجع إلى تاريخ أسبانيا العام . بيد أن ما يروى من أعماله فى الأندلس مثل قتاله إلى جانب إشبيلية ضد غرناطة ، ومعاونته لمسلمى سرقسطة ضد كونت برشلونة ، والملك سانشو راميرز وبيدرو ملك أراجون والأغلب صاحب دانية ، يناقض المصادر التاريخية فى كثير من الأحيان ، ويحيط به كثير من الريب ، ومن ثم فإنه يحسن أن نعرضه فى فصل خاص .

كان ذلك فى أواخر حكم فرديناند حينما ظهر رودريجو ولد دياجو أو (دياز) لأول مرة فى المعارك التى نشبت ضد الأرجونيين والمسلمين . ولما قسم فرديناند مملكته بين أولاده الثلاثة ، انتظم الكونت رودريجو بين أكابر قشتالة وانضوى تحت لواء سانشو فقدمه على جميع الفرسان الآخرين وعينه قائداً لجيشه . وخاض

رودريجو جميع الحروب التى شهرها سانشو على أخويه وعاون فى كسبها ، وطُرد الأخوان من أرضهما ، والظاهر أنه أطلق عليه يومئذ لقب الكمبيادور Campeador أو الكمبيدكتوس Campidoctus أعنى « القائد الكبير »[١] .

ولما سقط سانشو صريع الغيلة أمام أسوار سمورة (زامورا) واستولى أخوه ألفونسو الذى كان يعيش منفيا فى «طليطلة» على جميع مملكة أبيه ، أبى القشتاليون أن يعترفوا به ملكا عليهم حتى يقسم بأنه برىء من كل تبعة فى مقتل سانشو ، ولم يجرأ أحد من أكابر قشتالة على أن يلقن صيغة اليمين للملك إلا الكونت رودريجو ، فقد تقدم لأداء المهمة ، ولقن الملك صيغة اليمين مرتين ؛ وإلى هذا السبب يُنسب غضب ألفونسو المستمر على الكمبيادور ، وكونه كان يقبل على سماع وشايات خصومه .

والظاهر أن المصادر العربية تلقى ضوءاً على القول بأن الملك ألفونسو أرسل رودريجو إلى إشبيلية سفيراً إلى المعتمد لابن عباد[٢] . بيد أن التاريخ الذى تنسب إليه هذه الواقعة هو نفس التاريخ الذى تقول الرواية النصرانية إن رودريجو نفى فيه من قشتالة . أما لماذا نفى الفارس ، وأين كان يقيم أثناء نفيه الطويل ، وهل قاتل حقا فى ذلك الحين إلى جانب أمير سرقسطة ضد برشلونة وأراجون ودانية ، ومتى عاد إلى قشتالة ؛ ثم لماذا نفى للمرة الثانية والثالثة من وطنه ؛ وهل حارب عندئذ إلى جانب كونت برشلونة ؛ وماذا فعل ضد المسلمين فى بلنسية ودانية : فهذه كلها أمور تقصر سير حياته عن إيضاحها بصورة كافية ، متى قورنت بالمصادر التاريخية . بيد أن شيئاً واحداً يبدو محققاً هو أن رودريجو كان رجلا وافر

---

(١) تسمى الرواية العربية السيد الكمبيادور Cid il Campeador رذريق الكنبيطور أو القنبيطور . وتقول لنا إن الكنبيطور معناها صاحب الفحص (راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥) .

(٢) كان سفير ألفونسو إلى المعتمد حسبما بينا فيما تقدم هو قائده الفارفانيس المعروف فى الرواية العربية بالبرهانس . ولكن المؤلف لم يفطن إلى هذه المطابقة فى الاسم ، وظن أن البرهانس أو « البرهان » إنما هو شخص آخر ، وسنرى فيما بعد أنه يعتقد خطأ أنه هو الاسم الذى تطلقه الرواية العربية على « السد » .

الكبرياء والصلف يؤثر أن يخوض الحرب لحسابه على أن يخوضها تحت إمرة مليكه الذى لم يكن يحاسنه ولم يرتح إليه ؛ فغادر قشتالة مختاراً . ولما كان قائداً مبرزاً ، وفارساً بارعاً ، ذائع الصيت فى جميع أسبانيا ، فقد اجتمع تحت لوائه أولئك الذين يقودهم إلى السلب والفتح ، وكل من شغفه حب القتال من النصارى أو المسلمين ؛ ومن أحرز قصب السبق فى إثابة الفارس ومكافأته ظفر بعونه وعون عصبته . ويستوى فى ذلك أن يكون الطلب من أمير نصرانى أو أمير مسلم . وقد قدم الأمراء الذين يحكمون فيما بين الأيبرو والبرنيه أنفسهم أمثلة من ذلك ؛ فليس غريباً أن يتقدم فارس مبعد من وطنه على رأس سرية من الشجعان لبيع معونته دون تفريق بين أمير نصرانى وأمير مسلم . ولقد خلقت العلائق التى كانت تربط الشعب الأسبانى فى هذا العصر — بالرغم مما كان يسوده من تعصب دينى فى هذا المقام — نوعاً من التغاضى عن الاعتبارات الدينية ، ما دام الأمر يتعلق بتحقيق السلطان والمجد والتوسع . وقد كان ثمة « كمبيادور » آخر خصم للكونت رودريجو هو الكونت جارسيا أردونز الذى تقع أراضيه فى أعالى الأيبرو ، وقد باع فرسانه للمرابطين وحارب معهم ضد النصارى . ولما حاصر الملك بيدرو وشقة بعد ذلك جاء الكونت جارسيا أردونز موفداً من قبل المرابطين لمعاونة أمير سرقسطة ؛ بل يلوح أيضاً أنه حارب ضد الكونت رودريجو نفسه .

وقاتل رودريجو فى جنده النصارى والمسلمين مراراً فى شرق أسبانيا فيما بين نهر ايبرو ونهر شقر ، وخاض معارك شديدة ضد النصارى والمسلمين ، ولقب فى تلك الفترة لأول مرة « بالسد » (أى السيد) ، ولقب من أعدائه بنوع خاص « بالبرهانس » (أى الطاغية) [1] . ونستطيع لأول مرة حينما افتتح المرابطون دانية وبلنسية (سنة ١٠٩٢ م) أن نعثر فى المصادر التاريخية الحقة عادة أوثق عن أعمال السد . فبعد أن حصن السد فى بلنسية عدة قلاع شاهقة فى الجبال ،

(١) هذا تحريف سبق أن أشرنا إليه ، والواقع أن « البرهانس » الذى تشير إليه الرواية العربية إنما هو « الفارفانيس » قائد الملك ألفونسو السادس ؛ والظاهر أن المؤلف ذهب إلى هذا التفسير من عبارة مضطربة وردت فى ذلك فى ابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٢) .

وزودها بحاميات قوية ، وعقد حلفاً مع أمراء السهلة وشاطبة ودانية ومربيطر المسلمين ، وهم من ألد خصوم المرابطين ؛ اعتزم أن يحاول انتزاع بلنسية من المرابطين ، فحاصرها بجيش كبير من النصارى والمسلمين تعاونه فيما يظهر قوة من القشتاليين أرسلها الملك ألفونسو ؛ وبالغ السيد فى التضييق على المدينة حتى أن سكانها الذين كانوا فوق ذلك يئنون من حكم المرابطين عمدوا إلى إرغام والى المدينة وهو القاضى أحمد بن جحّاف على أن يفتح أبوابها للجيش المحاصر ، خصوصاً وقد غاض كل أمل فى الغوث السريع الذى التمسوه ، واتُّفق على تسليم المدينة على أن يؤمن القاضى ابن جحاف وأسرته وكل سكان المدينة تأميناً تاما مطلقاً ؛ فلا يصيبهم فى النفس أو المال أى ضرر ، وأن يبقى القاضى على ولايته ، وبذا دخل السد وحلفاؤه ثغر بلنسية فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (مايو سنة ١٠٩٤ م) (١).

وحافظ الظافر بادئ ذى بدء على عهده ، ولكنه لما طلب إلى ابن جحاف أموال أمير بلنسية السابق يحيى القادر بن ذى النون ، وقرر القاضى أنها ليست لديه ولا يعرف مخبأها ، أمر بالقبض عليه وعلى أسرته ، ولما لم ينجح فى حمله على الاعتراف وعد ولا وعيد ولا تعذيب ، أقيمت فى ساحة السوق بالمدينة محرقة كبيرة لكى يحرق فيها ابن جحاف وأسرته . ولما وقفت الجموع المحتشدة من المسلمين والنصارى على الخبر صاحت وأنت حسرة على مصير النساء والأطفال ، والتمست إلى السد أن يقر الأبرياء على الأقل ؛ فنزل فى النهاية عند رجائهم ، واقتيد القاضى فى أغلاله وألقى فى حفرة إلى وسطه . وأضرمت النار من حوله وأتى عليه اللهب فى الحال . وكانت هذه الواقعة لعام من سقوط بلنسية .

وكان يشترك مع السد فى حكم بلنسية حليفه الأمير أبو مروان عبد الملك صاحب السهلة ، وفوض إليه السد أن يختار لها والياً هو لبون بن عبد العزيز ، وكان قيام والٍ مسلم بالحكم باسم الفريقين مما يخفف على البلنسيين وطأة نير

(١) راجع فى استيلاء السيد على بلنسية البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ .

النصارى . ذلك أنه كان من الواضح أن ألفونسو ملك قشتالة وهو صاحب الجزية على السد هو أيضاً سيد بلنسية . وفى ذلك أيضاً ما يفسر كون بعض الروايات العربيـة تنسب افتتاح بلنسية إلى الملك ألفونسو وايس إلى السد ، وأن الروايات النصرانية تصف سقوط بلنسية عقب وفاة السد بأنه انتقاص لأراضى مملكة قشتالة .

وقد حبطت كل محاولات المرابطين لاستعادة بلنسية ما عاش السد . بيد أن كل ما روى بعد ذلك عن أعمال الكمبيادور (الكنبيطور) وسيرة حياته تحيق به نفس الريب التى تحيق بسيرته قبل افتتاح بلنسية ، ومن ذلك ما قيل عن محالفه مع بيدرو ملك أراجون ضد المرابطين وعن الموقعة المظيمة التى خاضاها معاً ضد قائد المرابطين سير بن أبى بكر فاتح الجزائر الشرقية (البليار) . هذا بينما توجد رواية تناقض هذه تمام المناقضة ، مفادها أن السد أسر الملك بيدرو هذا ؛ ومن ذلك أيضاً ما قيل عن افتتاح السد لمربيطر ، وقد كان أميرها حليف السد ؛ وعن اشتراك الكونت رعوند برنجار الثالث صاحب برشلونة — وكان لايزال يومئذ قاصراً — فى الدفاع عن مربيطر ضد السد ، وما ورد فى بعض الروايات السقيمة المتأخرة عن تعيين هيرونيموس أسقفا لبلنسية بموافقة أوربان الثانى ، وهى رواية باطلة . أما القليل الذى يؤيده التاريخ الحق ، فهو أن السد استمر فى حكم بلنسية حتى توفى على مقربة منهـا فى سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) ، وأنه بعـد وفاته بثلاثة أعوام اضطر ألفونسو ملك قشتالة بعد حصار طويل الأمد ومعارك دموية عديدة ، أن يتخلى عن بلنسية للمرابطين وذلك فى سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) .

ونريد هنا أن نختتم تاريخ السد بأن نقول كلتنا فيه حسبما نوهنا من قبل فى فرصة سابقة . وإن الباحث ليتساءل لماذا انفرد السد دون سائر أبطال اسبانيا بأن يحرز مثل هذه الشهرة البعيدة ؛ هذا بينما نرى أعمال سادة قشتالة السابقين وغيرهم من أكابر المجاهدين فى سبيل الوطن بدلا من أن يذكرها الشعب الأسبانى ويحيطها بعرفانه يكاد يغمرها النسيان المطبق ؛ فيسفر بحثه عن أن السد مدين

بتخليد ذكره وإحراز مركزه الرفيع بين الأبطال الأسبانيين بالأخص إلى ظروف عصره . والأمر لا يرجع هنا إلى الخلال ذاتها ، وإنما يرجع بنوع خاص إلى تقدير أهل العصر وعطفهم ، فهم الذين يتوجون هامات الأبطال كما يتوجون هامات الشعراء بأكليل الغار ، ويضمون بذلك دعامة الشهرة لجميع العصور . وقد خلدت ذكرى السد كما خلدت ذكرى أخلليس[١] على يد الرواة والمنشدين . وقد عاش السد فى ذلك العصر العاصف الذى بدأت فيه الحرب الصليبية الأولى . ولما أبى البابا على النصارى الأسبان أن يشتركوا فى افتتاح الأرض المقدسة ، عمد سيد حانق على مليكه إلى حشد المجاهدين من قشتالة وأراجون ليقوم بحملة ضد بلنسية فى نفس الوقت الذى سار فيه جودفروا دى بويون[٢] على رأس الجيش الفرنجى الذاهب لافتتاح القبر المقدس . وإذ كان السد أقرب إلى تحقيق غايته ، فقد استطاع أن يستولى على بلنسية قبل أن يسير الصليبيون بعيداً فى طريقهم .

وفى نفس العام الذى توفى فيه السد وهو ما يزال سيد المدينة المفتوحة ، فتح بيت المقدس . وتقدم إلينا معظم الروايات الأسبانية منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الحادثين جنباً إلى جنب ؛ وأحياناً تضع لهما تواريخ مصطنعة لتحملنا بذلك على الاعتقاد بأنه توجد بينهما ثمة رابطة ؛ ذلك أنه ما كاد نبأ الاستيلاء على بيت المقدس يذاع بسرعة مدهشة فى جميع أنحاء أوربا ، وتتردد أسماء الأبطال الصليبيين الأوائل على جميع الألسن ، حتى حفز ذلك الشعب الأسبانى المجاهد الذى أبعد عن الاشتراك فى الحرب الصليبية أن يقدم جلائل أعمال أبطاله المماثلة ، إلى جميع المجتمع النصرانى المعاصر ، وإلى الأجيال اللاحقة فى القصائد والأناشيد . وقد كانت هذه الأعمال تعتبر إلى ذلك الحين حوادث طبيعية نظراً لظروف اسبانيا النصرانية إزاء المملكة الإسلامية ، ولذا لم تعن

---

(١) هو بطل الياذة هوميروس ، وتصوره الإلياذة أشجع جندى يونانى فى حروب تروادة .

(٢) هو من أمراء الفرنج وقائد أول حملة صليبية سارت لافتتاح بيت المقدس وافتتحها فى سنة ١٠٩٩م ، وكان أول ملوكها من الصليبيين ، وتوفى بعد عام من افتتاحها فى سنة ١١٠٠م .

الرواية ولم يعن القريض بالإشادة بها . وأقرب ما يتبادر إلى الذهن عن فتح بلنسية هو أنه شبيه بفتح بيت المقدس إذ قام به الفرسان ، ولم يقم به ملك ما . ومن ثم فقد اعتبر السد البطل الأمثل فى الشعر الأسبانى . واسمه يمثل الفروسية الأسبانية ، ويعتبر عنواناً لمثل أعلى من الشجاعة المقرونة بالتقوى والجود والنبل والفروسية . وإذاً فلا غرو أن يمتزج الشعر بالحقيقة أتم امتزاج ، حتى أنه فى فاتحة القرن الثالث عشر أعنى لمائة عام بعد وفاة السد لم يبق من الميسور بعد أن يفرق بين الحقيقة والخيال .

٥ — الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

لما أخضعت أسبانيا المسلمة كلها لصولة المرابطين — وقد فقد بنو هود فى سرقسطة استقلالهم فى الواقع — عبر سلطان إفريقية الشيخ إلى اسبانيا مرة أخرى لكى يعنى بتنظيم شؤونها قبل وفاته . وكان ذلك سنة ١١٠٣ م بعد استرداد بلنسية بقليل حينما عبر يوسف إلى شبه الجزيرة للمرة الرابعة ، ولم يكن عبوره هذه المرة لمحاربة مسلمى الأندلس ، بل كانت تحدوه عندئذ بالنسبة إليهم عواطف ونيات سامية بعد أن غدوا من رعاياه ؛ واستصحب معه ولديه تميما أبا الطاهر وعليا أبا الحسن . ومع أن عليا كان أصغر من أخيه فقد اختاره يوسف لولاية عهده إذ كان يتفوق على أخيه تفوقا كبيراً فى المواهب والخلال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة .

وسرعان ما كشف يوسف عن قصده فى العبور إلى الجزيرة . ذلك أنه بعد أن وقف على حسن سير الإدارة فى الولايات ، وشكر القادة والولاة على غيرتهم فى تنفيذ أوامره ؛ دعا القادة والولاة إلى الاجتماع فى قرطبة ، وكانت قد عادت يومئذ قاعدة الحكم فى اسبانيا المسلمة ؛ ودعى إلى هذا الاجتماع الحافل أيضاً كبراء الأندلس فى مختلف الولايات ، وكذلك زعماء القبائل المغربية التى تدين بالطاعة ليوسف ؛ وأفضى يوسف إلى الجماعة بعزمه فى تعيين ولده الأصغر علىّ لولاية الحكم من بعده وأمرهم أن يؤدوا إليه يمين الولاء والطاعة باعتباره أميرهم المستقبل ؛ وعهد يوسف

إلى كاتبه بوضع وثيقة تتضمن شرح النقط الأساسية المتعلقة بولى العهد وما يسند إليه من قسط فى الحكم ؛ وأهم ما جاء فيها هو أن أمير المسلمين نصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بعد أن أنعم النظر والتدبر فى كل شىء ألفى ابنه الأصغر أبا الحسن عليا أكثر أهلية وصلاحية للاضطلاع بجليل الأمور وخطيرها ، ورآه أكثر اقتدارا على تلقى أعباء الحكم ، ومن ثم فقد آثره واصطفاه وعينه ورفعه إلى مقام المُلك ، وأولاه العرش وذلك بعد أن تشاور من قبل مع أعلم الناس وأعقلهم وأقدرهم فى كافة أنحاء المملكة ، وبعد أن اتفقوا جميعاً مع زعماء المملكة وقادتها على الاعتراف بملء حريتهم دون إكراه ما ، بأنهم راضون عن هذا الأمير النابه وأنهم يقبلونه ويبايعونه مختارين ، ما دام والده قد اعتزم ذلك وأقره ، وهم يقبلون عليا ويقرونه على هذا الشرط دون سواه ؛ وهو أن يكون والده أمير المسلمين قد اختاره حقا ورآه أهلا لتبوء الملك[1] .

وبعد أن أقسم الأمير أمام الجماعة لوالده بالتزام الشروط التى بويع بمقتضاها

---

(١) لا بأس مع هذا التلخيص الحسن الذى يورده المؤلف لعهد التولية أن نورد نص العهد ذاته منقولا عن الحلل الموشية ، وهو من إنشاء الفقيه أبى محمد بن عبد الغفور ، وهذا نصه بعد الديباجة :

« أما بعد فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه ، كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه . وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة ، كيف فى هذه الأمور ، العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور . وإن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه ، وأحد سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا إلى المعالى واهتزازا ، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازا ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان إليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والتأنى ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فى ما استرعاه ، فأحضره مشترطا عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعى ؛ بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذى من آمن به شكره » ؛ وبعد ذلك مواعظ ووصية ، بلغت من النصيحة مراقى قصية ، يقول فى خاتمة شروطها ، وتوثيق ربوطها ، كتب شهادته على النائب والمستنيب ، من رضى إمامتهما على البعيد والقريب ، وعلم علما يقيناً بما وصاه فى هذا الترتيب ، وذلك فى عام خمسة وتسعين وأربعمائة ، (ص ٥٦ و ٥٧) .

وضع الكاتب وثيقة أخرى جاء فيها أن الجماعة كلها أقرت هذا وشهد على ذلك الحضور بالأصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن الغائبين ، وبعد أن أقر الأمير الشروط الموضوعة لولاية العهد وقبلها أمضى له الكاتب إشهاداً بذلك . وكان إعلان هذه البيعة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) .

وأما فيما يختص بالأندلس فقد أمر يوسف ولده عليا بما يأتى : ألا يعين فى مناصب الحكام والقضاة فى الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة ، وأن يحتفظ فى الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين قوامه سبعة عشر ألف فارس يطعمون فى المدن بلا مقابل ويوزعون كما يأتى : أربعة آلاف فى ولاية سرقسطة وسبعة آلاف فى إشبيلية وثلاثة آلاف فى غرناطة وألف فى قرطبة والباقى وقدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية[1] ويحسن أن يعهد إلى مسلمى الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى فهم أكثر خبرة ودربة على مقاتلة النصارى من المغاربة . ويجب لإذكاء همم الأندلسيين أن يكافأ المتفوقون فى الحرب منهم بالخيل والسلاح والثياب والمال .

ونصح يوسف أخيراً أن يعامل أهل قرطبة المعروفين بالكبر وحب الشغب باللين والرفق ، وأن توثق أواصر الصداقة مع بنى هود أمراء سرقسطة وهم طليعة الأندلسيين فى محاربة النصارى[2] .

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس عاد إلى إفريقية حيث تولى الحكم بضعة أعوام أخرى وذلك بالرغم من سنه المتقدمة وضعفه المتزايد ؛ وأخيراً بلغ به ضعف الشيخوخة مبلغه . فتوفى فى قصره بمراكش فى المحرم سنة خمسمائة (سبتمبر سنة ١١٠٦) وقد بلغ من العمر نحو مائة عام بعد حياة طويلة وحكم حافل بجلائل الأعمال[3] .

---

(١) يشير فى الحلل الموشية إلى ذلك مع خلاف يسير فى توزيع القوى (ص ٥٧) .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٦٠ .

(٣) راجع فى أعوام يوسف الأخيرة ووفاته ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٨ وما بعدها ؛ وروض القرطاس ص ١٠١ و ١٠٢ ، والحلل الموشية ص ٥٥ وما بعدها .

ويوسف بن تاشفين أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذين يلوح أن القدر قد اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث فى التاريخ ؛ فهو الذى جمع من إفريقية الممزقة شر ممزق ، مملكة عظيمة موحدة ؛ وهو الذى بث بما استحدث من نظم وأساليب روحا قوية فى القبائل والشعوب التى يحكمها ، وقد أفضت هذه الروح إلى تحقيق العجائب . أجل لم يكن هو الذى غرس بذور هذا الانقلاب العظيم فى إفريقية ، ولكنه هو الذى سيطر بذهنه الرفيع على تطورات موريتانيا (المغرب الأقصى) التى هيئت أسبابها ، وأتمها وفقاً لعزمه ورأيه . وقد وهب المملكة الجديدة عاصمة جديدة هى مراكش ، وأضاف بحروبه فى اسبانيا ضد النصارى — ولا سيما بانتصاره فى موقعة الزلاقة — إلى شهرته كفاتح ، شهرته كمجاهد فى سبيل الإسلام ؛ وقد كان الإسلام يومئذ على وشك الانهيار فى شبه الجزيرة ، فبث إليه بعونه وتدخله روحا وقوى جديدة . أجل أبدى يوسف فى إخضاع الأندلس لسلطانه كثيرا من الدهاء والعنف ، وأبدى قسوة فى معاملة الأمراء ؛ بيد أنه لما كان أولئك الأمراء هم الذين أحدثوا بأثرتهم ما كان يعانيه مسلمو الأندلس من سوء الحال فإن جمهرة الأمم الإسلامية لم تر فى يوسف فاتحا متغلبا ؛ بل رأت فيه منقذا واعتبرته يد القدر فى معاقبة الأمراء الباغين . وفى مملكة المرابطين الشاسعة الممتدة من المحيط الأطلنطى إلى مقربة من مصر ، ومن البحر الأبيض إلى حدود بلاد النيجر مشتملة على الصحراء الكبرى التى كانت تخترقها قوافل المرابطين ، وفى أسبانيا من نهر أيبرو إلى مصب الوادى الكبير ، وفى مضيق جبل طارق لم تفرض ثمة فى عهد يوسف قط مكوس أو ضرائب أو رسوم لا فى المدن ولا فى القرى ؛ وكان دخل الدولة يتكون فقط من التبرعات ومن الأعشار ومن أخماس الغنائم التى تحقق فى الحرب . وقد كانت تجبى منها بلا ريب مقادير طائلة . ذلك أن يوسف ترك ثروة عظيمة من الذهب والفضة تقدر بملايين عديدة ، ومن المحقق أن اليهود ساهموا فى هذه الثروة بقسط وافر ، فقد كان يفرض عليهم الإسلام فرضا ، فلا يستردون حريتهم إلا إذا دفعوا مبالغ طائلة[1] .

---

(١) هذا مطابق لما أورده صاحب روض القرطاس (ص ٨٨) .

ومنذ ظفر الزلاقة العظيم غير يوسف نقش السكة ، ونقش فى أحد وجهيها ما يأتى : « لا إلـه إلا الله محمد رسول الله » ، وتحته « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، وكتب فى الدائرة العبارة الآتية : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، ونقش على الوجه الآخر ما يفيد الاعتراف بسلطة الخلافة العباسية الروحية ونصه : « الأمير عبـد الله أحمد أمير المؤمنين العباسى » ، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته[1].

كذلك امتُدح يوسف لمأثور عدله ؛ فانه ألغى حكم الإعدام وجعل السجن المؤبد أقصى عقاب يمكن توقيعه على مذنب[2]. وقد عمل على تبسيط الإجراءات القضائية ، وكان يطوف بولايات مملكته من وقت إلى آخر لـكى يشرف على تنفيذ أوامره ، ثم لـكى يقف بالأخص على مبلغ رفاهية الشعب ورضاه ، وعلى ظلاماته وآلامه .

٦ — ولاية علىّ العرشَ وحكمه حتى موقعة إقليش

ونودى فى الحال عقب وفاة يوسف بولده أبى الحسن على فى مراكش أميراً للمسلمين : ودعى له فى الصلاة فى ألوف المساجد فى مختلف أنحاء مملكته الشاسعة ؛ ولـكن أهل فاس حيث كانت الولاية لابن أخيه يحيى بن أبى بكر بن يوسف أبوا الاعتراف بسلطانه ؛ فسار علىّ إلى فاس وأرغم الخوارج عليه بالسيف على الخضوع لصولته . وكان سلطان المرابطين الجديد فى الواقع فتى فى عنفوانه ، ولم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومع ذلك فقد أبدى فى حكمه كثيراً من الحـكمة والعدالة ؛ وكان يمتاض فى ذلك عمـا يعوزه من الخبرة والتجارب بنصح أعقل رجال بطانته وأكثرهم نضجا ، وكان إلى جانب وسامته يتمتع بكثير من الخلال التى أكسبته محبة الشعب وتقديره ؛ فقد كان وافر الجود كثير ، العطف والبر

(١) راجع روض القرطاس ص ٨٨ .
(٢) راجع الحلل الموشية ص ٥٩ .

بالفقراء والمساكين ، يحرص على مظاهر الجد والوقار فى المناسبات العامة مع الابتعاد عن مظاهر الكبرياء والصلف ؛ وكان أول أمير مسلم فى إفريقية استخدم النصارى فى بلاطه ، فجعل منهم فرسانا فى حرسه الخاص وأولاهم مناصب القصر ، ولم يكن هذا الميل إلى الاستعانة بالنصارى يرجع فقط إلى أن والدة على « رميكة » كانت نصرانية (١) ؛ بل كان يرجع بالأخص إلى الثقة بولاء النصارى وكونهم أقل عرضة للإغراء بتدبير المؤامرات من الأهلين ؛ بيد أن وجود النصارى فى بطانته لم يحل دون مضيه فى محاربة النصارى فى أسبانيا .

وعبر على كأبيه إلى اسبانيا عدة مرات فزارها لأول مرة عقب ولاية العرش ، وذلك لكى يتلقى البيعة فى الجزيرة الخضراء ، ولكى يقر الولاة والقضاة فى مناصبهم أو يعين بدلا من المعزولين منهم ، ثم عاد إلى إفريقية دون أن يقوم فى شبه الجزيرة بأمر ذى شأن(٢) .

وفى العام التالى فى سنة ١١٠٧ م أو فاتحة سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ؛ بيد أنه كان ينوى عندئذ أن يشهر الحرب على النصارى الأسبان بكل ما وسع من عزم وقوة ، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر تميم أبى الطاهر الذى عين والياً لإشبيلية ؛ فخرج تميم من غرناطة على رأس جيش ضخم متجها نحو حدود النصارى ، وكان يضطرم رغبة فى أن يدلل فى الحرب على أنه لم يكن أقل صلاحية لولاية العرش من أخيه لوشاء ذلك أبوه ؛ وحالت دون تقدمه فى قلب قشتالة قلعة إقليش أو (إقليج) المنيعة فضرب حولها الحصار فى الحال ؛ ولما وقف الملك الشيخ ألفونسو السادس على ذلك وعلم بما حاق بالمدينة المحصورة من الضيق اشتد به الألم والحزن ؛ إذ كان ضعف الشيخوخة يحول دون سيره على رأس جيشه لمحاربة أعداء دينه ؛ ولكنه رأى نزولا على رأى زوجه لكى يثير

(١) كانت أم على بن يوسف بن تاشفين أم ولد نصرانية تدعى « قمرا » ، وليس « رميكة » كما يوردها المؤلف واسمها العربى « فاض الحسن » (راجع روض القرطاس ص ١٠٢ والحلل الموشية ص ٦١) .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٢ .

حماسة جنده أن يرسل إلى ميدان الحرب ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من « سيدة » ابنة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية السابق[١] ؛ مع أنه لم يكن يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأمر مؤدبه الكونت جارسيا دى كبرا (قبره) وكذلك جميع القادة أن يحرصوا كل الحرص على حياة ولده ورفاهته .

فلما رأى أبو الطاهر تميم اقتراب قوات العدو من إقليش أراد أن يرفع الحصار وأن يرتد أدراجه ، ولكن أكابر القادة المرابطين استطاعوا بعد عناء إقناعه بخوض المعركة ، وكانت حال الجيش المرابطى مع ذلك تدعو إلى التوجس واليأس لأنه إذا لم يوفق إلى الظفر فقد سدت فى وجهه جميع سبل الفرار .

وعند الفجر هجم المسلمون على القشتاليين فى فيض من الشجاعة والعنف ، ولم يستطع النصارى أن يصمدوا لهجوم يحدوه اليأس ، فاضطروا إلى الارتداد رغم شجاعتهم ورباط جأشهم ؛ ومن سوء الطالع أن ازدلف الأمير الفتى سانشو إلى قلب المعمعة فبادر إليه الأعداء متحمسين ، وتقدم الكونت جارسيا مليكه يدرأ عنه الخطر بدرعه ويحاول إنقاذه بكل ماوسع ، فلم يغن دفاعه شيئاً وسقط الكونت ضحية واجبه ، وسقط إلى جانبه وريث مملكة قشتالة ؛ وما كاد يذاع بين النصارى أن سانشو قد سقط حتى ركنوا إلى الفرار أشتاتاً ، وقتل الظافرون منهم مقتلة عظيمة ، وانتهزوا فرصة الروع السائد فاستولوا على إقليش عنوة ، وسقط فى ميدان الحرب عشرون ألفاً من النصارى وسبعة من كونتات قشتالة ؛ بيد أن المسلمين لم يحرزوا النصر دون خسارة فادحة ، وهذا مايفسر كونهم لم يتابعوا ظفرهم بالتوغل فى ولاية طليطلة ، ولم يستولوا إلا على بعض المدن

---

(١) سبق أن أشرنا إلى سقم الرواية النصرانية بشأن زواج ابنة المعتمد من ألفونسو السادس ، ومع أن الرواية الإسلامية تشير هنا إلى نصح زوجه إليه فى أن يرسل ولده إلى ميدان الحرب ، فإنها لم تشر بكلمة قط إلى أصلها الإسلامى (راجع روض القرطاس ص ١٠٤) ، ويزيد ابن خلدون على ذلك تفاصيل عن زوجة ألفونسو السادس تؤيد بطلان الرواية النصرانية وأخصها أنها أقامت بعد موته بأمر الجلالقة ، فهل كان يقر النصارى ذلك لو أنها كانت تمت بصلة ما إلى الإسلام والمسلمين (راجع ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٢) .

الواقعة على مقربة من إقليش مثل قونقة وأمستريجو ووبذه وأوريواله وأقونيه وقونسويجرا (١).

ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين فى إقليش فى ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م ذروة سلطانهم فى اسبانيا ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم فى اسبانيا عاما بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم فى إفريقية والأندلس ، ويغدو سقوطهم القريب أمراً محتوما .

---

(١) راجع فى تفاصيل موقعة إقليش روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤ .

الفصل الثانى

تاريخ الدول الأسبانية الداخلى

فى عهد ألفونسو السادس

١ — الشؤون الكنسية

تحدثنا فيما تقدم عن الأعوام الأولى لحكم ألفونسو السادس ، وحروبه مع أخويه سانشو وجارسيا ، وفتوحه فى قشتالة ، واستيلائه على طليطلة ، ثم عن حروبه ضد المرابطين . وسنتحدث هنا عن أحوال الكنيسة الأسبانية ، وعن نظم الدولة والتشريع فى عهد هذا الملك القشتالى العظيم ، ثم عن تاريخ إمارة برشلونة حتى خضوعها لتأدية الجزية لقشتالة .

ولقد كان النصارى الأسبان — ماخلا أهل الثغر الأسبانى — أو الأراضى الواقعة بين نهر إيبرو والجبال البرينية ، وهم الذين كانوا منذ أيام كارل الأكبر (شارلمان) ينتمون إلى المملكة النصرانية العامة — حتى القرن الحادى عشر — كأنما يفصلهم سد مانع عن باقى أروبا النصرانية ، ولم يتح لهم بسبب معاركهم المستمرة مع المسلمين — وهى معارك كانت تستغرق كل قواهم وتهدد كيانهم أحيانا — أن يساهموا فى الحوادث الأوربية الكبرى ؛ بل إنه ليس من المحقق أنهم كانوا يعترفون برياسة البابا الروحية لأمم الغرب النصرانية ، وإن كانت توجد ثمة وثائق مشكوك فى صحتها تؤيد وجود العلائق بين أسبانيا والكرسى الرسولى ؛ ولكن تغير ذلك كله فى أوائل القرن الحادى عشر . ذلك أن الآباء البندكتيين[1] افتتحوا

(١) الآباء البندكتيون هيئة دينية نصرانية أسسها القديس بندكت سنة ٥٢٨ م ق =

كل هذه الممالك الملحقة إلى ممالك قشتالة وليون وجليقية واشتوريش ؛ إذ استقدمتهم الأسرة الناقارية الملوكية التي كانت تحكم جميع الممالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، ودفعت بهم إلى جميع أديار أسبانيا ، ثم رفعوا بعد ذلك إلى أسمى المناصب الكنسية ، وعملوا عندئذ على توطيد السيادة الباوية .

وبعث البابا اسكندر الثانى إلى أراجون سفيراً هو هوجو كنديدوس ليعمل على إلغاء الصلاة القوطية التي قررت منذ بعيد ، فاستقبله ملكها سانشو راميرز بحفاوة ونزل على كل رغبات البابا ، وبذلت عندئذ (سنة ١٠٧١م) أول محاولة لتقرير الصلاة الرومانية ، وسن عقوبات رادعة ضد شراء المناصب الكنسية ، وشُدد فى تحريم استعمال الوسائل السحرية والاعتقاد فى مقدرة الأفراد الخارقة ، ووضع الملك كل أديار مملكته تحت سلطة البابا ورفع عنها سلطة الأسقف ، وحصل من البابا نظير ذلك على إذن بأن يستعمل فى محاربة المسلمين دخل الكنائس الواقعة فى مناطق كانت تابعة للمسلمين ؛ ولم تكن هذه مزية ذات شأن ، ومع ذلك فقد تعهد الملك بأن يدفع للكرسى الرسولى خمسمائة مثقال من الذهب كل عام . واعتبر البابا جريجورى السابع — الذى حاول فضلا عن رياسة الكنيسة النصرانية أن يخضع السلطة الزمنية للسلطة الروحية — هذه الهبة كاتاوة يجب أن تؤديها أراجون ، وأقر فى مقابل ذلك الامتيازات التى منحت إليها من سلفه ، ومنها أن يستعمل دخل الكنائس التي كانت فى مناطق تابعة للمسلمين فى نشر الدين المسيحى؛ ولكن سانشو رفض هذه العروض فى مؤتمر « رودا » الكنسى الذى عقد فى سنة ١٠٨٨ واحتج بشدة على دعاوى البابا .

ولم يقصر جريجورى دعواه على أراجون ، ولكنه جعلها شاملة لجميع اسبانيا ، فكتب إلى جميع أمراء الجزيرة النصارى يطلب إليهم الاعتراف به كسيدهم الأعلى وألا يقوموا دون إذنه بفتوح ما . ذلك لأن الجزيرة الأسبانية كانت كلها قبل

= دير مونتى كاسينى بإيطاليا ، ثم انتشرت بعد ذلك فى أنحاء أوربا ؛ وامتاز الكثير من رجالها بالعلم حتى أصبحت كلة « بندكتى » تطلق على العلماء المتبحرين .

الفتح الإسلامى تابعة للكرسى الرسولى ، وأنه لا يعترف بهم ملوكا شرعيين للممالك الأسبانية ولا يأذن لهم فى القيام بفتوح جديدة إلا إذا دفعوا الجزية لرومة ، وتعهدوا بأن يحكموا الأراضى التى ينتزعونها من المسلمين على أنها تؤدى إليه الجزية ؛ ومع أن الملوك الأسبانيين لم يكونوا على علم راسخ بتاريخ وطنهم لكى يقدروا مدى الدعاوى البابوية فإنهم استاءوا لرسالة البابا أيما استياء ، حتى أن السفير هوجو الذى عاد فأرسله البابا لتنظيم الشؤون الأسبانية نصح إليه بالرفق والاعتدال.

وعاد جريجورى فأرسل بعد قليل (سنة ١٠٧٥ م) إلى اسبانيا سفيراً آخر هو أماتوس لكى يجدد دعاوى البابوية على الأراضى الأسبانية ، ويطالب بإلغاء الصلاة القوطية والتشديد فى تحريم زواج رجال الدين ، وإقرار حق البابا فى تعيين الأساقفة وهو حق كان يزاوله الملك . ولم يوفق البابا إلى تحقيق شىء فى سبيل المطلب الأول ، ولكنه وفق إلى تحقيق المطالب الأخرى ولا سيما إلغاء الصلاة القوطية . وإذا كان الأمراء قد اعترضوا على دعوى الجزية فإنهم لم يشددوا المعارضة فى تقرير الصلاة الرومانية . فقررت فى نافار وأراجون وقطلونية وقشتالة فى آماد متقاربة ، وكانت قشتالة أشدها معارضة فى تقريرها ؛ ولكن ملكها ألفونسو السادس مال إلى تأييد البابوية فى مطلبها نظير وعد بمصادقة البابا على طلاقه من زوجه الملكة أجنيس ثم زواجه بعد ذلك مرة أخرى . ومع أن الشعب والفرسان ورجال الدين عارضوا المشروع بشدة فقد انتهى الملك بتقرير الصلاة الرومانية فى ليون ، وتليت فى كنيستها الكبرى ؛ وحصل الملك على إذن بطلاق زوجه أجنيس وتزوج من بعدها بالأميرة كونستانس ابنة أحد دوقات برجونيه الذين ينتمون إلى آل كابيه (ملوك فرنسا) وغدت ملكة لقشتالة (سنة ١٠٧٩ أو سنة ١٠٨٠ م) .

واعتزم الكرسى الرسولى حين رأى أن رجال الدين الأسبان هم أشد معارضيه أن ينظم فى اسبانيا « رجال دين » (أكليروسا) ينتمون إليه ، وقدم إليه الآباء البندكتيون الذين وفدوا من فرنسا فى هذا السبيل أجل الخدمات ، ومنهم انتخب

معظم الأساقفة الأسبان فيما بعد . وأبدى دير ساهاجون البندكتى غيرة خاصة فى تحقيق مقاصد البابا ولا سيما على يد رئيسه برنار الفرنسى وهو رجل وافر الذكاء والبراعة اشتهر قبل انتظامه فى سلك الكهنوت بشجاعته فى الحرب كفارس ؛ وحصل برنار أثناء زيارته لرومة على مرسوم بتولى الدير للقضاء الكنسى الأعلى ، ووضعه مباشرة تحت رياسة رومة وحصل من الملك ألفونسو على امتيازات ذات شأن للدير .

ولما انتزع ألفونسو مدينة طليطلة من يد المسلمين واتخذ مقامه فى عاصمة القوط القديمة ، دعا — نزولا على تقاليد العصور السالفة — مجلساً نيابيا أو اجتماعاً كنسيا إلى الانعقاد . ومع أننا لم نتلق تفاصيل ما دار فى هذا الاجتماع الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٠٨٦ فإنه من الثابت أن الراهب برنار رئيس دير ساهاجون قد انتخب فيه مطراناً لطليطلة . كذلك تباحث الملك فى هذا الاجتماع مع كبراء دولته فيما يجب إجراؤه لتدارك ما أحدثته هزيمة الزلاقة التى وقعت قبل ذلك بقليل ، وذلك بإعداد معدات الحرب السريعة ضد المسلمين . ومن المحقق أن الكونت هنرى والكونت ريمون البورجنيين قريبى الملكة كونستانس كانا يومئذ فى أسبانيا ، وإليهما وإلى وساطة المطران برنار يرجع الفضل فى وفود جماعات كبيرة من المحاربين الفرنسيين إلى أسبانيا . وهنا يمكن القول بأن ذلك كان أول بدء للحروب الصليبية .

ولم يمض على تقلد برنار لمنصبه الرفيع عام واحد حتى كشف عن عميق تعصبه . ذلك أنه انتهز فرصة غياب الملك عن طليطلة فاقتحم بموافقة الملكة — وهى امرأة شديدة التعصب — مسجد المسلمين الذى اشترط فى المعاهدة التى عقدت عند تسليم المدينة أن يبقى مفتوحا لإجراء الشعائر . ولم يقدر الحبر المتعصب عهد مليكه وشرفه ، ولا تأثير هذا النكث فى سكان طليطلة المسلمين وهم جمهرة كبيرة ، وبعث العمال بالليل فأقاموا بالمسجد هياكل ، ورتبوا فيه أجراساً ، وقلبوه كنيسة للنصارى . وفى صباح اليوم التالى عقد قداساً حافلا إيذاناً بتحويله رسميا إلى

كنيسة ؛ فهاج المسلمون فى طليطلة وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة فى المدينـة لاستحال هياجهم إلى ثورة صريحة . وفى الحال بعثوا منهم وفداً إلى الملك ليناقشوه الحساب فى أحكام المعاهدة المعقودة . وما كاد ألفونسو يقف على تفاصيل الحادث حتى استشاط غضباً من الأسقف ومن زوجه ، وأدرك لفوره ما يمكن أن يترتب على مثل هذا النكث . ذلك أن الجيش كان يضم آلافاً من المسلمين ، وكان المسلمون أغلبية فى ولاية طليطلة . وكان التسامح الدينى ، والتزام الدقة فى تنفيذ أحكام المعاهدة التى عقدت ، مما يجعلهم ينسون أنهم خاضعون لأمير نصرانى . وكان يجد فيهم عضداً قويا فى حروبه ضد الأندلسيين والمرابطين الذين كانوا يومئذ يهددون الأراضى النصرانية بجموعهم الزاخرة . وكان عمل الأسقف الطائش المثير حريا بأن يحمل المسلمين على الخروج على ألفونسو ؛ وكانت قوى ملك قشتالة قد نقصت منذ هزيمة الزلاقة ، بحيث كانت كل زيادة فى قوى أعدائه تجعله عاجزاً عن الاحتفاظ بما وراء نهر التاجه ؛ ومن ثم فقد وصل به الغضب من فعلة المطران والملكة إلى حد أنه أمر حال وقوفه على الخبر بحرقهما لما أثارا بفعلتهما من مأزق حرج . ولعل رسل المسلمين رأوا أنهم لن يكسبوا شيئاً من توقيع مثل هذه العقوبة ، لأن رجال الدين وهم جمهرة متعصبة سينتهون بإحراز الفوز ؛ أو لعلهم أملوا أن يستعيدوا مسجدهم إذا سوى المشكل بسلام ، فكانوا أول من التمس من الملك أن يهدئ من غضبه وأن يصفح عن مثيرى الفتنة . وليس من الواضح لماذا بقى المسجد بعد ذلك منزوعاً من أصحابه ؛ بيد أن فى ذلك على الأقل ما يدل على أن رجال الدين كانت لهم اليد العليا . أما ما يزعمه أحد مطارنة طليطلة[١] بعد ذلك من أن المسلمين هم الذين أحلوا عندئذ ملك قشتالة طوعا من جميع العهود التى قطعت فى المعاهدة فظاهر أنه تبرير فقط لنكث النصارى . وعلى أى حال ففى ٢٥ أكتوبر سنة ١٠٨٧ حول مسجد طليطلة الجامع إلى كنيسة جامعة فى حفل رسمى (شعبان سنة ٤٨٠ هـ).

---

(١) هو رودريك الطليطلى ، وقد عاش فى القرن الثالث عشر ووضع باللاتينية تاريخاً لأسبانيا .

وفى العام التالى أراد برنار السفر إلى رومة ليحصل على ثوبه الكهنوتى ، ولكنه ما كاد يبتعد عن طليطلة حتى بادر رجال الدين الأسبان إلى العمل لخلعه باعتباره أجنبيا لا محل لتفضيله ؛ وعلم برنار بهذه الحركة من بعض أصدقائه فارتد مسرعا إلى طليطلة وفشلت الحركة وأبعد زعماؤها أو عزلوا عن مناصبهم ، وعين برنار مكانهم رهباناً من مواطنيه الفرنسيين ؛ ولا سيا من دير ساهاجون ؛ ثم سافر بعدئذ إلى رومة ، وحصل من البابا أوربان الثانى على الثوب الكهنوتى ، وعلى مرسوم بتعيينه رئيساً للكنيسة الأسبانية . ورأى لكى يقضى على معارضة رجال الدين الأسبان أن يضع على رأس الأسقفيات الهامة فى أوسمه وبراجا وسيجونزا وطليطلة وبلنسية وسمورة وتلمرية رهباناً من مواطنيه . ومع أن البابا حصل على حق تعيين الأساقفة فإن ملك قشتالة لم يستمع دائما إلى رغبات البابا ؛ بيد أنه سمح للسفير البابوى بأن يعقد اجتماعا كنسيا عاما بعد أن كان ذلك من حق الملك وحده ، لأن كل اجتماع كنسى كان يعتبر مجلساً نيابيا ؛ وكان عقده فى هوسليوس بالقرب من بلانسيا[1] Palencia (سنة ١٠٨٩) وفيه حصل الملك على موافقة الأحبار باستمرار اعتقال الأسقف بلايز ديجو ، وهو الذى اتهم بتدبير مؤامرة لمعاونة وليم الفاتح على فتح جليقية . ولكن أوربان الثانى قضى ببطلان هذا الاجتماع ، وأرسل إلى أسبانيا سفيراً آخر لينظم شؤونها الكنسية وفق رغباته ، هو الكردينال رنزيوس ؛ وعقدت بدعوته جمعية كنسية أخرى فى ليون سنة ١٠٩١ ، وشهدها الملك وكبراء المملكة وتقرر فيها الإفراج عن الأسقف ديجو ، ونفذت أوامر البابا فى تعيين بعض الأساقفة وعزل البعض الآخر . وكان من أهم ما قرر فيها أيضاً إلغاء الكتابة الطليطلية ، وهى كتابة لم تكن قوطية ، ولكنها كانت تختلف عن الكتابة الرومانية اختلافا كبيرا ، وأحلت مكانها الكتابة الرومانية ، كما تقرر إدخال الطقوس الدينية الرومانية .

ولما عقد أوربان مؤتمر كليرمون ، وأذكى حماسة الأمم النصرانية كلها لخوض

(١) هى غير بلنسية ، وهى من مدن قشتالة القديمة وتقع على مقربة من بلد الوليد .

الحروب الصليبية ، أراد برنار وعدة من الأساقفة الأسبان السفر على رأس الصفوف إلى القبر المقدس ؛ ولكن أوربان حرم على الأسبان أن يشتركوا فى الحرب الصليبية فى المشرق ، لأن أعداء النصرانية (المسلمين) يهددونهم فى عقر دارهم ، وكفى النصارى الأسبان فخراً أن يقاتلوا المسلمين فى الغرب . واستمر أوربان يعمل فى تمكين سلطانه على الكنيسة الأسبانية ؛ ومع أن ألفونسو كان ملكا قويا فإنه كان يجل البابا كرئيس أعلى للكنيسة ، إلى حد أنه لم يفكر فى مناصبته العداء جهاراً مثلما كان يفعل القيصر الرومانى وغيره من الأمراء يومئذ ، ومن ثم فقد أعفى من عقوبة الحرمان الكنسى ، وذلك بالرغم من أنه كان كثيراً ما يعارض الأمانى البابوية ؛ وثار بينه وبين أوربان خلاف حاد بخصوص تعيين أسقف لكرسى شنت ياقب ، وتمسك كل منهما بمرشحه ، ولم تحسم المسألة إلا بعد وفاة أوربان حيث وافق خلفه على اختيار مرشح الملك .

وقد أضر نفوذ الآباء البندكتيين بنمو القومية الأسبانية ؛ ولكنهم من جهة أخرى أدوا خدمات جليلة إلى اسبانيا التى كانت متخلفة فى مضمار الثقافة عن غيرها من الأمم الأوربية ، ولطفوا من حدة النزعات الحربية العنيفة . ذلك أن الكفاح المستمر ضد المسلمين قد أسبغ على الشعب كله دون استثناء لرجال الدين لوناً حربيا عميقاً ، حتى أن الرجل لم يكن ليحظى بالتقدير والاحترام إلا إذا أبدى شجاعته على رأس الجند فى محاربة أعداء الدين . ولذا لم يك ثمة كبير فارق بين الأساقفة والنبلاء وحكام الولايات . فالأساقفة كانوا كهؤلاء يحكمون باعتبارهم أتباع الملك فى المدن والأقاليم ، وكانوا عند الحرب يدعون إلى مرافقة الجيش ، ولم يكن من النادر أن نرى الأساقفة فى المواقع على رأس السرايا ، أو نراهم يقودون الحملات أو يحاصرون المدن ؛ وكان برنار رئيس الكنيسة الأسبانية يضطرم رغبة فى أن يساهم فى الحرب الصليبية بالرغم من تحريم البابا ، وقد حشد بالفعل فرقة من الفرسان وسار على رأسها ، ولكنه حينما وصل إلى رومة أمره البابا بالعود فورا حرصاً على مصالح الكنيسة ، وأصدر مرسوماً

جديداً بتشديد التحريم على رجال الدين والفرسان الأسبان أن يساهموا فى الحروب الصليبية ، لأن محاربة المسلمين فى أسبانيا لا تقل أهمية وقدراً عن المحاربة فى المشرق ؛ وترتب على ذلك أن هرع كثير من الفرسان النصارى من مختلف الأمم إلى أسبانيا ليساهموا فى حربها الصليبية وهى أمنية أقرب وأيسر منالا ، وكان لذلك أثره أيضاً فى تقوية جانب ملوك اسبانيا النصرانية ضد المسلمين .

ولم يكن نفوذ البابا مقتصراً على ممالك اسبانيا النصرانية ، ولكنه كان يتناول أيضاً النصارى المعاهدين تحت حكم المسلمين[1] ، وكان له رأى فى تعيين أساقفة المناطق الإسلامية ؛ ومع أن مصاير الكنيسة الأسبانية كانت تجتمع فى يد رئيسها الأعلى فإن معظم المؤتمرات الكنسية كانت تعقد على يد سفراء البابا ، وذلك حرصا من رومة على ألا يستخدم رئيس الكنيسة الأسبانية استقلاله فى إنشاء كنيسة مستقلة كما حدث فى قسطنطينية .

٢ — نظم الدولة والتشريع

كانت نظم الدولة فى الممالك النصرانية الأسبانية حتى القرن الحادى عشر فيما يظهر ، مماثلة للنظم التى كانت قائمة فى أواخر عهد القوط . وكان المُلك وراثيا فى قشتالة فقط ، ولكن فى باقى الإمارات الأخرى ، فى جليقية وليون واشتوريش ونافار وأراجون كان الملك ينتخب بواسطة الكبراء . بيد أنهم اجتنابا للحرب الأهلية كانوا ينتخبون من كان بمولده أحق الناس بالعرش . وكان الملك يجمع بين يديه أكبر سلطة فى الحرب وفى السلم ، وقيادة الجيوش العليا وحكم القضاء الأعلى . وكان بطانة الملك الذين يعاونونه فى الحكم يدعون « رجال الخاص» Palatini . وكانت أسماء المناصب والمناصب نفسها مشتقة من النظم القوطية . بيد أنه كان ثمة تقليد مشتق من النظم الفرنجية ، وهو أن الوزير الأول كان يسمى «محافظ القصر» Majordomus ، وذلك دون أن يتمتع بسلطات خاصة فى الحكم ، لأن ملوك اسبانيا كانوا يتولون الحكم بأنفسهم ؛ وكان وزير الحرب يسمى «حامل السلاح»

(١) ويطلق عليهم بالأفرنجية Mozarabes ، والظاهر أنها تحريف لكلمة « مستعرب »

Armiger ، وقاضى الجنايات الأعلى يسمى «المرجع الأعلى» Majorinus Palatii .
وكان يدير الشؤون المالية المشرفون على الاقتصاد Oeconomi Palatii ؛ ويتولى إعداد المراسيم والوثائق المسجلون الملكيون Notarii ، وكانوا فى الغالب من رجال الدين ؛ ويعنى بخدمة الملك وتدبير شؤون القصر طائفة خاصة من الحشم ؛ وكان يخدم الملك على المائدة يوم توليه العرش أربعة من أكرم نبلاء المملكة ، وهو تقليد كان موجوداً فى الأمم الجرمانية منذ العصور القديمة .

وقد تكونت نظم الأقطاع مثلما حدث فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا عقب عصر كارل الأكبر (شارلمان) وأدخلت لأول مرة فى قشتالة حين تبوأ ملوك نافار العارفون بالنظم الفرنجية عرش المملكة الأسبانية . بيد أننا لا نستطيع أن نقطع بأن النظم الأقطاعيــة لم تعرف قبل ذلك فى شبه الجزيرة (وقد كانت فى الثغر الأسبانى منذ القرن التاسع) ، وكل ما هنالك أنهــا لم تطبق بنفس الصورة التى طبقت بهــا فى أمم أوربا الوسطى ؛ ثم إن ظروف العصر كلها تدل على أنه لم يكن ثمة بد من أن ينتقل غرس الأقطاع إلى قشتالة ، وكان سبيل ذلك العلم بنظم الدول الإسلامية التى كانت تعرف الأقطاع .

وكان رمز الخضوع الظاهر لأحكام الإقطاع اليمين التى يؤديها صاحب الأقطاع إلى الأمير ضماناً بإخلاصه واعترافه بأنه يضع أرضه وأتباعه تحت تصرف الأمير ؛ فنى أثنــاء الحرب ينتظم فى الجيش مع أتباعه ، وفى السلم يمثل فى البلاط متى دعاه الملك . كذلك يجب عليه أن يؤدى للأمير جزية معينة . فإذا لم يحافظ التابع على عهده جاز للملك أن يقضى عليه بفقد إقطاعه . والظاهر أن الإقطاع كان فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر وراثيا . وقد كان يقوم على فكرة المنصب (Honor) وكون الأمير يستطيع أن يهب المناصب وفق مشيئته وأن يستردها . فإذا تولت أسرة معينة المنصب طويلا فإنها تطالب نظير إخلاصها فى الخدمة بالمنصب وما يتعلق به من أرزاق تستمد من الأرض ؛ وكان الملك فى أحيان كثيرة يضطر بالرغم منه إلى ترك الإقطاع للأسرة .

وكان مجتمع الإقطاع ينقسم إلى مراتب متعددة فالدوق أو الوالى (Consul) هو التابع الذى يُقطع ولاية برمتها مثل جليقية أو اشتورية أو ألبه أو البرتغال ، وكان هؤلاء الولاة فى الغالب يعملون على استقلالهم وتأسيس دولة جديدة ؛ ويليه الكونت أو القومس (Comes) [1] وهو الذى يقطع منطقة ، فأصحاب المنح الصغيرة وهم البارونات (Barones) وهم الملاك من أتباع الكونت . ولما كان هذا النظام عسكريا فى جوهره فقد كانت هذه المراتب يحتفظ بها فى الحرب تحت أسماء أخرى ، فالدوق أو الوالى يقود جيش الولاية ويسمى قائداً ، ويقود الكونت فرقته ويعتبر قائداً محليا وتتكون قواته من البارونات الذين يسمون عندئذ بالفرسان ؛ والفارس أدنى مراتب النبل وهو الشخص الذى يستطيع أن يقتنى جواداً وسلاحاً ؛ وكان الفرسان قوام الجيش وعليهم تتوقف مصاير الحرب ، ويتكون الجند المشاة من أتباع البارونات ومن حشم الدوقات والقوامس .

وكان الملك فى منازعات ومعارك دائمة مع الدوقات والقوامس ، ولم يكن يستطيع الحد من خروج الأتباع وانتهاكهم للقوانين إلا بمعاونة رجال الدين الأقوياء ، والشعب والمخلصين من أصحاب الإقطاع ، وأصحاب المناصب الذين يؤجر خدماتهم بأثمان فادحة ؛ وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى عقد المعاهدات مع الخوارج أو مهادنتهم أو النزول عند مطالبهم على حساب أصحاب الإقطاع المخلصين ، وبهذه الوسيلة تنتزع منه المناصب والولايات والرياسات .

وكان كبار الملاك أو الأتباع يقطعون الأحرار الأقل منهم أجزاء من أراضيهم لزراعتها على أن يؤدوا إليهم نصف الدخل أو ثلثه على الأقل . ولم تكن هذه المنح تحدد بوقت معين ؛ بل كان المزارع يعتبر نفسه مالكا للأرض يزرعها ، ثم تؤول من بعده إلى ولده ؛ ولكنه كان ملزماً بالإقامة فيها ؛ فإذا غادرها إلى منطقة أخرى فقد الحق فى امتلاكها ؛ وقد فرض ألفونسو السادس ضريبة سنوية قدرها مثقالان إسبانيان على كل صاحب حقل به منزل ، فإذا قسم الحقل بعد موته على

(١) وتسميه الرواية العربية بالقمط أو القومس معربة عن اللاتينية .

أولاده وجب على كل منهم أن يؤدى نفس الضريبة ؛ ومن ملك منزلا خاصا فى حقل صاحب الإقطاع وجب أن يؤدى إليه فى كل عام مقادير معينة من المحصول ، وأن يقدم إليه جياده وماشيته تعمل لديه عدة أيام بلا أجر . فإذا شاء أن يبيع منزله وعمله إلى السيد أو بعبارة أخرى إذا شاء أن يغدو من حشمه ومماليكه قام بتقدير الثمن أربعة خبراء اثنان من النصارى واثنان من اليهود .

ولا بد أن عدد الأرقاء فى اسبانيا النصرانية كان عظيما جدا . ذلك أن جميع الأسرى فى المعارك المستمرة التى كانت تنشب ضد المسلمين كان يقضى عليهم بالرق ، وكانوا يكلفون بأشق الأعمال ، وكانوا يمنحون الحرية أحيانا ولكن دائما بشرط اعتناقهم النصرانية . ذلك أنه كان يسوغ للنصارى فقط فى الممالك النصرانية الأسبانية أن يكونوا أحرارا .

وإن ألفونسو السادس ليستحق أعظم الثناء لما وفق إليه من أن يأتى « حق القوة »[1] فى جميع أنحاء مملكته فى عصر ساد فيه حكم القوة فى جميع أوربا . وقد عنى بتنظيم العدالة الصارمة ، وفرض على الدوقات والقوامس ونوابهم أن يعاقبوا مرتكبى الجرائم والجنح بحزم ودون تحيز ؛ وكان من جراء هذه السياسة الحكيمة أن كانت قشتالة هى البلد الوحيد فى أوربا الذى يستطيع التجار والنساء والعزل جوبه دون التعرض لأذى الفرسان الناهبين أو القتلة واللصوص ، حتى ولو كانوا يحملون مالا ونفائس ظاهرة . وكذلك عنى ملك قشتالة بتحسين الطرق الكبرى وإنشاء القناطر على الأنهار .

ومع أن الملك كان يتمتع أثناء الحرب بسلطات لا حد لها ، وفى السلم كان يتمتع بأسمى السلطات القضائية ، فإنه كان يشترك معه فى وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف ، وكان هؤلاء يسبغون باجتماعاتهم النيابية (الكورتيز) Cortes تحت رياسة الملك على تصرفاته لون الشرعية المطلقة . ولم

---

(١) المقصود ما كان سائدا فى العصور الوسطى فى معظم الأمم الأوربية ولا سيما فى عصر الفروسية من الالتجاء إلى القوة والعنف فى تحصيل الحقوق واغتصابها ؛ وتغليب الأقوى ، بصرف النظر عن الحق أو العدالة .

تكن الطبقة الوسطى تمثل فى هذه المجالس لأنها لم تكن بعد ذات أهمية تذكر . ولما كانت هذه المجالس تعنى بتنظيم شؤون الدولة والكنيسة معاً نظراً لأن الأمير كان حتى القرن الحادى عشر يعتبر ملاذاً أعلى لكنيسة مملكته ، فإنها كانت من هذه الناحية ذات أهمية مزدوجة . وكانت مسائل الكنيسة تبحث بادئ ذى بدء دون أن يشترك فى بحثها ممثلو الهيئات الزمنية ، ثم تبحث بعد ذلك مسائل الدولة . وكان الملك يدعو المجلس (الكورتيز) إلى الاجتماع كلما دعت الظروف إلى عقده ، وتوقع قراراته من المجتمعين وفى مقدمتهم الملك والملكة ، وكان حضورها ضروريا فى هذه المجالس .

وقد اشتقت ممالك اسبانيا النصرانية شرائعها من القانون القوطى وقوانين مجلس طليطلة ؛ وكان القضاة يتبعون أحكام القانون القوطى ما لم تتعارض مع قرارات المجلس النيابى ، ومع القوانين الجديدة التى يصدرها الملك بالاستناد إلى العرف ويصادق عليها المجلس (الكورتيز) وهى المسماة (Buenos Fueros) . وكانت هذه القوانين تلغى نظائرها من القوانين القوطية إلغاء جزئيا فقط ، وكانت فى الواقع قوانين بلدية وامتيازات خاصة لمدن أو أماكن معينة تطبق بمضى الزمن فى الولاية كلها . وقد نشأت بادئ ذى بدء فى قشتالة حينما كانت ولاية يحكمها القوامس الخارجون على مملكة ليون ، وكانت تمنح إلى المدن كامتياز يوطد ولاءها نحو سادتها الجدد . وإذا لم يكن الكونت سانشو جارسيا هو أول من منح مدن قشتالة هذه الامتيازات (سنة ١٠١٢ م) ، فهو فيما يبدو أول من عمم تطبيقها فى جميع أنحاء الولاية ؛ وحذا ألفونسو الخامس ملك ليون فى ذلك حذو قوامس قشتالة فسن لشعبه شريعة شاملة Fuero على يد مجلس ليون (سنة ١٠٢٠ م) . ولما وحد فرديناند الأول بين مملكتى ليون وقشتالة صادق على شريعتيهما فى مجلس كويانزا (سنة ١٠٥٠ م) وحذا حذوه ألفونسو السادس فأصدر مثل هذه المصادقة فى مجلس طليطلة (سنة ١٠٨٦ م) .

وكان قومس المدينة يباشر القضاء المدنى والجنائى ، يعاونه نواب قضائيون

وخبراء ؛ ويتولى تنفيذ الأحكام الجنائية وكلاء سموا فيما بعد Alguaciles ولهم رئيس Majorino يقضي في المواد الجنائية وينفذ أوامر الملك .

وكل إنسان حر في أن يدافع عن نفسه أمام القضاء وله أن يختار محامياً أو وكيلا للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن يحق لهم الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم وفقاً لقانون أصدره ألفونسو السادس .

وكان يتولى أعمال الإشهاد مسجلون أغلبهم من رجال الدين ، ويتولى الإشهاد على الأوامر الملكية مسجل خاص للبلاط .

وكانت الإجراءات القضائية بسيطة سريعة . وكانت محاولة التأثير على القاضي بالرشوة تعاقب بشدة وتجعل الحكم باطلا ؛ وكان لا بد لسقوط الحق من مضي خمسين عاماً في بعض الأحوال وثلاثين في البعض الآخر . ولكن رجال الدين حصلوا من فرديناند الأول على امتياز يقضي بعدم سقوط حقوقهم بمضي المدة .

وأما وسائل الإثبات القضائية فكانت الكتابة والبينة ؛ واليمين إذا لم يوجدا . وفي قانون أصدره ألفونسو السادس كان يكفي لإثبات جريمة القتل على القاتل أن يذكر الكاهن الذي تلقى أقوال القتيل قبيل وفاته اسم قاتله حسبما سمعه منه ؛ فإذا عدمت الأدلة استعمل التعذيب ، ولكن في أحوال نادرة جدا ، أو استعملت بعض الإجراءات الدينية الخرافية التي تعرف « بحكم الله » كان يؤمر المتهم مثلا بأن يستخرج بذراعه العارية عدداً من الحصى من وعاء به ماء يغلي ثم تربط ذراعه ويختم عليها ، وتترك ثلاثة أيام ، فإذا ظهرت بعدها في ذراعه حروق اعتبر مذنباً ، وإذا لم تصب الذراع بشيء اعتبر بريئاً . وفي قانون أصدره ألفونسو السادس كان يسمح للمتهم بالقتل في حالة الإنكار أن يبرئ نفسه باليمين ، ثم يجب عليه بعد ذلك أن يبارز متهمه ، فإذا غلبه ذاك وجبت عليه دية مالية معينة ..

وكانت العقوبات تختلف من الإعدام إلى جز الشعر دلالة على العار ، ثم بتر الأطراف وسمل الأعين والجلد والغرامة والمصادرة ، وكان أندرها الحبس . وفي قطلونية كان القاتل يعاقب بالنفي إلى إفريقية ، وفي قشتالة كان القتل يفتدى بالدية ،

وفى ليون كان القانون يقضى بأن القاتل إذا استطاع الفرار والاحتجاب عن أعين مطارديه تسعة أيام ترك وشأنه ، فإذا قبض عليه قبل ذلك وكان ذا مال غرم مبلغاً يتراوح بين مائة وخمسمائة متقال يأخذ الملك ثلثه ، ويعطى الثلثان إلى أقارب القتيل ؛ وتزاد الغرامة إذا وقع القتل بالليل ، أو بطريق الغيلة ، أو كان المجنى عليه من الحكام . وكانت اليمين الكاذبة وشهادة الزور تعاقب بالغرامة ، وتهدم دار الكاذب فى عينه ، ولا يسمح له بعد ذلك بالشهادة ؛ ويُفتدى الجرح والضرب بالمال إذا شكا المجنى عليه ، ويعاقب بالغرامة أيضاً الغش فى الكيل والوزن ، أو بيع المواد الغذائية التالفة ؛ وكانت عقوبة الجلد نادرة جدا ، ولا يجلد سوى العبيد .

وأما فى الميراث فكان يطبق القانون القوطى وهو ينص على توريث البنين من الذكور والإناث على قاعدة المساواة . بيد أنه يسمح للوالدين أن يتصرفا فى الخمس بالوصية للغير لغاية دينية أو غيرها ، وفى خمس آخر لصالح الولد الأكبر أو الولد الأصغر .

وبالرغم من الحروب المستمرة بين النصارى الاسبان والمسلمين ، فإن التجارة ازدهرت لدى النصارى ؛ وكانت قطلونية نظراً لموقعها الجغرافى تتمتع بمزايا تجارية حسنة ، وكانت أيضاً تحظى بأكبر قسط من الثروات ، وكانت ترتبط بجمهوريتى بيزا وجنوه البحريتين وبولايات الرون بأوثق الصلات ، وكانت سفنها تحمل المحاصيل والمصنوعات الاسبانية وفواكه الجنوب والحرير والصوف والأقمشة والجلد إلى إيطاليا واليونان ، ثم إلى مصر وسوريا ؛ وكانت أسواق قطلونية التى كانت تعقد عادة أيام الأعياد الكنسية وتستمر أسابيع عديدة ، أشهر أسواق أوربا وأروجها ، نظراً لتنوع أصنافها وجودة بضائعها .

وكانت تعقد أيضاً فى ليون أسواق دورية عظيمة ، وكانت تقرر أثمان الحاجات الضرورية طوال العام ، ولكن أثمان السلع الكمالية كانت تترك دون تحديد ، وكان يحق لسكان ضواحى المدينة أن يأتوا بسلعهم فى كل وقت دون

مكوس أو رسوم ، ولكنهم كانوا يكلفون مقابل ذلك وقت الحرب بالدفاع عن المدينة والمساهمة فى أعمال التحصين .

وكانت المكوس تجبى أثناء الأسواق العامة والدورية ، وكان رهبان ساهاجون يتمتعون بحق احتكار بيع النبيذ والأقمشة والأسماك والأخشاب ، فلا ينافسهم فى بيعها فى هذه المنطقة أحد ، ويعاقب المخالفون بالمصادرة والغرامة .

٣ — تنظيم ألفونسو السادس لوراثة العرش

تزوج ألفونسو السادس ملك قشتالة عدة نساء ، ولكنه لم يترك ولداً يرث العرش من بعده . وكانت أولى نسائه أجات ابنة وليم الفاتح ملك إنكلترا ، خطبها بطريق الوكالة وهو ملك على ليون ، ولكنها مرضت وتوفيت أثناء سفرها من إنكلترا إلى اسبانيا ولم يتم زواجه بها . وأولى نسائه فى الواقع هى اجنيس ابنة جيّوم السادس دوق جويانه وبواتييه ، وقد طلقها لأعوام من زواجه بها (سنه ١٠٨٠) بموافقة البابا جريجورى السابع دون أن يعقب منها . ثم تزوج من بعدها كونستانس ابنة روبير الأول دوق بورجونيه من أسرة كابيه الملوكية ورزق منها بابنة هى الدونا أوراكا التى زوجت وهى فى العاشرة من عمرها بالكونت ريموند البورجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . وكانت كونستانس امرأة شديدة التعصب ، وإلى نفوذها المترتب على تأثير البابا يرجع إلغاء الصلاة القوطية والخط الطليطلى ، وانضواء الكنيسة الاسبانية تحت لواء البابا ؛ ثم توفيت سنة ١٠٩٢ ، واقترن ألفونسو عقب وفاتها بأميرة تدعى برتا يختلف المؤرخون فى نسبتها وتوفيت دون عقب . ولم يعقب ألفونسو من زوجه التالية وهى اليزابيث ابنة لويس ملك فرنسا ذكورا ، ولكنه رزق منها بابنتين هما سانشا التى اقترنت بالكونت رودريك ، والقيرا التى اقترنت برجار (روجر) ملك صقلية . وتزوج ألفونسو مرة أخرى قبيل وفاته بقليل ، وذلك عقب واقعة اقليش التى هلك فيها ولده غير الشرعى سانشو أملا فى أن يرزق بوارث لعرشه ، وكانت هذه الزوجة

الخامسة والأخيرة هى بياتريس ابنة أمير أوستا وتوسكانا ، ولكنه لم يرزق منها بعقب .

ولم تكن تقاليد المسلمين وأساليب حياتهم — وإن تبرأ النصارى منها — دون تأثير فى حياة الأمراء النصارى ، فقد كان عدة من ملوك ليون وقشتالة فضلا عن الزوجة الشرعية يحتفظون بسرب من الحظايا (الحريم) ، ومع أن هؤلاء الحظايا لم يبلغن من الكثرة مبلغهن عند الأمراء المسلمين ، فقد كن يعاملن معاملة الزوجات تقريبا ، وكان أولادهن بالرغم من حرمانهم من الإرث الشرعى يرثون أحياناً بعض الأراضى . وكان آخر حظايا ألفونسو لديه اثنتان هما خمينا نونيز الجليقية ، وسيدة ابنة المعتمد أمير إشبيلية . وقد رزق من الأولى بابنتين هما تريزيا والفيرا التى اقترنت بالكونت ريموند دى تولوز وصحبته فى الحملة الصليبية إلى بيت المقدس . أما تيريزيا فقد اقترنت بهنرى دى بزانصون ، وأقطعه ألفونسو لقاء شجاعته فى محاربة المسلمين أرضاً بين نهر دويره ونهر تاجه ، وأسس منها له ولعقبه إمارة خاصة عرفت فيما بعد بامارة « البرتغال » .

أما سيدة ابنة أمير إشبيلية ، أو ماريا اليزابث كما عرفت باسمها النصرانى فتقول الرواية النصرانية إن ألفونسو تزوجها فى سنة ١٠٩٦ ، ولكن هنالك ما يدل على أنه اقترن بها قبل ذلك ، لأن أباها المعتمد كان عندئذ قد فقد سلطانه وزج إلى الأسر فى إفريقية منذ أعوام . والمحقق أن المعتمد قدمها زوجة لألفونسو سنة ١٠٩١ وذلك لكى يوثق روابط التحالف المعقود بينهما . ولم يكن فى اتخاذ ألفونسو إياها خليلة فقط ، ما يؤذى الأمير وهو نفسه يحتفظ بعدد كبير من الحظايا . ثم ألم يعمد الملوك النصارى قبل ذلك بعصور إلى إعطاء بناتهم للأمراء المسلمين بالرغم من تحريم دينهم لذلك ؟ فلماذا يتأذى أمير مسلم من تقليد تبيحه شريعته (كذا) ، هذا إلى أن سيدة كانت هى الوحيدة بين نساء ألفونسو التى ولدت له ولداً هو سانشو . وكان ألفونسو يحب ولده غير الشرعى حبا جما ، حتى انه اختاره لولاية عهده ، ولا سيما لما بدا من نجابته وشجاعته . ولكنه هلك

فى موقعة إقليش ، وهلك معه مؤدبه الكونت كابرا مدافعاً عنه ؛ وهنالك من يشك فى أن كبراء قشتالة لم يعنوا بالمحافظة على سلامته عناية كافية ، وأنهم عرضوه للخطر لكى يهلك فى الموقعة فلا يرث العرش ولد غير شرعى . كذلك عقد الأمراء التابعون لألفونسو مع صهريه رعوند وهنرى حلفاً سريا ضد اختيار سانشو لولاية العهد يقضى بأن يتعاون الحلفاء عند وفاة ألفونسو على الدفاع ، وأن يقتسموا المملكة والأموال والذخائر ؛ ولكن هذا المشروع انتهى بوفاة رعوند ، ثم بمقتل سانشو وتصرفات ألفونسو الأخيرة لتنظيم وراثة العرش .

وحزن الملك الشيخ لوفاة ولده المحبوب أيما حزن ، وأثقلته السنون والأوصاب ، فعول على أن يترك المملكة لابنته أوراكا أرملة الكونت رعوند . ولكنه رأى من الضرورة أن تقبض على الحكم يد حازمة ، وأن تحمى الأرمل من عواقب التسرع والشطط . ولما كان ألفونسو يرى عظمة المملكة فى سعة الأراضى المحكومة ، ويجيش فى الوقت نفسه بأمنية عزيزة هى أن يوحد بين الممالك النصرانية تحت عرش واحد ، فقد وقع اختياره على ألفونسو الأول ملك أراجون وناڤار ، وكان يومئذ أعزب ، ليكون زوجا لابنته ، وكان ملكا هماما شجاعا . واستدعى ملك قشتالة قبل عقد الزواج نواب المملكة للاجتماع فى ليون (الكورتيز) ، فاجتمع الأساقفة والقوامس ، وحكام الولايات ، ورجال الدين والأشراف والفرسان ، ونواب الطبقة الوسطى ، وكان اجتماعا شعبيا بكل معنى الكلمة ؛ وأصدر هذا المجلس قراراته بشأن وراثة العرش ، وخلاصتها : أن تكون أوراكا وارثة مملكة ليون وقشتالة واشتوريش ، وأن يمنح ولدها ألفونسو رعونديز مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ؛ فإذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون فإن المملكة جميعها تؤول إلى ولدها ألفونسو رعونديز ، أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس ؛ وعهد بتربية الطفل إلى عمه أسقف ڤيين (وهو البابا كالكستوس الثانى فيما بعد) والكونت تراڤا ، ومنح إمارة جليقية

فى الحال تحت وصايتهما ، على أن تبقى له دون نقص أو رجوع .

وما كاد الملك الشيخ الذى أشرف على الثمانين وأوهن المرض قواه ينتهى من تنظيم هذه الشؤون حتى أدركه الموت وذلك فى ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، فحزن الشعب قاطبة لوفاته . وقد أسس ألفونسو خلال أربعة وأربعين عاما من حكم قوى مستنير مجد قشتالة إلى قرون ؛ ولم توهنه بعد ذلك حرب أهلية ولا تقسيم ؛ وكان تقيا ، كريما ، عاقلا ، عادلا ، رقيقا ، جم التواضع . وكان فى الحرب جديرا بقيادة فرسان اسبانيا الشجعان فى عصره ؛ وأعظم فتوحه استيلاؤه على طليطلة التى سميت بحق قلب اسبانيا ، والتى يمكن منها غزو أى جزء من الجزيرة بنجاح ؛ ولولا تدفق سيل المرابطين على الجزيرة فى وقت بلغوا فيه أوج قوتهم لفقد المسلمون يومئذ كل سيادة فى اسبانيا ؛ وقد ألفى فاتح إفريقية[1] نهاية فتوحه حيثما كان جيش ألفونسو الباسل ، واستحق ملك قشتالة فى تسع وثلاثين موقعة خاضها لقب « نور اسبانيا ودرعها » وكان يلقب نفسه فى الوثائق والمراسلات «بالقيصر» .

ومذ حاول قيصر الدولة الرومانية هنرى الثالث أن يستعيد السيادة العامة التى كانت لكارل الأكبر على ملوك النصرانية ، وأن يعتبر كل ملوك الغرب النصرانى أتباعاً له ، وطلب إلى معظمهم الاعتراف بطاعته ، ظهر لقب القيصر بين ملوك قشتالة ، فتلقب به فرديناند الأول معاصر هنرى الثالث ، ثم تلقب به ألفونسو السادس ، وذلك لكى يميز نفسه بالأخص عن باقى ملوك اسبانيا النصرانية . والواقع أنه فضلا عن بسطه لسلطانه على الإمارات المسلمة التى افتتحها ، والإمارات النصرانية التى كانت تابعة لملكته ، كان يعتبر ضمن أتباعه أمراء قطلونية وملوك أراجون ، وذلك بالرغم من أن أراجون لم تكن تعترف بمثل هذه الدعوى ، وكان لها باتحادها مع نافار من القوة ما يكفى لتدعيم استقلالها ؛ أما إمارة برشلونة فكانت من الضعف بحيث كانت تغتبط بحماية قشتالة لها .

---

(١) يشير هنا إلى يوسف بن تاشفين .

٤ — إمارة قطلونية

(من سنة ١٠٧٦ — ١١٠٦ م)

أوصى رعوند برنجار الأول الذى أتينا على سيرته فيما تقدم عند وفاته (سنة ١٠٧٦ م) بالحكم المشترك لولديه برنجار ورعوند . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بين الأخوين ، وسُوى بادئ ذى بدء على يد كبراء الولاية ، واتُفق على أن يتسمى كل من الأخوين بكونت برشلونة ، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر . ثم قتل رعوند الثانى غيلة فى سنة ١٠٨٢ ، واتجهت الشبهة فى قتله إلى أخيه برنجار ، وفى بعض الروايات أنه هو الذى دبر بالفعل مصرعه . وقام برنجار بحكم الولاية وحده ، وكذلك بصفته وصيا على ولد أخيه القاصر رعوند الثالث .

وإذا صدقنا ما يرويه « رسكو » فى تاريخه « السيد الكنبيطور » فإن « السيد » هو الذى حال دون انتصار أمراء برشلونة على المسلمين ، إذ كان يومئذ فى خدمة بنى هود أمراء سرقسطة ؛ وتقول هذه الرواية إن الكنبيطور انتصر بادئ ذى بدء على الكونت برنجار فى موقعة « المنارة » سنة ١٠٨٣ ، ثم رده بعدئذ عن حصار بلنسية فى سنة ١٠٨٩ ؛ ولما هاجم السيد أمير دانية ، وخف برنجار لإنجاده هزمه السيد وأسره مع بضع آلاف من جنده ، ثم أفرج عنه بعد ذلك ، وانقلب العداء بينهما إلى صداقة ، وعقدت خطبة ماريا ابنة « السيد » على ابن أخى برنجار رعوند . ولما سافر برنجار إلى المشرق حاجا فى سنة ١٠٩٢ ترك الولاية كلها لابن أخيه الصبي رعوند الثالث ، تحت حماية « السيد » معتقداً أنه لن يعود إلى اسبانيا .

والروايات القطلونية عن هذا العصر موجزة وغامضة ، وعلاقة السيد بتاريخ قطلونية تثير أعظم شك ، بل إن هذا التاريخ لا يذكر اسم السيد على الإطلاق ؛ ومما يزيدنا شكا فيما ينسب إلى السيد من محاربة أمير برشلونة أن الكونت برنجار رعوند كان يومئذ يرتبط مع ألفونسو السادس ملك قشتالة برابطة التحالف ، وكان يعمل تحت حمايته وإشرافه لتوسيع أملاكه . وقد اشترك فى

الحلف الذى عقد بين ألفونسو السادس والمعتمد أمير إشبيلية لافتتاح طليطلة ، فلما انقلب المعتمد بعد سقوط طليطلة إلى خصومة ملك قشتالة بعث ألفونسو برنجار ريموند الذى تسميه الرواية العربية « القرمط البرهانس »(١) سفيراً إلى إشبيلية يطالب أميرها بالخضوع وتأدية الجزية ، وكان الكونت برنجار من شهود موقعة الزلاقة التى دارت فيها الدائرة على النصارى ، ولم يمض على ذلك عامان أو ثلاثة حتى سار الكونت فى قواته إلى بلنسية ، ولكنه لم يستطع افتتاحها . ولما سافر عقب ذلك إلى المشرق حاجا ترك الولاية لابن أخيه الصبى ريموند الثالث يحكمها تحت حماية ألفونسو السادس ، وأبدى هذا الأمير الفتى شجاعة فى محاربة المرابطين خصوصاً بعد أن كثر عيثهم فى أراضى قطلونيه منذ سنة ١٠١٦ م(٢) .

---

(١) سبق أن أشرنا إلى ما فى هذا القول من تحريف ، وأوضحنا أن « البرهانس » الذى تشير إليه الرواية العربية إنما هو الثار فانيز Alvar Fanez قائد ألفونسو السادس ، (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ، والحلل الموشية ص ٢٣) .

(٢) نرى أن نشير إلى أننا رأينا من المستحسن أن نتصرف فى ترجمة بعض أجزاء هذا الفصل أحياناً بالتلخيص وأحياناً بالحذف اليسير .

الفصل الثالث

ألفونسو المحارب وعصره

(من سنة ١١٠٥ — ١١٣٤ م)

١ — حروب النصارى الاسبان والمسلمين
منذ موقعة اقليش حتى عود ألفونسو من الأندلس

لم يحكم ملك من ملوك اسبانيا منذ عهد بلاجيوس (بلايو)[1] من أقطار شبه الجزيرة مثل ما حكم ألفونسو الأول الأرجونى من حيث سعة الملك وضخامته ، فقد ضم عقب وفاة حميه (ألفونسو السادس) إلى مملكته الأصلية ، وهى أراجون وناڤارا (نبرة) ميراث زوجه أوراكا المشتمل على ممالك ليون وقشتالة واشتوريش ، وعلى إمارتين جديدتين تؤديان الجزية هما جلّيقية والبرتغال . ولو ضمت إليه إمارة برشلونة لشمل حكمه جميع اسبانيا النصرانية ، أعنى النصف الشمالى الأكبر من شبه الجزيرة . وكان قد خلف أخاه « بيدرو » على عرش أراجون فى سنة ١١٠٥ بعد أن توفى وحيده وسميه حدثا . وكان بيدرو

---

(١) : بلاجيوس ، (وفى الرواية العربية بلاى أو بلايو) ، هو زعيم من زعماء القوط لعهد الفتح الإسلامى لاسبانيا ، التجأ إلى مفاوز جليقية الوعرة والتفت حوله شراذم قليلة من النصارى ، ولكنه استطاع أن يقاوم المسلمين وأن يردهم غير مرة عن تلك المعاقل الجبلية التى تسميها الرواية الإسلامية « بالصخرة » . وتركه المسلمون لما رأوا ضآلة شأنه ووعورة هذه الهضاب ، فقوى أمره ، واشتد ساعده ، وأعلنه الجليقيون ملكا عليهم . وكان هذا منشأ مملكة جليقية التى نمت فيما بعد واشتد بأسها (راجع أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٢٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١١٠ ، وج ٢ ص ٥٧) .

قد أبدى خلال حكمه الذى دام عشرة أعوام فروسية وتقى ، واستطاع بفتحه لحصنى بربشتر ووشقة المنيعين أن يمهد الطريق إلى افتتاح تُطيلة وسرقسطة ؛ وقام بغزوة حتى ظاهر بلنسية أبدى فيها شجاعة وبراعة . وكان يقيم فى المدن المفتوحة كنائس وأديارا ، ويغدق صِلاتِه على الكنيسة ؛ ومنح النصارى فى المدن الإسلامية المفتوحة امتيازات خاصة لتشجيع الزراعة ؛ ولما كانوا ملزمين بالخدمة العسكرية وقت الخطر نظراً لقربهم من بلاد العدو ، فقد ترتب على ذلك أن نهضت الطبقة الوسطى حتى كانت على قدم المساواة مع النبلاء تقريبا ، وتغلغل نفوذها فى شؤون الدولة كلها فى وقت لم يكن لها فى باقى البلاد الأوربية شأن يذكر .

ولما أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن النجاح ، وفاز الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا (باسكال الثانى) الحرب الصليبية فى إسبانيا ضد المسلمين . وإذ كان النصارى الاسبان قد منعوا من مرافقة الصليبيين إلى بيت المقدس فقد رأى بيدرو وكثير من رعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية فى اسبانيا ذاتها ضد « أعداء الدين » ، وحاصر بيدرو سرقسطة لمدى قصير (سنة ١١٠١ م) ، ولكن الفرصة لم تكن سانحة لتحقيق هذا المشروع ، لأن المرابطين استعادوا بلنسية بعد ذلك بقليل ؛ وغدوا فى مركز يسمح لهم بمعاونة المستعين بن هود معاونة قوية ، ومن ثم فقد اضطر النصارى إلى ترك الحصار .

وسار ألفونسو بعد وفاة أخيه بيدرو فى أثر أسلافه بوسائل أعظم وخلال أبرع . وغدا بزواجه بأوراكا ابنة ملك قشتالة سيد اسبانيا النصرانية ، يسيطر على قوى حربية زاخرة رأى أن يخصصها قبل كل شىء لافتتاح سرقسطه . وكان المرابطون قد احتلوا هذه القلعة المنيعة على كره من أميرها المستعين (سنة ١١٠٨ م) واتخذوها قاعدة للإغارة على قطلونية وأراجون[١] . بيد أنهم كانوا

(١) دخل المرابطون بقيادة أميرهم عبد الله بن الحاج مدينة سرقسطة لأول مرة =

يتكبدون الخسائر أحياناً ، إذ كان ألفونسو يطاردهم عند العودة ، بل لقد هُزم المرابطون بقيادة ابن الحاج وحليفهم أبو بكر بن ابراهيم والى مرسية فى معركة دموية حطمت قواهم ، واستطاع ألفونسو أن يضرب الحصار حول تطيلة . وقدر المستعين أمير سرقسطه أهمية تطيلة نخف إلى إنقاذها فى جيشه ، ولكن الأمير الباسل هزم فى الموقعة التى نشبت . بيد أنه لم يعش ليشهد عار الهزيمة ، إذ سقط فى الميدان وهو يقاتل قتال الأبطال . وعلى أثر هذا النصر المجيد الذى أحرزه الأرجونيون سقطت تطيلة فى أيديهم فى فبراير سنة ١١١٠ م (رجب سنة ٥٠٣ هـ) .

وما كاد نبأ مصرع المستعين يعرف فى سرقسطة حتى تولى الأمر من بعده ولده أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بعماد الدولة ، وكان أميراً شجاعا ولكنه لم يكن مثل أبيه ذكاء وفطنة ، ولم يستطع مثله أن يوطد لنفسه نوعاً من الاستقلال فى تلك الآونة العصيبة وإزاء جيرانه الأقوياء[١] .

ولكن أمرين أنقذا سرقسطة مع ذلك إلى أعوام أخرى ، بل مهدا السبيل لعود تطيلة إلى أيدى المسلمين[٢] ، فنى ذلك الوقت نشبت بين ألفونسو وبين زوجه أوراكا حرب ذميمة استغرقت قواه مدى حين ، وعبرت قوى المرابطين الزاخرة من إفريقية إلى اسبانيا ؛ وتقدر قوى المرابطين التى عبرت عندئذ بمائة ألف فارس وثلاثة آلاف راجل ، وهو تقدير فيه مبالغة شديدة . وبينما كان ألفونسو مشغولا بمحاربة ملكة قشتالة ، مشغولا فى نفس الوقت بحماية حدود أراجون من غزوات المسلمين ، سار على بن يوسف بن تاشفين فى نخبة جنده المرابطين إلى

= سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ثم دخلوها للمرة الثانية بعد أشهر قلائل بقيادة محمد بن الحاج (سنة ٥٠٢ هـ) واستولوا عليها وأخرجوا منها بنى هود (روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤) وفى رواية ابن الأبار أن أهل سرقسطة استدعوا محمد بن الحاج اللمتونى والى بلنسية ، فدخلها فى ذى القعدة سنة ٥٠٣ هـ (الحلة السيراء ص ٢٢٥) .

(١) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء (ص ٢٢٤ و ٢٢٥) .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٦

ولاية طليطلة ، واستولى على عدد كبير من القلاع والحصون الصغيرة ، وانتسف الحقول ، واسترق السكان ، وبث الذعر والروع حتى أبواب عاصمة اسبانيا النصرانية . أجل كانت طليطلة يحميها موقعها فوق الآكام ، وأسوارها المنيعة ، وحاميتها الكبيرة من اقتحام العدو لها . ولكن مدريد (مجريط) ووادى الحجارة وطلبيرة وغيرها أخذت عنوة وقتل سكانها الذين اجترأوا على المقاومة[١] وعندئذ فقط رأى سلطان المرابطين أنه يستطيع العودة إلى قرطبة مكللا بغار الفخر فارتد تاركا وراءه آثاراً مروعة من التخريب ؛ وبعد أن عهد إلى قائده مزدلى بتكرار هـذه الغزوات المخربة عاد إلى إفريقية حتى لا يطول غيابه عن مراكش عاصمته ومركز مملكته الشاسعة .

وفى نفس الوقت الذى كان علىّ يهدد فيه طليطلة ، سار جيش آخر من المرابطين بقيادة الأمير سير بن أبى بكر إلى البرتغال لمقاتلة أميرها الكونت هنرى ، وافتتح شنتره وبطليوس ويابره (أو يافورة) وشنترين وأشبونة . وهدد قلمرية عاصمة الولاية[٢] ، وسار جيش ثالث بقيادة والى مرسية ، فاخترق سرقسطة ، وحاصر برشلونة مدى عشرين يوما ، ولم يرفع المسلمون الحصار إلا عنـد ما زحف عليهم ألفونسو فى جيش زاخر من الأرجونيين والقطلونيين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية أثخن فيها كل منهما فى الآخر دون أن يحرز أحدهما نصراً حاسماً ، وغادر المسلمون برشلونة وقد عاثوا فيها (سنة ١١١١ م — ٥٠٤ هـ)[٣].

وكان المرابطون يكررون هذا العيث فى أراضى النصارى كل عام تقريباً ويعودون غالباً بغنائم عظيمة وكثير من الأسرى . وفى سـنة ١١١٣ م (٥٠٦ هـ)

---

(١) هذا هو الجواز الثانى لعلى بن تاشفين إلى اسبانيا ، وقد وقع فى سـنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ويقدر صاحب روض القرطاس جيش المرابطين يومئذ بأكثر من مائة ألف فارس ويفصل لنا أخبار هـذه الغزوة (ص ١٠٥) والتقدير مبالغ فيه بلا ريب . راجع أيضاً الحلل الموشية ص ٦٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠٤ .

سار مزدلى إلى طليطلة وحاصرها ثمانية أيام ولكنه لم يوفق فى مشروعه ، إذ أحرق النصارى آلات الحصار . بيد أنه استطاع بالرغم من مقاومة قوامس جليقية وإسراع ألفونسو بالقدوم فى جيش ضخم ، أن يستولى على قورية بممالأة بعض النصارى الناقمين ؛ ولكن برلانية أنقذت بعد أن حوصرت حيناً[١].

وفى العام التالى (سنة ١١١٤ م) غزا مزدلى قشتالة مرة أخرى وقفل ظافراً . ولكنه حين العودة هاجمه الكونت رودريجو نونيز صاحب وادى الحجارة فكر عليه ببراعة ورد النصارى بخسارة فادحة . وغرّه هذا الظفر فارتد إلى قشتالة غازياً فى قوة صغيرة واشتبك دون تحوط مع قوة كبيرة من النصارى فاستشهد وكثير من أصحابه ؛ وخلفه فى الولاية والقيادة ولده محمد بن مزدلى ، وكان مثله فى الجرأة والشجاعة[٢] وفى نفس هذا الوقت تقريباً (أوائل سنة ١١١٥ م) نقد المرابطون الجزائر الشرقية (البليار) ثم استردوها . وكان القطلونيين قد استولوا على جزيرة ميورقة بمعاونة البروفنسيين والبيزيين الذين أمدوهم بالسفن ، ولكنهم وصموا نصرهم بقتل أهلها المسلمين ؛ وسرعان ما حلت ساعة الانتقام ، ذلك أن المرابطين خشوا أن تغدو الجزيرة قاعدة لمهاجمة أملاكهم فى بلنسية وفى إفريقية ، فسيروا أسطولا إلى ميورقة واستردوها وانتقموا للمسلمين بقتل جميع سكانها النصارى .

ورأى المرابطون الانتفاع بأسطولهم المجهز فى أعمال الغزو ؛ فسيروا بعض سفنهم إلى شواطئ اشتوريش وجليقية ، وكان النصارى اعتماداً منهم على أن هذه الأنحاء بمأمن من الأعداء قد تركوا حصونها خرابا . فأثار نزول المسلمين الفجائى أعا روع بين سكان شمال غربى اسبانيا ، خصوصاً وقد انضم إليهم بعض القرصان الإنكليز . ولكن أسقف شانت ياقب استطاع أن يواجه الخطر بحكمة وروية ، فحشد سكان الريف فى المدن حماية لهم ، وطارد سرايا الأعداء التى تفرقت هنا

---

(١) يضع صاحب روض القرطاس تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٥٠٧ هـ (سنة ١١١٤ م) (ص ١٠٥) .

(٢) يشير صاحب روض القرطاس إلى هذه الغزوة ، ويسمى رود ريجو نونيز « بالزند غرسيس » ، ولكنه يقول لنا إن الأمير مزدلى توفى فى العام التالى (سنة ٥٠٨ هـ) .

وهنالك ، وهدأ روع السكان بإنشاء عدة سفن قام على بنائها صناع مهرة من جنوه وبيزا .

وكان من أثر انتساف الحقول فى اسبانيا الوسطى خلال الحروب المتواصلة ، ونقص المحصول المترتب على سوء الأحوال الجوية : أن عصف بشبه الجزيرة الاسبانية فى سنة ١١١٧ م قحط شديد ، ذهب فى سبيله من الأرواح ما لم يذهب من قبل بالحرب والسيف .

وإذا كانت غزوات المسلمين فى أراضى قشتالة لم تقمع يومئذ بأشد مما قمعت ، فذلك بسبب الحروب التى كانت تضطرم بين الملكة أوراكا وزوجها الملك ألفونسو ، وكانا يؤثران أحياناً أن يحطم كل منهما قوى الآخر على رد المسلمين عن أراضى المملكة ؛ وكان الشعب القشتالى نفسه منقسما على نفسه ، يؤيد هذا الفريق أو ذاك .

ولما رأى ألفونسو أن فريقاً من الشعب القشتالى لا يؤيده ، حاول أن يوطد مركزه بوضع حاميات وثيقة فى الحصون ، وعمد إلى استخدام قواته الباقية فى توسيع مملكته الأصلية ، أعنى نافارا وأراجون . وفى سنة ١١١٤ م (٥٠٨ هـ) سار الكونت برش إلى تطيلة فى قوة من الفرسان الفرنسيين والإنكليز ، وكان هؤلاء يهرعون إلى مقاتلة المسلمين لبواعث دينية ولتحقيق المغانم الدنيوية ؛ واستولى عليها بالخديعة ، وأقطعه الملك إياها على الجزية . ورغب النصارى فى سكناها بمنحهم بعض الامتيازات ، فوفد عليها كثير منهم فى وقت قصير .

وهنا اتجهت أبصار ألفونسو إلى سرقسطة ؛ وكان استيلاؤه على هذه القاعدة الهامة ضروريا لتأمين مملكته ، وللسيطرة على طريق الملاحة فى نهر أيبرو . وكان يرى أمنيته فى افتتاحها تدنو شيئاً فشيئا ، وذلك بالرغم من أن المرابطين لم يدخروا وسعاً فى معاونة أميرها عبد الملك بن هود . وكان قائد المرابطين الشجاع أبو محمد عبد الله بن مزدلى قد رد ألفونسو عنها مدى حين ؛ ولكن سرعان ما دب الخلاف بين المرابطين وبين أمير سرقسطة ، فكان ذلك معجلا بسقوطها ؛ ذلك أن

عبد الملك بن هود ساءه مسلك المرابطين فى محاولة السيطرة على المدينة ، فانشق عليهم وغادرها مع أسرته إلى حصن روطة التيع ، وعقد مع ألفونسو محالفة ضمت بها قواته إلى جيش قشتالة . ولم يستطع المرابطون مقاتلة القوى المتحدة ، فهزموا هزيمة شديدة ، واضطروا إلى الانسحاب من لاردة وسرقسطة سنة ١١١٧ م (٥١١هـ) [١] .

وحاول المرابطون استرداد ما خسروا ، فسار الأمير الشجاع تميم بن يوسف (أخو على) إلى الغزو على رأس جيش ضخم ، ولكن الحملة منيت بالفشل المطبق لما أبدى ألفونسو من البراعة واليقظة . ذلك أن حرس الحدود أخطروه فى الوقت الملائم باقتراب العدو ، ومع أنه أخطر فى الوقت نفسه بكثرة عدده فإنه لم ير بدا من خوض المعركة التى أرادها تميم ، وهنا غلبت مهارة القيادة مرة أخرى على ضخامة العدد ، فهزم تميم وفر فى عشرة آلاف من جنده — هى بقية جيشه الممزق — صوب بلنسية ، واحتفل الحلفاء بالنصر فى جميع أنحاء المنطقة التى حررت من العدو .

وإذا كان التفاهم قد استمر إلى ذلك الحين بين ألفونسو وأمير سرقسطة فإنه ما لبث أن اضطرب مذ زال خطر العدو المشترك ، وطالب ملك أراجون بتسليم سرقسطه ، فأبى عبد الملك إباء قاطعا ، ولم يدخر وسعاً فى الاستعداد لرد دعاوى الأرجونيين بقوة السيف . بيد أنه قبل أن يتمكن من تزويد المدينة بالقوات الكافية قدم جيش أراجونى فأحدق بها ؛ وكانت تعاونه سريات كبيرة من الفرسان الفرنسيين قدمت فى طلب الغنيمة والكسب . وقاوم أهل سرقسطة المحاصرين فى البداية مقاومة عنيفة ، ولكنهم ما لبثوا أن شعروا بنقص وسائلهم وأهباتهم ، إذ نفدت المؤن والأقوات بسرعة ، ولم يك ثمة أمل فى الغوث والإنقاذ . ولم يك أمامهم سوى قتال يأس لا طائل تحته . عندئذ عولوا على المفاوضة ، وقبل ألفونسو أن يفاوضهم لكى يعجل بالاستيلاء على المدينة الهامة .

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٠٦ .

واتُفق على أن يؤمن أهل سرقسطة فى النفس والمال ، وأن يكونوا أحراراً فى مزاولة شعائر دينهم ، والاحتكام إلى قضاتهم وشرائعهم ، وأن يترك لهم الخيار فى البقاء والهجرة بأموالهم . وبعد أن قطع ألفونسو على نفسه هذه العهود فتحت له سرقسطة أبوابها ، فدخلها فى ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ م (رمضان سنة ٥١٢ هـ). وسار عبد الملك بأمواله وأسرته وحرسه إلى حصن روطة الشاهق ، وصحبه نفر من أهل سرقسطة . وهاجر كثير منهم إلى مرسية وبلنسية مؤثرين مغادرة الوطن حيث كانت وطأة النصارى تشتد على المسلمين يوما بعد يوم[1] .

وانهار بسقوط سرقسطة ثانى معقل للمسلمين فى اسبانيا ، بعد أن لبث فى قبضتهم أربعمائة عام . واتخذ ملك أراجون سرقسطة عاصمة للملك ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وجعل منها مركزاً لأسقفية ، ومنح سكانها (النصارى) حقوق الأشراف الأصاغر وامتيازاتهم ، وكافأ الفرسان الفرنسيين الذين استمروا فى معاونته حتى أخذ المدينة ، ولا سيما الكونت جاستون دى بيارن فقد أقطعه حى سرقسطة الذى كان يقطنه النصارى المعاهدون من قبل ، وأنعم عليه بلقب « سيد سرقسطة » .

وكان المسلمون ما زالوا يملكون على مقربة من سرقسطة عدة مدن هامة بجمل مواقعها الجبلية الوعرة وحصونها القوية من الصعب حصارها ، فانتهز ألفونسو فرصة الروع الذى بثه سقوط العاصمة ، وسار بعد أن نظم شؤون سرقسطة ، إلى جبال سيارا مولينا التى تفصل بين أراجون وقشتالة ، وكان للمسلمين بها عدة نقط دفاعية منيعة ، واستولى خلال ثلاثة أعوام على طركونة وقلعة أيوب ، ودروقة وعدة أخرى من الحصون القريبة ، وأعاد فى طركونة مركز الأسقفية القديمة . وكان أبو الطاهر تميم أخو على بن تاشفين قد خف لإنجاد قلعة أيوب بجيش قوى ونشبت بينه وبين النصارى فى كوتاندا موقعة

(١) راجع فى سقوط سرقسطة روض القرطاس ص ١٠٦ ، والحلة السيراء ص ٢٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٨٥ .

دموية هزم فيها ، وقتل من جنده عشرون ألفاً ، وسقطت القلعة على أثر ذلك فى أيدى النصارى (ربيع الثانى سنة ٥١٤هـ — ١١٢٠ م)[١] ، وأنشأ ألفونسو على مقربة من هذه المدينة ، فى بسيط قفر ، قلعة جديدة سميت قلعة « مونريال » Monreal لتكون منزلا لجمعية جديدة من الفرسان أسست لحماية الدين .

وجاز على بن تاشفين بنفسه إلى اسبانيا فى سنة ١١٢١م ، وهو يضطرم ألما لهذه المحن ؛ وغزا أراضى طليطلة والبرتغال ، وأثخن فيها واستولى على قلعة قلمرية الهامة ، وأتى على جميع سكانها النصارى قتلا وأسرا[٢] ، وهى واقعة لم تشر إليها الرواية النصرانية . بيد أن ذلك كله لم يكن إلا تعويضاً زهيدا لما أصاب الإسلام . ثم عاد إلى قرطبة ومنها إلى إفريقية بعد أن عهد إلى أخيه تميم بالنظر فى شؤون الأندلس .

ومن ذلك الحين يغرب طالع المرابطين شيئاً فشيئا . وثارت فى قرطبة حيث كانت الحامية المرابطية ترهق السكان بكل صنوف الاضطهاد والظلم ، ثورة شديدة فاضطر علىّ أن يعبر من إفريقية إلى الأندلس بجيش ضخم ؛ وقاومه الثوار فى البداية مقاومة شديدة ، فضيق الحصار على المدينة حتى خضع أعيانها واشتروا سلامتهم لقاء مبلغ كبير من المال[٣] وما كاد على ينتهى من إخماد هذه الثورة حتى اضطرمت فى إفريقية ثورة أخطر وأبعد أثراً ، واستغرقت كل اهتمامه وقواه ، فلم يتح له أن يولى شؤون الأندلس كثيراً من عنايته . وكان ذلك بدء نهوض الموحدين الذى انتهى بسقوط دولة المرابطين ، وهو سقوط عجلت به أحوال الأندلس واضطرابها الذى ظهرت بوادره مذ شغل المرابطون بحروب إفريقية .

وشجع ظفر الجيوش النصرانية التى استطاعت فى مدى قصير أن تفتتح قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية ، النصارى المعاهدين Mozarabes [٤] ، وهم

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ وهو يصف جواز على بن يوسف هذه المرة إلى الأندلس بأنه الجواز الثانى ؛ ولكن صاحب الحلل الموشية يصفه بأنه الجواز الثالث (ص ٦٢) .

(٣) يقدم إلينا ابن الخطيب فى الحلل الموشية تفصيلا حسناً لثورة قرطبة على المرابطين (ص ٦٣) .

(٤) النصارى المعاهدون ، أو المعاهدون فقط ، هم نصارى الأندلس الذين كانوا =

جمهرة كبيرة فى الأندلس ، على الأمل بأن انشغال على بحروب إفريقية واضطراب سلطانه فى شبه الجزيرة ، سوف يؤديان إلى تحطيم النير الذى فرضه الاسلام على النصرانية فى اسبانيا منذ أربعة قرون ؛ وقد كان مركزهم فى الواقع لا بأس به ، إذ كانوا أحراراً فى إقامة شعائرهم الدينية ، والاحتكام إلى قضاتهم وفقاً للشرائع القوطية . ولكن هل تستطيع أمة كانت حرة مستقلة أن تشعر بالسعادة مهما بلغت من رفاهة العيش إذا استحالت من سيدة حاكمة إلى مسودة مستذلة لأمة أخرى تبغضها من أجل الدين ؟ هـذا إلى ما كان يسود جميع الأمم الأوربية فى ذلك العصر من اضطراب يرجع إلى تلك الحروب التى شهرت على الاسلام فى سبيل نصرة الدين (الحروب الصليبية) .

ولم يكن فى وسع النصارى المعاهدين أن يقوموا فى الأندلس بشىء دون معاونة من الخارج ؛ ذلك أن القلاع كلها كانت فى يد المسلمين ، هذا فضلا عن تفرقهم فى مختلف الأنحاء ؛ ولم يكن فى وسعهم أن يتحدوا إلا إذا شغل المسلمون بحرب تقع فى الداخل ، ومن ثم فقد أرسلوا رسلهم إلى ألفونسو ملك أراجون الذى ارتفع صيته إلى الذروة بالاستيلاء على سرقسطة ، فشرحوا له أحوال الأندلس وأحوال قلاعها شرحا ضافيا ، ورجوه أن يجهز حملة إليها ، وتعهدوا أن يعاونوه بالنصح والعمل كمرشدين ومحاربين . فلما أبدى ألفونسو تردداً فى قبول المشروع نظراً لبعد المكان وعدم الاطمئنان إلى الوعود المقطوعة ، كرر النصارى المعاهدون السعى والرجاء ، ووعدوه بأن يحشدوا لعونه فى الحال اثنى عشر ألف مقاتل ، وبأن ينضم جميع النصارى فى جنوب اسبانيا إلى جيشه حال ظهوره ؛ وأنهم سوف يغتبطون جميعاً باعتباره سيدهم ومليكهم ، وأنه سوف يغتنم بافتتاح الأندلس أجمل وأخصب وأسعد بقاع اسبانيا[1] .

= يعيشون فى الأراضى الإسلامية ويخضعون للحكم الإسلامى ، ويسمون بالافرنجية Mozarabes بالاشتقاق من كلمة « مستعربين » على ما يظهر . وأما المسلمون الأندلسيون الذين كانوا يعيشون فى الأراضى النصرانية ، ويخضعون لملوك النصارى فيقال لهم « المدجنون » ويقابلها بالافرنجية كلمة Mudéjares .

(١) راجع الحلل الموشية ص ٦٦ حيث يفصل تصرفات النصارى المعاهدين .

فتغلب هذا الإغراء في نفس الملك على ما كان يتصوره من صعوبة المشروع ، وما يحفه من ضروب المخاطرة . ولم يفكر في أن القلاع الاسلامية المتعددة في ولايتى بلنسية ومرسية سوف تقدم حتما على طعنه من الوراء متى دخل ولاية غرناطة ، وأنه ليست هناك أية قاعدة ثابتة ، وليس أمامه سوى وعود النصارى المعاهدين ، وهي وعود لا يعول عليها . ومع ذلك فقد كان في روح العصر ما يسمح باتخاذ القرارات السريعة المرتجلة ، وهي روح ترتبت على الثقة في عون الله على تذليل الصعاب مهما عظمت . وكان فتح بيت المقدس بيد النصارى في كل مكان مثلا ساطعاً لهذا العون .

ففي يوليه سنة ١١٢٥ (شعبان سنة ٥١٩ هـ) خرج ألفونسو في جميع فرسانه ، أو حسبما تقول الرواية العربية في أربعة آلاف فارس أقسموا أن ينتصروا أو يموتوا[1] ، وقاده النصارى المعاهدون إلى بلنسية ، ولكنه لم يقف لحصارها ، بل اخترق الولايات الإسلامية وهو يثخن فيها وينتسف حقولها ، حتى وصل إلى مقربة من غرناطة تاركا وراءه شقر ودانية ومرسية وبياسة وجيان وغيرها من الأماكن المنيعة دون افتتاح ، وجيشه يتضخم يوما بعد يوم بانضمام النصارى المعاهدين إليه ، ويغدو على المسلمين أشد نكاية وضرا . ولو نجح ألفونسو في الاستيلاء على غرناطة وبها كثير من النصارى الموالين له لاتخذت الحرب وجهة خطرة على سلطان المرابطين ؛ ولكن والى غرناطة كان رجلا وافر العزم ، فاستطاع بالرغم من صغر الحامية أن يرهب نصارى غرناطة ، وأن يحول بما اتخذه من الاجراءات القوية دون ثورتهم ، وأن يشدد الرقابة عليهم دون أن يدفعهم بالمطاردة والاضطهاد إلى الهياج ؛ واستقدم الجند من الأنحاء المجاورة إلى المدينة بسرعة وانتظر مقدم النصارى . وكان الجيش النصراني قد بلغ عندئذ زهاء خمسين ألف مقاتل ، فضرب الحصار حول غرناطة شاعراً بقوته وتفوقه ؛ ولكن رداءة الطقس وما اقترن بها من المطر والعواصف الثلجية حالت دون القيام

(١) هذا ما ورد في الحلل الموشية ص ٦٧ .

بحصار ناجع ، واضطر النصارى إلى إضاعة بضعة أسابيع لم يوفقوا فيها إلى شيء . وفى تلك الأثناء هدأ روع أهل غرناطة ، واقترب وصول الأمداد التى قدم بها أبو الطاهر تميم ، فاضطر ألفونسو أن يرفع الحصار عن غرناطة ؛ ولكنه لما رأى المؤن تنهال عليه من المعاهدين من كل صوب قرر أن يمضى فى مغامرته ، وأن يسير صوب البحر الأبيض المتوسط ، تاركا غرناطة وراءه دون فتح ، وأن يضم تحت لوائه نصارى مالقة والبشرات .

ومضى ألفونسو فى هذا السير الوعر ، وعلى مقربة منه صفوف الفرسان المرابطين الكثيفة تسير بحاذاته ، وترقب كل فرصة صالحة للقتال ، حتى وصل إلى « اليسانة » ، وهى محلة تقع بين غرناطة والبحر الأبيض المتوسط . وهنا رأى المرابطون أن هذا البسيط يصلح لمارك الفرسان ، ولم يقو الفرسان الافريقيون على كبح جماح رغبتهم فى القتال بعد ، فانقضوا على مقدمة النصارى وألجأوها إلى الفرار ، واعتقدوا أنهم بذلك هزموا الجيش النصرانى كله ؛ وبينما شغلوا باقتسام الغنائم الثمينة ، إذ انقض ألفونسو على صفوف المسلمين الناهبة انقضاض النسر من الجو ومزقها تمزيقا ، واسترد الغنائم المفقودة ، واحتوى على أسلاب العدو وطارده حتى دخول الظلام . واستطاع النصارى بهذا النصر الباهر أن يتابعوا السير دون أن يزعجهم أحد فى شعب البشرات الضيقة حتى خليج على البحر الأبيض بين مالقة والمرية ، وبذا بلغوا البحر الذى أقسم الملك وفرسانه أن يبلغوه . وهنالك أمر ألفونسو بصنع مركب فى البحر ، وأخذ يتلهى بصيد السمك للتدليل على مبلغ ما حقق من نذره ، ولكى يروى فيما بعد أن ملكا من ملوك أراجون خرج من سرقسطة وترك وراءه كثيراً من أراضى العدو ، وقام بصيد السمك على الشاطىء المقابل لافريقية كما يفعل فى بلاده[1] .

ومن ثم عاد ألفونسو أدراجه ، وانضم إلى جيشه أثناء العودة كثير من

(١) فى الحلل الموشية تفصيل ضاف لهذه الغزوة التى قام بها ألفونسو فى قلب الأندلس وحصاره غير الموفق لغرناطة وما نشب بينه وبين المسلمين من مختلف الوقائع (ص ٦٧ — ٦٩) .

نصارى البشرات ، وسار صوب غرناطة كرة أخرى ؛ ولكنه لما رأى أنه لا يستطيع أخذ المدينة المحصنة دون حصار طويل ، وأن قوات العدو تزداد كل يوم ، اتجه صوب مدينة وادى آش ، وترك على مقربة منها قسما من جيشه فى إحدى القلاع لكى يحمى خط رجعته ؛ ولكن سرعان ما أصاب الوهن والانحلال جيش النصارى ، وذلك من جراء قسوة الطقس ، وقد كان الفصل شتاء ، والسير الشاق فوق الربى العالية ، وما تفشى فيه من الأمراض الوبائية . ومع ذلك فقد أوقع النصارى بالمسلمين أضراراً فادحة ، وبثوا بينهم الذعر والروع ، وحصلوا منهم على غنائم عظيمة . وهكذا توجت هذه الغزوة بالنجاح ، وإن لم تقع خلالها فتوحات جديدة ؛ ثم عاد الجيش الأرجونى مخترقاً ولايات مرسية وشاطبة وبلنسية إلى بلاده وفرسان المرابطين تلاحقه باستمرار ، وتنقض عليه فى معارك صغيرة ، بعد أن غاب عن أراجون زهاء ستة أشهر ، وكان قد انضم إليه أثناء ذلك اثنا عشر ألفاً من النصارى المعاهدين ، آثروا هجرة أوطانهم خشية نقمة المسلمين ؛ وسرعان ما حلت فى الواقع نقمة سلطان المرابطين بإخوانهم الباقين ، فقد غُرِّبت منهم بأمره ألوف عدة إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك فى أماكن مختلفة ، وهلك كثير منهم من جراء الطقس المتغير والماء الآسن ، وتغير وسائل التغذية[1] ؛ وكان أسعدهم حظا أولئك الذين ضمهم على بن تاشفين إلى حرسه الخاص ، فقد استطاعوا بإخلاصهم الفائق أن يغتنموا وافر عطفه وثقته .

وفى وسعنا أن نقارن حملة ألفونسو إلى الأندلس واختراقه بهذا الجند القليل عدة ولايات إسلامية ، بسير اليونان فى عشرة آلاف مقاتل فقط إلى مملكة الفرس . وإذا كان ثمة فرق فى المسافة فان الجرأة فى المشروعين واحدة ؛ ولو لم يكن الفاتح يكتفى يومئذ بالاعتماد على قوة السواعد ، وكانت المشاريع العسكرية

(١) كان تغريب النصارى المعاهدين من الأندلس إلى إفريقية بناء على فتوى القاضى أبى الوليد بن رشد وقد أبان فيها أن ما جناه النصارى المعاهدون على الأندلس من استدعاء الروم ، وما فى ذلك من نقض للعهد والخروج عن الذمة يقتضى تغريبهم وإجلاءهم عن أوطانهم وقد أخذ أمير المسلمين بقوله (الحلل الموشية ص ٧٠ ، ٧١) .

تنظم على هدى الروية والعقل أكثر مما توجهها الحماسة الطارئة ، لاستطاع ملك اسبانى أن يتشبه بالاسكندر وأن ينظم مشروعاً لسحق العدو القومى . ولو أغضى القشتاليون والليونيون عن خصومتهم للملك أراجون وأيدوه فى حملته بتوجيه الجند ضد بلنسية وقرطبة ، وسير البرتغاليون والجليقيون فى الوقت نفسه قواهم ضد إشبيلية ، لكان من المحقق بوجه عام — مع عون النصارى المعاهدين ومع قلة الأمداد التى يمكن أن يبعثها المرابطون الذين شغلتهم ثورة الموحدين — أن تغرب دولة الاسلام فى اسبانيا قبل الوقت الذى غربت فيه بثلثمائة وخمسين عاماً ؛ وكثيراً ما يتوقف سير الشعوب على مشروع أحسن تدبيره أو أسىء .

٢ — أوراكا ملكة قشتالة

كثيراً ما تنهار أذكى التدابير الانسانية بفعل حادث طارئ . فقد توقع ألفونسو السادس مغتبطاً بفكرة أن زواج ابنته من ملك أراجون سيغدو دعامة لمستقبل اسبانيا ، وسيقضى على دولة الاسلام إلى الأبد . ولكن حدث العكس ، وانقلب هذا الزواج شؤما ونقمة على النصارى ، ودفع بهم إلى غمار الحرب الأهلية ، وحدّ من ظفرهم على المسلمين . وكان مثار الاضطراب فى مملكة قشتالة يرجع بالأخص إلى اختلاف الزوجين الملكيين ؛ ذلك أن أوراكا كانت امرأة وافرة الكبرياء والطموح إلى السلطان ، أفسدها ما رأت من خضوع زوجها الأول الكونت رعوند البورجونى ، فقبضت على زمام السلطة فى قشتالة ، وفى الأراضى التابعة لها ؛ على حين أن زوجها لم يكن يرغب فى أن تشاطره الحكم بأى وجه ، فكان هذا مثار جميع المنازعات والحروب التى نشبت بينهما ؛ وعمدت أوراكا توطيداً لسلطتها إلى إقالة جميع الرجال الذين اعتقدت أن ولاءهم للملك يفوق ولاءهم لها من مناصبهم ، ورفعت من اصطفتهم إلى أرفع مناصب الدولة ، فاستشاط الملك لذلك غضباً ورأى أن كرامته تقضى عليه بألا يتنازل عن أى حق من حقوقه الملكية .

وما كاد الخلاف يضطرم بين الملكين حتى غدا من المتعذر التوفيق بينهما ، إذ كان يحدو كلا منهما نحو صاحبه بغض متأصل لم يلطفه الحب قط . وأثارت أوراكا — بما كانت تبديه نحو بعض كبراء قشتالة من عطف خاص كان يوسم بميسم العلائق الغرامية — في نفس الملك أيما ثورة فكان يتقصى كل خطواتها .

وأرادت أوراكا الطلاق والتخلص من هذا الزوج الذي كانت تبغضه منذ البداية نظراً لما كان يربطها بزوجها الملك من أواصر القربى الوثيقة ، فأبى ملك أراجون لأن الطلاق يفقده حق الحكم في قشتالة ، وبذل كل ما في وسعه للقضاء على الدسائس التي تديرها الملكة لإثارة الشعب القشتالي عليه ، فملأ الحصون بالجند الأرجونيين بحجة حماية قشتالة من غارات المسلمين ، ورتب لها قادة من أشد المخلصين له ، ثم أمر فجأة باعتقال الملكة في قصر كاستلار وأذاع أنها تحاول بث الثورة وأنها بسوء سلوكها تضيع هيبة الملوكية .

ولكن الملكة فرت من معتقلها ، وجزع الملك لذلك أيما جزع إذ كان المسلمون يغزون يومئذ أراضي قشتالة ويهددون أراجون . وكان الملك في أشد الحاجة لعون القشتاليين ؛ وانضم القشتاليون إلى جانب الملكة وتوسطوا بين الزوجين لعقد نوع من الصلح أو المهادنة اتقاء لخطر المسلمين . ولكن هذا الصلح لم يطل أمده ؛ وأثارت الملكة زوجها مرة أخرى بعلائقها الغرامية مع الكونت جومز وطموحها إلى السلطة ، فرأى أن يقبض بيديه على زمام الحكم في قشتالة دون أن يعبأ بالملكة وحقوقها .

واستمر النزاع على هذا المنوال علماً ، ثم انقلب إلى حرب علنية . وكان الأشراف والفرسان في قشتالة وليون واشتوريش يمقتون سيادة الأرجونيين ، ومن ثم فقد رأوا تحطيمها بالانضمام إلى الملكة وتأييدها في حقوقها ؛ وفي اجتماع عقد في ساهاجون في سنة ١١١٠م أعلن أن قوامس قشتالة الذين يبقون على ولائهم للملك ويرفضون طاعة الملكة ولا يقاتلون معها يفقدون حقوقهم وأراضيهم ؛ فارتاع القوامس القشتاليون من حكام القلاع بهذا القرار وبادروا

بتسليم قلاعهم إلى الملكة نا كثين بعهدهم لملك أراجون ؛ وسار أحدهم وهو القومس الشيخ بيدرو أسورز إلى ملك أراجون ، وقد ارتدى ثوباً قرمزيا ، وامتطى مهراً أبيض ووضع حبلا فى عنقه ، ليلقى منه جزاء نكثه مختاراً ، معتذراً بأنه لم يستطع أن يتخلف عن قضية الوطن ، فعفا عنه الملك مقدراً تضحيته المزدوجة ، واحتفاظه بشرفه وولائه إزاء الفريقين .

ولكن بقيت لألفونسو بالرغم من خروج القوامس القشتاليين عليه عدة حصون وقلاع فى قشتالة تحتلها الجنود الأرجونيسة ، ومكن له بذلك من استبقاء العاصمة طليطلة . وبدأ القشتاليون الحرب بمحاصرة هذه القلاع فهرع ملك أراجون إلى إنجادها ؛ وبينما كان المسلمون يغيرون على الأراضى النصرانية المجاورة ويثخنون فيها عيثاً وتخريبا ، كان القشتاليون والأرجونيون يسيرون إلى ميدان الحرب للاشتباك فى صراع دموى يحدوه بغض مضطرم ، وانضم الكونت هنرى أمير البرتغال إلى ألفونسو إذ لم يكن ثمة ما يخشاه من أراجون ؛ وكان بالعكس يتعذر عليه أن يتحرر من خضوعه لقشتالة . وفى ٢٦ أكتوبر سنة ١١١٠م التحم الجيشان فى معركة دموية فى « كامبودى سبينا » على مقربة من « سبولفيدا » فوقعت الهزيمة على القشتاليين ، وكان يقودهم الكونت جومز والكونت بيدرو دى لارا صاحبا الملكة . وهلك جومز مع عدة آلاف من مواطنيه ، ولاذ بيدرو بالفرار ، وتابع ملك أراجون وأمير البرتغال ظفرهما واستوليا على مدينة برغش (برجوس) عاصمة قشتالة القديمة ، ثم استوليا على بالانسيا Palencia وليون وكاريون وساهاجون دون مقاومة . وفر لدى مقدم الأرجونيين جميع الأساقفة ورجال الدين الموالين للملكة ؛ فاستشاط ألفونسو لذلك غضباً وقرر معاقبتهم بنهب كنائسهم وأديرتهم . هذا إلى أنه كان فى أشد حاجة إلى المال لسد نفقات الحرب ؛ وبثت انتصارات ألفونسو فى البداية أيما روع حتى أن كثيراً من أنحاء جليقية القاصية خضعت له طوعا ؛ ولكن رجال الدين لجأوا إلى نفوذهم وتأثيرهم فى الشعب ، فأثاروه وصوروا له ملك أراجون وجنده فى صورة القتلة الظالمين ، الفاسقين ، الناهبين

لأموال الكنائس والناس ، وما إليها من النعوت والأوصاف ، فهب الشعب فى شمال غربى اسبانيا كله إلى معركة حياة أو موت يؤيدها رجال الدين بكل قواهم .

وكان أشد خصوم ألفونسو وأوفرهم عزماً وجرأة ديجو جلميرز أسقف شنت ياقب ؛ وكانت جليقية يومئذ إمارة نصب عليها ولى العهد (الأنفانت) ألفونسو ولد أوراكا من زوجها السابق رعوند . فلما ظهر خطر الأرجونيين اتفقت كلمة الأحزاب والكبراء وعلى رأسهم الأسقف على أن يطلبوا إلى الملكة أوراكا أن يتوجوا ألفونسو ملكا عليهم ، وذلك بالرغم من أنه لم يكن يجاوز السادسة من عمره ؛ ونفذ المشروع بالفعل وتوج الأمير الطفل ملكا لجليقية فى حفل باهر (سبتمبر سنة ١١١٠م) ، وما كاد يتم هذا التتويج حتى جاءت أنباء انتصارات ألفونسو فى موقعة « كامبودى سبينا » وتلتها أنباء فتوحاته الأخرى . واشتد الخطر حينما ظهرت فى بعض أنحاء جليقية بوادر الانتقاض على الملكة أوراكا ، وكانت يومئذ ممتنعة فى قلعة استرقه (استورجا) يحاصرها الأرجونيون .

وعندئذ غدا الأسقف ديجو روح كل مقاومة ضد أراجون فبث الأمل فى أنصار قشتالة ، وحمل الأنحاء المنشقة فى جليقية على العود إلى الطاعة ، واستطاع أن يبعد الكونت هنرى أمير البرتغال عن مخالفة ألفونسو — وكان قد بدا يخشى على إمارته من ظفره — وأن يضمه إلى جانب قشتالة . وبعث الملك الطفل على رأس جيش إلى استرقة لكى يجتمع حوله المخلصون من أهل ليون . وما كاد ألفونسو يقف على هذه الأنباء حتى سار فى قسم من جيشه إلى قتال الجليقيين وانتزاع الملك الطفل . ونشبت بين الجيشين على مقربة من ليون موقعة دموية (سنة ١١١١م) وكان الملك الطفل وهو المقصود بالذات فى صميم المعركة يتداوله الفريقان تباعاً حتى استطاع الأسقف أن ينقذه أخيراً بالرغم من انتصار الأرجونيين . وهنا ساء مركز أوراكا مرة أخرى سيما وقد شغلت جليقية بثورة دبرها الكونت بيرز خصم الأسقف بالتفاهم مع ملك أراجون ؛ ومضى ألفونسو فى محاصرة استرقة بشدة ، وكادت الحرب تنتهى لولا أن وفق الأسقف إلى تحطيم

الثورة ، وسير في الحال جيشاً لا يجاوز استرقة تؤازره قوة برتغالية ، وعملت السرايا القشتالية في الوقت نفسه على قطع المؤن عن الأرجونيين ، فاضطر ألفونسو إلى رفع الحصار وارتد صوب أراضيه ، ولكنه قبل العودة اشتبك مع القشتاليين بقيادة « بيدرو دي لارا » مرة أخرى . وهنا تختلف الرواية ، فيقول البعض إن القشتاليين استطاعوا أن يحدقوا بالجيش الأرجوني وأن يحصروه في شعب الجبال ، ولم ينقذه سوى وعد ألفونسو بتسليم بعض القلاع والحصون وهو وعد لم يحافظ عليه . ولكن هنالك رواية أصح وأوثق هي رواية رودريك الطليطلي وهي أن ملك أراجون هو الذي استطاع أن يحصر الجيش القشتالي في بلانسيا Palencia وأنه بعد أن أوقع به بعض الخسائر ارتد ظافراً إلى أراجون (ابريل سنة ١١١٣م) .

واستمرت الحرب الأهلية في الأعوام التالية تقطعها أحياناً غزوات المسلمين ؛ وانقسمت اسبانيا النصرانية إلى ثلاثة أحزاب كان أقواها وأشدها بأساً حزب ملك أراجون لأنه فضلاً عن مملكته الأصلية المشتملة على أراجون ونافارا كان يحتل أهم حصون قشتالة وتؤازره قوة كبيرة من الفرسان الفرنسيين ؛ وثانيها حزب قشتالة الذي ينضوي تحت لواء الملكة أوراكا ويؤازره رجال الدين في قشتالة وليون وجليقية ، ومن ورائهم الشعب يوجهونه بنفوذهم ؛ وثالثها حزب الأشراف وهو يعارض حكم الملكة وحكم ملك أراجون معاً ويعقد آماله على الملك الطفل ألفونسو ريموندز ملك جليقية ويؤازره معظم الفرسان في سائر أنحاء المملكة .

وكان الشعب الاسباني يتوق إزاء ما جره هذا التفرق على المملكة من ويل ، وما اقترن به من غزوات المسلمين المتوالية التي انتهت بمحاصرتهم لطليطلة ، إلى عقد الصلح بين الملك والملكة . وكان الفرسان ينقمون على الملكة نزولها عن السلطة وإدارة جميع الشؤون إلى خليلها ، وكاد الشعب يثور عليها لولا جهود الكهنة ونفوذهم لديه . وفي سنة ١١١٣م عقد في برغش برلمان شهده الأساقفة والقوامس وكبراء الدولة ونواب المدن ليعمل على تسكين الهياج ، وعارض فيه

الأسقف ديجو أسقف شنت ياقب كل فكرة فى الصلح بين الملكين وأعلن بطلان الزواج المعقود بينهما ، وحدثت بينه وبين الفريق الناصر للصلح مشادة كادت تنتهى بالاعتداء عليه لولا أن أنقذه بعض الكبراء وعاونوه على القرار .

وكان مسلك برنار مطران طليطلة أكثر اعتدالاً ، فقد اقترح أن ينتظر القرار البابوى الذى سيصدر فى شأن الزواج ، وقد صدر هذا القرار فى المجمع الكنسى الذى عقد فى العام التالى قاضياً ببطلان الزواج بسبب القرابة الشديدة ؛ ولكن ملك أراجون أعلن بطلان القرار البابوى ، ثم أعلن الحرب على قشتالة واستولى على ولاية « ريويا » التى كانت تابعة من قبل لمملكة نافارا ، وعاون أشراف جليقية خصوم الأسقف ديجو على الثورة عليه ، ولكنه انتهى بإخضاعهم والتغلب عليهم .

ثم سكنت الحرب بين أراجون وقشتالة بضعة أعوام شغل فيها ألفونسو بالاستيلاء على سرقسطة وغيرها من القواعد الإسلامية المجاورة ؛ ولكن حالة قشتالة ساءت عندئذ حتى إنا لنعجب كيف أن الغزوات الإسلامية البرية والبحرية لأراضى قشتالة لم تسفر يومئذ عن فتوح ذات شأن . كذلك أغار القرصان الانكليز على الشواطئ الشمالية واشترك بعض الفرسان الصليبيين فى معاونة ثوار جليقية المناوئين للأسقف ديجو ؛ وأخيراً ساء التفاهم بين هذا الحبر الدساس وبين الملكة ذاتها ، وأخذ الحبر يتردد بين تأييد الملكة وتأييد ولدها الطفل . كذلك أخذت دونا تريزا أخت أوراكا لأبيها — وهى التى تولت حكم البرتغال بعد وفاة زوجها الكونت هنرى بالوصاية على ولدها الطفل ألفونسو — تنحرف عن أوراكا ؛ وكان كلاهما أعنى الأسقف وتيريزا يحاول تحقيق مصالحه الشخصية بالتقلب بين الحزبين . وكان مدار النزاع كله أتحكم امرأة هى أوراكا أم يحكم ولدها الطفل ملك جليقية ؟! ولكن أشراف جليقية انتهوا بإرغام الملكة على الاذعان ، وكانت يومئذ معتقلة فى « سوبروزو » ووضع البرلمان الذى عقد فى ساهاجون (سنة ١١١٦م) شروط الصلح ، وخلاصتها أن تتولى الأم وولدها الحكم معاً فى جليقية وليون

واشتوريش ، وأن تنفرد الأم بالحكم حال حياتها فى قشتالة على أن يخلفها ولدها وفقاً لوصية ألفونسو السادس .

ولكن الحوادث اضطرمت فى ناحية أخرى . ذلك أن الأسقف ديجو الذى عزل ونفى لصرامته وبطشه ، أعادته الملكة إلى منصبه ، وصحبته إلى مركزه فى شنت ياقب . فثار الشعب سخطاً لذلك ، واضطر الأسقف وصحبه والملكة وحاشيتها إلى الالتجاء إلى الكنيسة اتقاء سخطه ، فأضرم الثوار النار فيها دون اكتراث بسمعتها وصفتها المقدسة . ولما هرعت الملكة إلى الخارج خوفاً من اللهب أهانها الشعب وتطاول عليها ، واستطاعت بمعاونة بعض الأهالى أن تلجأ إلى كنيسة أخرى . أما الأسقف فاستطاع أن يفر متنكراً ، ولكن أتباعه هلكوا حرقاً وقتلا ولم تخمد النار إلا حينما ذاع فرار الأسقف ، ولم تجرؤ الملكة على معاقبة الثوار خوفاً من استفحال الفتنة . بيد أنه لم يمض بعيد حتى استطاع الأسقف الماكر أن يستميل قلوب الشعب مرة أخرى .

وكان ملك جليقية قد بلغ عندئذ الثانية عشرة من عمره ، وكان قد قام مع قادته المجربين بعدة حملات مظفرة ضد المسلمين ، وبلغ من إخلاص فرسان مملكة ليون وأساقفتها له أن نادوا به ملكا عليهم ، ولكنه لم يقنع بسيادة المملكتين وأخذ يطمح إلى سيادة قشتالة المملكة الرئيسية . وكان معظم أشراف قشتالة يخلصون للملكة ، ولكنهم كانوا يرون فى ولدها ألفونسو ريمونديز حاكمهم المستقبل ويؤيدونه فى مشاريعه الحربية . وكانت الحصون الهامة فى ولاية طليطلة أو قشتالة الجديدة ، بل كانت العاصمة ذاتها أعنى طليطلة ما تزال فى أيدى الأرجونيين . وكان حاكمها الكونت القارفانيز (البرهانس) قد استطاع أن يرد عنها كل هجمات المسلمين والقشتاليين بقوة ، ولكنه هلك فى سقوبية وهى إحدى المدن التى يحتلها الأرجونيون فى ثورة أهلية قامت بها ؛ وأبدى خلفه فى حكم طليطلة ردريجو نونيز مثل غيرته ومقدرته ؛ ولكن الحال فى طليطلة كانت تسوء من يوم إلى آخر ، وكان الضغط يشتد عليها من جانبين بلا انقطاع إذ كان يهددها المسلمون من الجنوب ،

ويهددها القشتاليون من الشمال ؛ وأخيراً فتك القحط المروع بالأرجونيين فاضطروا إلى فتح أبوابها لألفونسو رعوندز (سنة ١١١٧م) وتمت بذلك أول خطوة فى سبيل حصوله على عرش قشتالة .

وكانت هيبة أوراكا تهوى يوماً بعد يوم . وكان أسلوب حياتها المزرى بمقامها الملكى ، واصطفاؤها لخليلها الكونت بيدرو دى لارا مما يسخط الأشراف عليها ؛ ولم تلبث مدينتا سقوبية وسورية اللتان كانتا خاضعتين من قبل لملك أراجون وكذلك مدينة ليون أن اعترفت بألفونسو رعوندز ملكا عليها . وفى سنة ١١١٩م سار الملك الفتى على رأس فريق من فرسان قشتالة ، وقبض على الكونت بيدرو دى لارا وألقى به إلى السجن ، ولكنه فر من معتقله واحتمى بأمير برشلونة وأفادت الملكة من محنة خليلها إذ عاد الأشراف إلى طاعتها وعادت ليون فانضوت تحت لوائها .

ولما رأى ملك أراجون تحول الشعب القشتالى عنه وأنه لا سبيل إلى إخضاع قشتالة ، اكتفى بأن تلقب « بقيصر اسبانيا » أسوة بفرديناند وألفونسو السادس ، ثم تحول إلى محاربة المسلمين على ضفاف الأيبرو ، وأسدى بافتتاح سرقسطة والمنطقة الجبلية الفاصلة بين قشتالة وأراجون إلى وطنه يداً جليلة أسبغت على اسمه مجداً لم يكن ليسبغه عليه ظفره على القشتاليين فى عديد المواقع .

وكانت جليقية أشد الولايات الاسبانية اضطراباً تقتتل الأحزاب فيها لتأييد أوراكا أو ولدها أو للاحتفاظ باستقلالها . وكان الأسقف ديجو الذى رفعه البابا يومئذ إلى منصب المطران يذكى الاضطراب ببطشه وأطماعه . وكان هذا الحبر ينزل بنفسه إلى ميدان الحرب ويقاتل كأشجع الجند وأبرعهم ، فلما انتهى من قمع الثورة فى جليقية سار مع الملكة فى حملة إلى البرتغال لقتال الدونا تيريزا لأنها عاونت الثوار واستولت على بعض الأراضى . ولكن سرعان ما تخلى ديجو عن الملكة ، وسرح جنوده قبل انتهاء الحرب بصورة تدنو إلى الخيانة ، فاضطرمت أوراكا سخطاً وأمرت بالقبض عليه مع إخوته الثلاثة ، وفر صديقاه مطران براجا وأسقف أورنسة وكانا مع الجيش .

فأثارت شيعة المطران وتصرفات الملكة الثورة ، فى شنت ياقب ، وسخط الشعب ورجال الدين على أوراكا أيما سخط ، وبدا غضب الشعب بأجلى مظاهره حينما قدمت الملكة إلى « كومبوستل » لتشهد احتفال القديس ياقب . ولكن أوراكا لم تتأثر بشىء ولم تقبل الإفراج عن المطران . ومن الغريب أن هذا الشعب الذى أراد أن يبطش بالمطران قبل ذلك بأعوام قلائل اعتزم عندئذ أن يفرج عنه دون أن يحفل بالملكة ؛ فاستدعى ألفونسو ريموندز وما كاد الملك الفتى يظهر على رأس جنده ، حتى اضطرمت المدينة بالثورة وهدد الثوار أوراكا بالويل إذا لم يطلق سراح المطران فاضطرت عندئذ إلى الإذعان وأفرج عنه (سنة ١١٢١م) .

ولكنها حقدت على المطران أيما حقد ورأت أن تنتزع عنه بعض أملاكه الكنسية بعد أن عجزت عن اعتقاله ؛ فأثار ذلك نضالا جديداً ، واستطاع المطران أن يجتذب إلى جانبه معظم أشراف جليقية ، وأميرة البرتغال التى ما فتئت تناصر الاضطراب والحرب ، بل استطاع أن يضم تأييد الملك الفتى ألفونسو ريموندز نفسه ، ثم طلب إلى صديقه البابا كالكستوس الثانى أن يصدر قراراً ينفى الملكة وأنصارها من حظيرة الكنيسة ؛ وهنا اضطرمت الخصومة بين الاسبانيين مرة أخرى ووقعت عدة مصادمات سالت فيها الدماء ، وأصدر البابا قرار النفى المطلوب فرأت أوراكا أن لا سبيل إلى خوض هذا النضال ، فردت إلى الأسقف أملاكه المنزوعة ، ولكن التنازع بين الأحزاب والأشراف بقى على حاله ؛ وعملت أميرة البرتغال وملك أراجون على إذكائه ؛ وساء ما بين الملكة وبين ولدها ، ودب الخلاف إلى الشؤون الكنسية ذاتها ، وأخذ مطران طليطلة ومطران كومبوستل وسفيرا البابا ثم البابا نفسه فى التنازع على إدارتها وتوجيهها ، وهكذا كان الاضطراب والفوضى يسودان الدولة والكنيسة معاً .

وحاول البابا كالكستوس الثانى أن يضع حدا لهذه الحالة السيئة فأوفد إلى شبه الجزيرة سفيراً بعد سفير ، وعقدت بدعوته عدة اجتماعات كنسية ونيابية للعمل على رد السكينة والنظام ، والتوفيق بين الأحزاب المتنازعة ؛ وانتهى الأمر

فى الاجتماع الذى عقد فى بلد الوليد (سنة ١١٢٤) بعقد الصلح بين الملكة وولدها على أن يحكما سويا كل الأراضى التى ورثتها أوراكا عن أبيها . ولكن التنازع بين الأشراف استمر على حاله ولم تثمر فى حسمه الاجتماعات المتوالية إذ كان حقد الملكة الشخصى يحول دون كل توفيق ويذكى عوامل الخصومة والبغضاء .

وأخيراً جاء موت الملكة بشيراً بعود السكينة والسلام بعد طول الخصومة والنضال ، إذ توفيت أوراكا فجأة فى سالدانيا على مقربة من كاريون فى ٧ مارس سنة ١١٢٦ . وقد أذاع خصومها عن موتها عدة روايات مشينة فذكر البعض أنها توفيت على أثر وضع مبكر (إجهاض) وهو ما يصعب تصوره ، ويدحضه تقدم الملكة فى السن ، ووصف البعض الآخر موتها كعقاب من الله على ما كانت تعتزم من اغتصاب ذخائر كنيسة القديس إيزيدور فى ليون . ومن العبث أن يحاول المؤرخون الاسبان المحدثون التدليل على نقاء صفحة أوراكا . والظاهر يرون أن الشخصيات الملوكية لا يمكن أن تحيا حياة مشينة ، أو لعلهم إذا صح التفسير يرون أنه يجب على المؤرخ لكى لا ينال من هيبة الملوكية ألا يلقى ضوءا على ما يشين شخصية ملوكية .

ويبدو من المحقق وفقاً لجميع الروايات ، أن الملكة أوراكا كانت امرأة مغامرة مسترجلة وكان السلطان أعظم شهواتها . وقد ضحت فى سبيله الزوج والولد ، ولم تحجم مدى عشرين عاماً عن أن تدفع اسبانيا النصرانية إلى غمر الحرب والخراب لكى تستبقى زمام الحكم لنفسها ، وهو ما كان من حق زوجها ثم ولدها . ولم تكن اسبانيا قد عرفت حكم النساء من قبل ، فكان حكم أوراكا أحدوثة لم يستحسنها سوى الأشراف الثائرين وأكابر رجال الدين طمعاً فى أن يسمو شأنهم فى ظلالها . وإذا لم تكن أوراكا قد توفيت بمثل السبب الشين الذى يرويه المؤرخون القدماء ، فان حياتها حافلة بالحوادث الغرامية ، وقد رزقت من خليلها الكونت جوميز سرا بولد سمى فرديناند فورنادو ، وأثارت علائقها الغرامية مع الكونت بيدرو دى لارا (وهى علائق أثمرت عدة بنين وبنات) الذى كان يطمح إلى اعتلاء

العرش بطريق الزواج من الملكة ، سخط أشراف قشتالة ، فالتفوا حول ولدها وانتهى بنى الكونت المغامر . ولم تكن أوراكا تتمتع فيما خلا الجرأة وإقدام الرجال بشيء من الخلال التى يتطلبها الحكم ، فكان حكمها جائراً نسويا أدى إلى إثارة الاضطراب والحرب الأهلية فى أنحاء قشتالة ؛ ولم تبرأ الجروح التى أصابتها إلا بعد زمن طويل .

وتوفى برنار مطران طليطلة ورئيس الكنيسة الاسبانية قبل وفاة الملكة بعام (ابريل سنة ١٢٢٥) بعد أن لبث زهاء أربعين عاماً يدير شؤونها ببراعة ، وهو الذى عاون باستقدام الآباء البندكتيين أعاعون فى تمدين اسبانيا وطبعها بالطابع الأوربى ؛ ولكنه يلام بحق على أنه لم يعن بالروح القوى ، وأنه حارب التراث القوطى ، وكان أداة فى يد الكرسى الرسولى ، ولم يعمل لتقدم الكنيسة الاسبانية ذاتها . وخلفه فى منصبه رعوند أسقف أوسمة وكان مثله فرنسيا ومن جماعة البندكتيين[1]

٣ — النضال بين ألفونسو ملك أراجون وألفونسو رعوندير

لما توفيت أوراكا تولى ولدها ألفونسو رعوندير حكم جميع الأراضى التى تركها جده ، وكان قد توج من قبل ملكا على ليون بمعاونة الأسقف ديجو . ولكنه تكبد فى سبيل إخضاع الأشراف المناوئين كثيراً من العناء والجهد . ففى قشتالة كانت تناوئه أسرة لارا وشيعتها أشد مناوأة وعلى رأسها الأخوان بيدرو وردريك جونزالز ، وكان أولها كما أسلفنا خليل الملكة ؛ وكان يكاد يقبض على زمام الحكم ويثير سخط الأشراف . وقد نفى إلى خارج قشتالة بضعة أعوام ، ولكنه عاد إليها عقب وفاة الملكة أوراكا وأثار كثيراً من الفتن ، وما زال به ألفونسو رعوندير حتى أرغمه على الالتجاء إلى جبال « سانتيلانا » .

ثم تعاقبت الثورات فى جليقية وساد حكم القوة الهمجية بجميع صوره ، ولم تنج منه الكنائس ورجال الدين وكان الكونت أرياس بيريز أشد الزعماء

---

(١) تصرفنا فى بعض مواطن هذا القسم بشيء من التلخيص الذى يقتضيه المقام .

الخوارج بأساً وإمعاناً فى الفتنة ، ولكنه هزم أخيراً وأخضع . وظهر الكونت رودريك فى قشتالة برائع قسوته وعنفه ، وكان يربط الأسرى من خصومه مع الثيران فى الحراث ، ويرغمهم على أكل الحشائش مع الماشية والشرب مثلها من الترع ، ولم يترك لوناً من ألوان القسوة إلا أوقعه بأولئك المنكودين ، وما زال دائباً على عنفه الوحشى يجدّ فى البحث عن فرائس قسوته . وأما البرتغال التى كانت تحكمها الدونا تيريزا باسم ولدها القاصر ألفونسو هنريكيز فقد ادعى ألفونسو أنه صاحب الجزية عليها . وجاءت تيريزا للقاء ألفونسو ريمونديز فى مكان عند ملتقى نهرى أوربيكو ودورة وعقدت معه هدنة حتى تسوى المسائل المعلقة بينهما ، بيد أنها لم تعترف بالطاعة ولا بأداء الجزية لملك قشتالة .

وكانت ظروف أراجون أشد إثارة لأسباب الحرب . ذلك أن ملكها ألفونسو سانشيز كان يحتل حتى وفاة زوجه الغادرة عدة حصون فى قشتالة تكفل له إخلاص الحاميات والسكان ؛ فلما توفيت أوراكا انحلت العلائق التى كانت تربطهم بأراجون ، وآثرت المدن وآثر الجند بالرغم من قادتها أن تعلن ولاءها لملك قشتالة ، على أن تبقى على ولائها القديم . ولم يبق إلى جانب ملك أراجون سوى قلعة كاسترو شريش . وإذا كان ملك أراجون لم يقم بأية محاولة للاستيلاء على القلاع القشتالية ، فان فى ذلك ما يدل على أنه كان يومئذ ما يزال يقاتل المسلمين فى الأندلس ، أو أنه كان يقاتلهم حين عودته فى مرسية وبلنسية . ولما عاد إلى مملكته ألفى الاضطراب يسودها ، ولم يتح له أن يخصص لشؤون الحدود كثيراً من عنايته . وكان المسلمون قد قاموا من لاردة وطرطوشة اللتين بقيتا فى أيديهما بغزوات مخربة على مقربة من سرقسطة ، ولولا مبادرة الكونت ريموند برنجار الثالث بالمعاونة لتفاقم الخطب ؛ ومن ثم فقد رأى ألفونسو اتقاء لأمثال هذه الغزوات أن يقوم قبل كل شىء بافتتاح الحصون الإسلامية الواقعة فى أراضيه ، أو المجاورة لها ، وهو ما يتطلبه سلام المملكة وأمنها . ولكنه ألفى نفسه غير بعيد مضطرا إلى أن يخوض غمار الحرب مع قشتالة ، وأن يخصص كل قواته

لها ، ولعله حمل على ذلك بدعوة من الأشراف الثائرين فى قشتالة وجليقية ، وكذلك من الدونا تيريزا أميرة البرتغال ، أو بما شهده من نمو قوى ملك قشتالة بسرعة ، فاخترق حدود قشتالة بجيش قوى ، مجدداً دعواه بشأنها (سنة ١١٢٧ م) .

واستمرت الحرب ثلاثة أعوام سجالا فى معارك محلية بين الفريقين ، وكلما آذن الشتاء كيهما فى معركة حاسمة تدخل الأحبار فى الجيشين لدى الملكين يحضونهما على السلام وحقن دماء النصارى ، وتحويل شهوة الحرب إلى وجهة أخرى هى محاربة المسلمين . وأخيراً وفق الأحبار فى جهودهم ووساطتهم ، وعقدت الهدنة بين قشتالة وأراجون . ونزل ألفونسو الأرجونى عن لقب « قيصر اسبانيا » الذى تلقب به من قبل ، وترك جميع الحصون التى علكها فى قشتالة إلى ولد زوجه ألفونسو ريمونديز ، ونزل ألفونسو ريموندز إليه نظير ذلك عن ولاية « ريوخا » التى كان ألفونسو السادس قد انتزعها من نافارا .

وفى تلك الحرب استعادت قشتالة لأول مرة مجدها الحربى الذى خبا ؛ وكان فرسان قشتالة أيام ألفونسو السادس أعظم فرسان اسبانيا كلها ، لا يضارعهم أحد فى الجرأة والشجاعة والصلابة والبراعة فى القتال وقوة البنية ؛ وكانوا على رأس الجيش فى كل موقعة أول من ينقض على صفوف الأعداء ويتنزعون النصر منهم فى جميع المواقع تقريبا ؛ ولكن الأمور تغيرت فى ظل حكم أوراكا الرخو تغيراً كبيرا ، فخلت الرفاهة والخمول والشح والترف الناعم ، مكان الخلال الحربية العظيمة التى كان يتمتع بها القشتاليون من قبل . أما الفرسان الأرجونيون فقد كانت يذكى نفوسهم مثل ملكهم البطل ألفونسو « المحارب » ، وسرعان ما تفوقوا على الفرسان القشتاليين تفوقا عظيما ، حتى كانت عقيدتهم أن قوة معينة منهم تستطيع أن تصمد لضعفها من القشتاليين . وكثيراً ما حدث أن سرية صغيرة منهم كانت تلجئ قوة كبيرة من القشتاليين إلى الفرار وهى تصيح بهم : « يا نساء » . وهكذا كان الجند الأرجونيون يثيرون كثيراً من الروع ،

وقد ظهرت منهم بالأخص فرقة « المجاورين »[١] ، وهى طائفة من الفرسان لا عمل لهم سوى الحرب ، ولاسيما محاربة المسلمين . وكانوا يرتدون أسمالا بالية ، تبدو منها جسومهم الضامرة التى تنبىء عن تقشفهم ، ولا تشرق جباههم العابسة إلا حينما يلقون الموت فى ساحة الحرب .

٤ — حروب ألفونسو المحارب الأخيرة
وموته ووصيته

لما انتهى ألفونسو سانشيز من نزاعه الطويل مع قشتالة ، دعى إلى فرنسا فيما وراء البرنيه ليخوض حرباً ضد بيونة . وأسباب هذه الحرب غير واضحة ، ولكن الظاهر أن اميرى (كونتى) بجور وبيارن ، وهما من أتباع ملك أراجون وأخلص حلفائه فى جميع الحروب الأسبانية ، قد هددا من جانب جيوم التاسع أمير جويانة وبواتييه ، فلم يتردد ألفونسو فى المبادرة بإنجاد حليفيه المخلصين ، فطوق بيونة واستولى عليها بعد حصار طويل (سنة ١١٣١ م) . ومن ذلك الحين كان ملك أراجون ونافارا يلقب فى الوثائق والمراسيم العامة أيضاً ملك بيونة ؛ ولكن سلطان أراجون عليها لم يطل أمده ، ففقدته خلال الاضطرابات والحوادث التالية .

وفى تلك الأثناء توفى أمير سرقسطة السابق أبو مروان عبد الملك بن هود الملقب بعماد الدولة (فى شعبان سنة ٥٢٤ هـ — يونية سنة ١١٣٠ م) ، وكان يملك عدة حصون بالقرب من عاصمة أراجون (أى سرقسطة) . ولا يتضح من الروايات العربية ما إذا كان عماد الدولة كان ينضوى تحت لواء ملك قشتالة أو ملك أراجون لأنها نظراً لاتفاق اسميهما (ألفونسو) تخلط بينهما بسهولة ، وهى كثيراً ما تشير إلى ألفونسو سانشيز ملك أراجون « بأذفنش بن رمند » وهو اسم ملك

(١) المجاورون Almugavaren هى نفس الكلمة العربية مأخوذة بالأفرنجية ، والمقصود بها النصارى الذين يعيشون على حدود الأراضى الإسلامية ويجاورونها .

قشتالة[١] والمرجح أن ولد عبد الملك ، أبو جعفر أحمد سيف الدولة الملقب بالمستنصر والمستعين بالله هو الذى بدأ الانفصال عن أراجون وانضوى تحت لواء قشتالة . وكان المرابطون قد افتتحوا معظم حصونه واستولوا على طرطوشة ولاردة وإفراغة ومكناسة ؛ أما روطة التى كانت مقر إقامته وغيرها من الأماكن التى كانت بيده فقد نزل عنها إلى ملك قشتالة (سنة ١١٣٢ م) وعوضه عنها ببعض أملاك بجوار طليطلة[٢] .

وكان ألفونسو الأرجونى يرى أن أهم ما يجب تحقيقه لملكته هو أن يصل بينها وبين البحر الأبيض ، وأن يكفل لها سلامة الملاحة فى نهر إيبرو ، ومن ثم فقد عول على أن يفتتح ثغر طرطوشة الواقع على مصب النهر من يد المسلمين وأن يهاجمه من البر والبحر ؛ واشترك فى هذه الحملة كثير من الأشراف والفرسان الفرنسيين . بيد أنه كان يتعين عليهم قبل البدء بمحاصرة طرطوشة الاستيلاء على عدة مدن إسلامية تقع فى الداخل ، وكان المرابطون يملكون مدينة مكناسة الواقعة عند ملتقى نهرى سجرو وإيبرو ؛ فهوجمت وأخذت عنوة . ولكن الاستيلاء على لاردة وإفراغة الواقعتين على نهر أنجا كان أشد صعوبة خصوصاً وإفراغة تقع على آكام عالية منيعة جدا . ولما حوصرت إفراغة قام سكانها الشجعان بمقاومة شديدة وبادر واليها يحيى بن غانية من لاردة على رأس جيش ضخم من أهل بلنسية ومرسية لإنجادها[٣] ، وكذلك بادرت إلى غوثها قوة مختارة من

(١) تشير الرواية الإسلامية إلى ألفونسو الأرجونى بابن رذمير الفرنجى أو ابن رذمير فقط وهى واضحة لا لبس فيها . أما ألفونسو ريمونديز فتسميه « بالسليطين » ولا نعرف أصل هذه التسمية أو سببها (راجع بالأخص ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢) .

(٢) قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٢٩ هـ (سنة ١١٣٥ م) : « فى هذه السنة اصطلح المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجى صاحب طليطلة مدة عشر سنين ... على أن يسلم المستنصر إلى السليطين حصن روطة وهو من أمنع الحصون وأحصنها » (ج ١١ ص ١٣) ويوجد فرق يسير فى التاريخ بين الروايتين .

(٣) فى هذه الرواية شىء من التحريف والواقع أن يحيى بن غانية كان أميراً على بلنسية ومرسية من قبل أمير المسلمين على بن يوسف وكان والى لاردة عبد الله بن عياض وقد سار كلاهما فى قواته إلى نجدة إفراغة (ابن الأثير ج ١١ ص ١٣) .

المرابطين من جنوب اسبانيا قوامها عشرة آلاف مقاتل. ولكن ألفونسو لم يتراجع في خطته ، بل استمر في الحصار وأقسم علناً كما أقسم أبوه سانشو أمام وشقة قبل ذلك بأربعين عاما أن يفتتح إفراغة أو يموت دونها وأقسم مثله عشرون من أتباعه . وهكذا كانت تقاليد العصر تتطلب أن يخوض أقرب الناس إلى الملك معه غمار البطولة والفروسية ومخاطر الموت ؛ ثم أمر الملك لكي يذكى حماسة الجيش أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر ، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس ؛ وعلى أثر ذلك اشتبك النصارى مع المسلمين القادمين لنجدة المدينة في معركتين وهزم المسلمون في المرتين ولجأوا إلى الفرار ؛ فخارت عزائم سكان المدينة وعولوا على التسليم بشروط يسيرة ولكن ألفونسو رفض كل عرض واعتزم أن يفتتح المدينة بالسيف ؛ فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس وحاول المرابطون كرة أخرى إنقاذ المدينة بجيش ضخم ولجأ المسلمون إلى الخديعة حين أعوزتهم القوة ، فدبروا كميناً جذبوا إليه الأرجونيين على يد قافلة من المؤن ، وهنالك انقضت عليهم نخبة من المجاهدين الشجعان ، فأثخنت فيهم وهلكت منهم جمهرة من الفرسان الفرنسيين والقوامس وأسقفا روطة ووشقة وقسم كبير من الجيش .

أما ما حدث لألفونسو فلم يعرف بالتحقيق . وتختلف الرواية اختلافاً بيناً على كيفية وفاته التي حدثت بعد موقعة إفراغة بقليل . ويروى مؤرخ قطلونى معاصر في وصفه للمعركة أن الملك حين تمت الهزيمة الساحقة على جيشه عمد إلى الفرار بصحبة فارسين فقط ولجأ إلى دير القديس « خوان دى لابنيا » في سرقسطة ؛ وهنالك توفى غما ويأساً لثمانية أيام فقط من الوقعة وذلك في ٢٥ يولية سنة ١١٣٤ م[١] . وتعارض هذه الرواية رواية مؤرخ آخر خلاصتها أن ألفونسو لما رأى هزيمة جيشه حاول أن يلقى بنفسه إلى المعمعة ليموت ، فأمره أسقف أورجل باسم الله أن ينقذ نفسه ، فغادر ميدان الحرب مع ستين من فرسانه ، ولكن عشرة

(١) هذا هو ما تقوله الرواية الإسلامية في الواقع ، فابن الأثير يقول لنا في كلامه عن موقعة إفراغة (ج ١١ ص ١٣) أن ابن رذمير لحق عقب هزيمته بمدينة سرقسطة ، ومات مفجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة ؛ وهذا الاتفاق مما يحمل على ترجيح هذه الرواية .

منهم فقط نجوا من الموت. وحشد ألفونسو جنداً آخر، وعاد إلى ميدان الحرب سريعاً ليتدارك ما حل به من هزيمة، ولكنه اجتذب إلى كمين دبره الأعداء، وذلك في ٧ سبتمبر سنة ١١٣٤م، وهنالك أحاط به المسلمون فقتل في ميدان الحرب بعد معركة عنيفة وقتل معه ثلثمائة من فرسانه.

بيد أن معظم الروايات تتفق على أن ألفونسو قد قتل في موقعة إفراغة في سنة ٥٢٩ هـ — ١٧ يولية سنة ١١٣٤م، ولكن جثته لم توجد بين القتلى بالرغم من الجهود التي بذلت للبحث عنها. وقد كان هذا الظرف المريب الذي حاق بمصير الملك منشأ تلك الروايات والأساطير المختلفة التي أوردها «رودريك الطليطلي» ورواية القديس خوان دي لابينيا.

وقد استحق ألفونسو الأرجوني بما خاضه من حروب كثيرة ضد المسلمين والنصارى مدى ثلاثين عاما حكمها لقب «المحارب» «Battallator» وانتصر في جميع المعارك ما عدا معركة إفراغة الأخيرة، وهو بذلك يعتبر من أعظم ملوك اسبانيا في العصور الوسطى[1]، وقد حقق لأراجون بافتتاح سرقسطة ما حققه ألفونسو السادس لقشتالة بافتتاح طليطلة؛ وكان في وسعه بلا ريب أن يحقق أعظم مما حققه سلفه بل ربما كان بوسعه أن يخرج المسلمين من اسبانيا لو لم يقض خلافه المشئوم مع زوجته أوراكا عليه بتوزيع قواه بل يشل حركته في بعض الأحيان؛ وقد برهن بحملته التي قادها إلى الأندلس حتى غرناطة، ثم إلى البحر على مقربة من مالقة لتحرير النصارى المعاهدين، كيف تستطيع القوى القليلة المختارة أن تلقى العدو في صميم أرضه، وأن تنزل به أضراراً جمة؛ وإذا كان أبوه سانشو قد أسعده الحظ بأن يضاعف حجم مملكته أراجون الصغيرة باتحادها مع نافارا،

---

(١) قال ابن الأثير في وصفه لألفونسو الأرجوني: «وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبراً، وكان ينام على طارقته بغير وطاء. وقيل له هل تسريت من بنات أكابر المسلمين اللاتي سبيت منهم؟ فقال الرجل المحارب ينبغي أن يعاشر الرجال لا النساء» والظاهر أن كلمة «المحارب» هنا ترديد لنفس اللقب الذي لقب به ألفونسو (ج ١٠ ص ٢٣٣).

فقد استطاع هو أن يقوّم حدودها ، وأن يضم إليها المعاقل والحدود الجبلية التى كانت تنقصها ؛ كذلك استطاع ألفونسو بخلاله الحربية ، وما أدخله من النظم العسكرية الجديدة ، أن يحقق للأمة الأرجونية سيادة اسبانيا ؛ فلم تكن الأمم الاسبانية الأخرى من القشتاليين والليونيين والأشتوريين والبرتغاليين والقطلونيين لتجرؤ على مناهضتها فى ميدان القتال .

أما أخلاق ألفونسو فتختلف صورتها وفقاً لما تدلى به أقوال المؤرخين الأرجونيين أو القشتاليين ؛ فبينما تصفه الروايات الأرجونية بالتقوى والإيمان ، والفروسية المثلى ، والجود نحو الكنائس والأحبار ، (وهذا ما تؤيده الوثائق) ، إذا بالروايات القشتالية تصفه بأنه ملحد ناكث للعهد مستبد ناهب ، لايرعى حرمة الكنائس والأديار ، ولا يعف عن محتوياتها المقدسة ، ولا يقر الأحبار أو النساء فى حروبه مع النصارى إرواء لجشعه ، وإرضاء لجنده الذين لا وازع لهم ، بل لقد ذهب التحامل إلى حد أن اعتبرت هزيمته ومقتله فى موقعة إفراغة جزاء عدلا من الله لما ارتكبه من انتهاك المحرمات فى ليون وفى دير ساهاجون .

وإذ كان ألفونسو دون عقب ، وكان أخوه راميرو قد انتظم فى سلك الكهنوت ، فقد كتب وصيته وفقاً لتقاليد العصر ، وذلك منذ حصاره لبيونة سنة ١١٣١ م ، ثم أقرها قبيل وفاته ؛ وفيها يوصى بتقسيم مملكته إلى ثلاثة أقسام ، الأول يخصص لسلام روح والده ووالدته ، وللتكفير عن زلاته ، ولكى يظفر بمكان فى جنة الله ، وللقبر المقدس وسدنته وخدمه . ويخصص الثانى للفقراء وفرسان الاسبتارية ببيت المقدس . والثالث لفرسان المعبد (الداوية) باعتبارهم حماة النصرانية فى معبد المسيح[1] .

---

(١) كان فرسان المعبد وفرسان الاسبتارية من أشهر جماعات الفرسان الدينية التى قامت فى العصور الوسطى فى بداية الحروب الصليبية . والجماعة الأولى هى التى تعرف فى الرواية الإسلامية بجماعة « الداوية » وقد أنشئت سنة ١١١٩ م فى بيت المقدس عقب سقوطه فى يد الفرنج الصليبيين لحماية الحاج إلى قبر المسيح وأفرد لهم ملك بيت المقدس جناحاً فى قصره ثم سلم إليهم المعبد المجاور له ، ومنه اشتقوا اسمهم « فرسان المعبد » Templars وتحت هذه =

ولكن الأرجونيين والناقاريين أبوا احترام وصية ترمى إلى التصرف فى مملكتهم ، ولم يؤخذ رأيهم فيها ، ورأوا من حقهم ، ما داموا قد ساهموا فى افتتاح المملكة أن يشتركوا فى اختيار ملكها الجديد . وقد أجمعوا على أن يرفضوا سيادة قشتالة ؛ ذلك أن سانشو رعونديز كان بوسعه أن يدعى ملك أراجون باعتباره سليل سانشو الكبير من ناحية أمه . ولكن الروح القومية كانت قد بدأت تنمو فى الممالك الاسبانية المختلفة . وكان الأرجونيون والناقاريون يخشون أن يستبد القشتاليون بهم ، وأن يقضوا على حرياتهم وشرائعهم الخاصة كما عمد ملكهم ألفونسو المحارب أيضاً إلى الانتقاص من امتيازات القشتاليين ، ومن ثم فقد بدأوا باختيار طائفة من الولاة للدفاع عن البلاد والإشراف على إقامة العدل ؛ ثم اجتمع فى « جاقة » ممثلو مملكة أراجون بطبقاتها الثلاث ، أعنى رجال الدين ، والأشراف ، ونواب الشعب ، لكى يقرروا اختيار الملك الجديد ؛ وكان الرأى متجهاً فى البداية إلى اختيار الدون بيدرو أتاريس ، وهو سليل غير شرعى للملك راميرو الأول ، ولكن حال دون ذلك وافر غطرسته ؛ وعندئذ اجتمعت الآراء حول اختيار راميرو أخى الملك المتوفى ، وكان قد انتظم فى سلك الكهنوت قبل ذلك بأكثر من أربعين عاما ، وعاش راهباً ثم أسقفا . ولكن الناقاريين لم يوافقوا على هذا الاختيار ، فانفصلوا عن الأرجونيين ونادوا فى بنبلونة بجارسيا راميرز حفيد الملك سانشو الذى قتل فى بنيالين سنة ١٠٧٦ م ملكا عليهم . وهكذا انشطرت اسبانيا النصرانية من جديد إلى ممالك عدة ، ولم يستطع ملك قشتالة ألفونسو رعونديز أن يحقق نوعا من الوحدة بين ممالكه المتنافسة ، إلا بشق النفس وبالاعتماد على تفوقه .

= الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من الفرسان النصارى من جميع الأمم ، ولعبت أدواراً هامة فى حوادث الحروب الصليبية واستمرت قائمة عصورا . والاسبتارية وهم بالأفرنجية Hospitallers أيضاً جماعة دينية من الفرسان ، أنشئت عقب قيام الجماعة الأولى ، وخاضت أيضاً حوادث الحرب الصليبية ، ولكنها كانت أضعف شأناً من جماعة « الداوية » .

الكتاب الثالث

اضمحلال سيادة المرابطين

فى عصر القيصر ألفونسو ريمونديز

وقيام مملكة البرتغال

الفصل الأول

نهوض مملكة قشتالة

فى عصر ألفونسو ريموندير

(سنة ١١٢٦ — ١١٤٤م) — (٥٢٠ — ٥٣٨ هـ)

---

١ — حروب ألفونسو السابع ضد المسلمين

كان سانشو الأول ملك البشكنس (نافارا) الكبير الذى جمع سلطان اسبانيا النصرانية (عدا قطلونية) فى أسرته عقب من الملوك الأبطال ، وكان هؤلاء حلقة من أكابر الحكام — ولده فرديناند الأول ، فحفيده ألفونسو السادس ، فولد حفيده ألفونسو المحارب — أبدوا جميعاً أنهم خليقون بأبيهم العظيم ، وضربوا مثلا نادراً من القوة فى هذه الأسرة لم يبد فيها مند بعيد ؛ وكانت هذه الذرية الملوكية التى حاربت فيما بينها بقدر ما حاربت أعداء دينها عندئذ على وشك الانقراض ؛ ففى أراجون لم يك ثمت سوى راهب ضعيف رفع إلى العرش دون أن يعرف ميدان الحرب . وفى نافارا ولى العرش أمير فار يزعم أنه حفيد لسانشو الرابع ، أو حفيد لحفيد سانشو الكبير . أما فى قشتالة فقد انقرض عقب ألفونسو السادس من الذكور ، ولكن ابنته أوراكا رزقت من زوجها الأول الكونت ريموندير البرجونى ولداً هو ألفونسو الذى قدر له أن يستعيد بأعماله عظمة أجداده لأمه ، وأن يكافح أيما كفاح ليقضى على تفرق اسبانيا النصرانية ويعيد إليها وحدتها .

وقد قضى طيلة حكمه فى محاربة المسلمين والنصارى بلا انقطاع ، وشب منذ طفولته تحت قعقعة السلاح ، فلم يعرف غير الحروب والمواقع ؛ وكان هدفا لنفوذ الأحزاب ، ولكنه لم يفطن مدى أعوام طويلة إلى الهجمات والمكائد الظاهرة والخفية التى كان يدبرها من حوله ، أشراف لاُرون وأم آغة وزوج أم يضمر له البغضاء . وكان فريسة لشهوات الحكم والطموح ، تتجاذبه بعنف ؛ فعين فى السادسة من عمره ملكا على جليقية ، وحكم فى الثانية عشرة جزءاً من ليون ، ولم يمض عام حتى دخل طليطلة وغدا ملكا على قشتالة . وكانت أمه عندئذ تنازعه الحكم ثم نازعه من بعدها زوج أمه ولكنه انتصر فى ذلك النضال ؛ ثم انتزع الموت أمه من ميدان الحرب ، وعندئذ توج سيد قشتالة فى ليون عاصمة اسبانيا النصرانية القديمة ملكا على يد مطران شنت ياقب (سنة ١١٢٦) . وكان منذ استولى على طليطلة فى حرب دائمة مع المسلمين ، فلم يكن يمضى عام حتى يغزو المسلمون أراضى قشتالة أو يغزو النصارى أراضى الأندلس ؛ ومنذ اضمحلت قوة المرابطين من جراء ثورة الموحدين فى إفريقية ، وتوفى أميرهم أبو الطاهر تميم بن تاشفين الذى كان يسير شؤون الأندلس المضطربة بذكاء ومقدرة ، (وكانت وفاته سنة ٥٢٠ هـ — ١١٢٦ م)[1] أفل نجم الدولة الأسبانية فى اسبانيا . وكان البغض الذى يكنه أهل الأندلس وبنو هود للمرابطين والذى كان يذكيه طموح الولاة القساة وعسفهم يوماً بعد يوم ، عوناً للملك ألفونسو رعونديز على أن يحارب المسلمين بنجاح بالرغم مما كان يسود مملكته من الاضطراب ، وما كان بينه وبين جاره ملك أراجون من الخصومات ؛ كذلك كان يعاونه روح القشتاليين الحربى فى ذلك أعا عون ، وكان قد عاد منذ وفاة أورا كا يتبوأ المقام الأول بين شعوب الجزيرة . وكان ملك قشتالة يعرف كيف يذكى عوامل التفرق بين أعدائه فى كثير من الدهاء ؛ فهو قد بعث بسيف الدولة (وتسميه الرواية النصرانية Zafadula) آخر بنى هود حينما شدد المرابطون عليه الضغط إلى ولاية طليطلة ، وأقطعه هناك

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

أراضي واسعة ، ولكنه اضطر أن ينزل إلى ملك قشتالة عن قلاعه المنيعة ومنها حصن روطة ، وبها حصلت قشتالة على حدود ثابتة بينها وبين أراجون . وفى نفس الوقت (سنة ١١٣١ م) أرسل على بن يوسف سلطان المرابطين إلى الأندلس بقيادة ولده تاشفين جيشاً ضخماً تقدره بعض الروايات العربية المغرقة بخمسمائة ألف مقاتل[١] ، فقصد إلى طليطلة عاصمة قشتالة معتزماً حصارها ، ولكن هذه الحملة كانت عقيماً كسابقاتها ، ولم تسفر إلا عن التخريب المروع وسبي العدد الجم . وسارت قوات القشتاليين من سقوبية وآبلة وعدة مدن أخرى خلال جبل الشارات (سيرا موزرينا) صوب قرطبة لتسترد من المسلمين الغنائم والأسلاب ، فألفت نفسها فجأة بعد أن تقدمت دون تحوط وقد احتاط بها جيش تاشفين الضخم ؛ ولكن فداحة الخطر أذكت شجاعة القشتاليين وجهودهم ، ونشبت بين الفريقين معركة ليلية استطاع فيها القشتاليون أن يحطموا نطاق العدو ، وأن يوقعوا به الهزيمة ويلجئوه إلى الفرار ، وأن يستردوا منه عند المطاردة معظم الأسلاب والغنائم . على أن هذه الهزيمة لم تخف تاشفين ، فعاد فى العام التالى إلى أراضي قشتالة يثخن فيها . بيد أنه كان عندئذ أشد تحوطا ، إذ ارتد إلى الأندلس قبل أن يلحق به ملك قشتالة بقواته ، وعاد سالما بغنائمه .

واعتزم النصارى الانتقام لهذه الغزوة المخربة ، فسار رودريك دى لارا حاكم طليطلة على رأس جيش ضخم إلى بطليوس ومنها إلى إشبيلية . واحتذى النصارى حذو أعدائهم قسوة وعيثا ، ثم ارتدوا مثقلين بالغنائم والأسلاب ؛ فحاول عمر والى إشبيلية أن يقطع عليهم خط العودة ؛ ولكن النصارى وضعوا خططا حسنة للدفاع ، وهزم المسلمون بعد عدة معارك حامية ، وطوردوا حتى ظاهر إشبيلية ، وقتل قائدهم عمر فى الموقعة ، وعاد رودريك ظافراً إلى طليطلة ، وقد شجعته

(١) فى هذه الرواية تحريف ظاهر ، فالمؤلف ينقل هذه الرواية عن كوندى (راجع الهامش فى ص ٤٠٨ من الكتاب) والرواية العربية التى نقل عنها كوندى تقول إن تاشفين عبر إلى الأندلس فى خمسة آلاف فارس (لا خمسمائة ألف) وهنالك حشد قوات الأندلس ، والظاهر أن الأمر يتعلق هنا بخطأ فى النقل (راجع روض القرطاس ص ١٠٦) .

الغنائم المكسوبة على تكرار هذه الغزوات .

وشجع ظفر رودريك أهل شلمنقة فانطلقوا إلى بطليوس دون تحوط ، أملاً فى تحصيل الغنائم حتى وصلوا إلى مقربة من مكان موقعة الزلاقة الشهيرة التى تثير فى نفوس النصارى ذكريات محزنة . وأراد تاشفين أن يحذو مثل جده المجيد يوسف ، فانقض على المغيرين انقضاض الصاعقة ، وكاد النصارى يسحقون على الأثر لولا دخول الظلام . على أنها كانت مهلة قصيرة فقط ، ولم ينقذهم ما لجأوا إليه فى سبيل إنقاذ أنفسهم من القسوة بقتل الأسرى الكثيرين ، وطوقهم الفرسان المسلمون طوال الليل ، ثم أمعنوا فيهم قتلا انتقاما لاخوانهم المقتولين ؛ وحزت هذه النكبة فى نفس ألفونسو ، فلم يشأ أن يتركها دون انتقام ؛ فقام بتجهيزات حربية عظيمة فى أراضى قشتالة استعداداً لغزو الأندلس . وكان الأمير تاشفين قد قام بغزوة جديدة فى ولاية طليطلة (سنة ١١٣٣ م — ٥٢٧ هـ) ، فارتد عند اقتراب النصارى مسرعا إلى الأندلس ، معولاً على لقاء عدوه القوى وراء الأسوار والحصون ؛ وسار ملك قشتالة إلى الأندلس مع صديقه سيف الدولة (ابن هود) فى جيشين فى وقت واحد ، واجتمع الجيشان على مقربة من قرطبة بعد خمسة عشر يوما من السير الشاق فى مفاوز جبل الشارات (سييرامورينا) الوعرة . وأثخن النصارى فى الحقول والحدائق والقرى وفى الناس والدواب ؛ وانتسفوا مروج الوادى الكبير الخضراء ، وأضرموا النار فى القرى والبقاع ، وهدموا المساجد ، وأحرقوا المصاحف ، واستاقوا الدواب ، وسبوا الأطفال والنساء ، وقتلوا الرجال ، وعذبوا الفقهاء ، حتى الموت ؛ ولم يكن ذلك كله سوى انتقام لما ارتكب المسلمون فى قشتالة من الفظائع . وامتد هذا العيث الذى كانت تقوم به فى مختلف الأنحاء سريات خفيفة من الفرسان فيما بين قرطبة وإشبيلية ؛ وبعد محاولة خائبة قامت بها جماعة طائشة من الفرسان فى شبه جزيرة لبون التى تقع بها قادس ارتد ألفونسو أدراجه صوب طليطلة ، وهنا انقض تاشفين على الجيش القشتالى فجأة أملا فى أن يوقع به هزيمة كالتى أوقعها بأهل شلمنقة ،

واشتبك معه فى معركة . بيد أنه هزم هزيمة شديدة . ولم يتقذ فلول المسلمين من مطاردة النصارى سوى التجائهم إلى قلاع إشبيلية القريبة ؛ وهكذا عاد النصارى إلى وطنهم دون عائق أو مهاجم ، وهم يبثون الروع فى طريقهم بين المسلمين الذين هزتهم هزيمة ناشفين ، فأقبلوا يلتمسون الأمان من النصارى على أن يدفعوا لهم الجزية .

واستغرق اهتمام ملك قشتالة ما وقع فى اسبانيا النصرانية من الحوادث على أثر موت ألفونسو ملك أراجون ، فلم يتمكن فى الأعوام التالية (حتى سنة ١١٣٨) من السير بنفسه إلى مقاتلة المسلمين ، وترك قيادة هذه الحملات إلى نفر من القواد البارعين يغيرون تارة على أراضى الأندلس ، وتارة يدفعون العدو عن حصون الحدود فى قشتالة واستريمادورة . ولم تقع فى تلك الفترة فتوح ذات شأن ؛ والظاهر أن الفريقين تعادلا فيما حقق كل منهما من مغانم وأصاب من خسائر ؛ وكان رودريك فرناندز حاكم طليطلة ، وموتيو ألفونسيز حاكم مورة يحاربان باستمرار والي قرطبة وإشبيلية ؛ وبينما كان جيش من النصارى يعيث فى الأراضى الإسلامية على ضفاف وادي يانه ، كان المسلمون يعيثون فى أراضى طليطلة ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين حتى غدا ألفونسو ريموندز بعد أن انتهى من تنظيم شؤون اسبانيا النصرانية أقوى وأقدر على محاربة أعداء دينه .

٢ — الإمبراطورية الاسبانية

والأراضى التابعة لها : ناڤارا وأراجون وقطلونية

أحدث موت ألفونسو ملك أراجون تغييراً عظيما فى شؤون الممالك النصرانية ، ولم يعبأ الأرجونيون بوصية ملكهم المتوفى فرفعوا إلى العرش أخاه راميرو الثانى ؛ ولم ير الناڤاريون فى ولاية راهب أو أسقف ما يحقق سلامتهم ، ولم ينسوا أنهم كانوا من قبل شعباً مستقلا ذا مليك خاص ، فرفعوا إلى العرش جارسيا راميرز سليل ملوكهم القدماء ، وانفصلوا بذلك عن أراجون .

وانتهز رعوند برنجار الرابع أمير برشلونة فرصة انقسام جارته القوية ، فعمل ببراعة على أن تحتل إمارته مركزاً هاما بين الممالك الاسبانية . وكان أبوه رعوند برنجار الثالث (الذى حكم من سنة ١٠٩٢ — ١١٣٠ م) قد عمل أثناء حكمه مدى تسعة وثلاثين عاماً كثيراً لتوسيع الإمارة . وكان فى حروبه ضد المرابطين — حيث كان يشتبك دائماً مع قوى تفوقه — يبدى ضروباً بديعة من الفروسية والجرأة ، ولو أنه لم يحصل من وراء ذلك على مغانم باقية . ذلك أن جزيرة ميورقة التى افتتحها بالتعاون مع البيزيين (سنة ١١١٥ م) فقدت غير بعيد . ثم إن الحرب الصليبية التى شهرها بعد ذلك بقليل ، بإشارة البابا كالكستوس الثانى ضد مسلمى طرطوشة ولاردة وافراغة ، لم تسفر عن نتائج ذات شأن بالرغم من خضوع هذه المدن لأداء الجزية . أما المشروع الضخم الذى نظمه مع رجار (روجر) ملك صقلية والجنويين فلم يتح تنفيذه ، إذ شغل الجنويون بقتال البيزيين ولم يتمكنوا من الوفاء بعهودهم ، واضطر رعوند برنجار الثالث أن يقنع ببقاء حدود ولايته بمأمن من غزوات المرابطين . على أن الإمارة استطاعت أن توسع حدودها فيما وراء البرنيه فى جنوب فرنسا . وكان رعوند برنجار الأول قد استولى على جزء كبير من ولاية لانجدوك ، وضمت مدينتا قرقشونة ورازيه إلى قطلونية ، وحافظ رعوند الثالث عليهما من هجمات جيرانهما الأقوياء ووضع يده على ولايتى فزالو وشرطانية[١] بالاعتماد على الوراثة ، واستولى بواسطة زواجه من الكونتة الثرية دولشيه (سنة ١١١٣ م) على ولايتى بروفانس وكيفودون كارلاد وجزء من روفرنى ، وعدة بقاع أخرى فى لانجدوك ؛ وتلقب من ذلك الحين « بمرجراف برشلونة واسبانيا ، وكونت فزالو وبروفانس » .

وثار بينه وبين الكونت دى تولوز نزاع من أجل بروفانس انتهى بعقد معاهدة إرث وتقسيم (سنة ١١٢٥ م) قسمت بمقتضاها الولاية بينهما على أن يرث كل منهما نصيب الآخر إذا انقطع عقبه .

---

(١) شرطانية هو الاسم العربى لولاية Cerdagne .

ولم يظهر ريموند الثالث فقط بفروسيته ، ولكنه ظهر أيضاً بتقواه ، وهى صفة كانت دائماً من لوازم الفروسية الحق . ولم يقتصر على مقاتلة أعداء دينه فى مواقع عديدة ، ولكنه وضع أيضاً بلاده تحت حماية البابا ، وقرر للكرسى الرسولى إتاوة سنوية ، وأغدق رعايته على رجال الدين . وفى أواخر أيامه انتظم فى سلك « فرسان المعبد » (الداوية)[1] ، ووهب نفسه لله فى سبيل مقاتلة أعداء الدين . ولكن الموت عاجله ولم يتح له أن يفى بنذره (سنة ١١٣١ م) ، وأوصى لولده الأكبر ريموند برنجار الرابع بولاية برشلونة وفزالو وشرطانية وقرقشونة ورازيه ؛ وتلقى ولده الثانى برنجار ريموند باقى أملاكه الفرنسية ، وأهمها ولاية بروفانس .

وتلقى ريموند الرابع حب « فرسان المعبد » عن أبيه ، وأغدق عليهم كثيراً من رعايته ، وطلب إلى كبيرهم ببيت المقدس أن يرسل عدداً منهم إلى قطلونية ، وأسس أول دير فى اسبانيا لهذه الطائفة ، ووهبها كثيراً من الأملاك والحقوق والمزايا . وسرعان ما ظهرت معاونة « الفرسان » القيمة وشجاعتهم فى محاربة أعداء الدين ، وفى ذلك ما يفسر كون ألفونسو ملك أراجون قد أوصى بمملكته كلها لفرسان بيت المقدس . ومع أن الوصية لم تنفذ ولم يستول الفرسان على المملكة ، فان راميرو الثانى وهو من رجال الدين وهب هؤلاء الفرسان فى أراجون من الأملاك والحقوق ما لم يفوزوا به يومئذ فى أى بلد أوروبى آخر .

وكانت سياسة ريموند الرابع ترمى إلى التفاهم مع قشتالة باعتبارها كبرى الدول الاسبانية ، ولكى يستطيع بمعاونتها أن يوسع أملاكه على الأيبرو وفى البرنيه ؛ فلما عمد الفونسو ريمونديز على أثر موت ملك أراجون ، إلى غزو ولايات الأيبرو واستولى على نجيرا وقلهرّة وطرّكونة وسرقسطة ذاتها ، وشهر الحرب بذلك على مملكتى أراجون ونافارا ، سعى الكونت ريموند والكونت دى تولوز إلى لقائه فى سرقسطة ، ووعداه بالمعاونة فى محاربة أراجون ، وأقسما

(١) راجع الهامش الخاص بذلك فى ص ١٧٥ .

له عين الخضوع . وكان زواج أخت رعوند برنجار من ملك قشتالة (منذ سنة ١١٢٨) عاملا فى تقوية أواصر الصداقة بينهما .

ولما آنس ملكا أراجون ونافارا روعة الخطر الداهم آثرا أن يحتفظا بشىء من السلطان على أن يخوضا حرباً لا يقويان على خوضها ؛ ومن ثم فقد نزل راميرو الثانى إلى ملك قشتالة عن سرقسطة ، وردت بذلك حدود أراجون إلى مهدها القديم فى جبال ريباجرسيا ؛ وارتضى جارسيا ملك نافارا أن يحكم مملكته باسم ملك قشتالة . كذلك شعر الكونت هنريكيز أمير البرتغال بالرغم مما كان يتمتع به من الاستقلال اقتداء بأمه تيرزا ، أنه لا يستطيع مغالبة قشتالة ، ومن ثم فقد عمد فى الوقت المناسب إلى الاعتراف بدعوى ألفونسو فى السيادة على البرتغال . وهكذا بسط ملك قشتالة سلطانه على جميع أراضى اسبانيا النصرانية ، وهو ما لم يفز به ملك آخر من قبل . ولم يكن لقب « الملك » يكفى للإعراب عن صولة ملك يسود ملوكا وأمراء ؛ وكان لقب « القيصر » الذى اتخذه من قبل اثنان من ملوك قشتالة ، وألفونسو ملك أراجون ، أصلح وأكثر ملاءمة لما كان يتمتع به ألفونسو ريموندز من سلطان على اسبانيا النصرانية كلها . ففى اجتماع عقد فى ليون (فى ١٠ يونيه سنة ١١٣٥) وشهدته الملكة برنجاريا ، وسانشا أخت الملك ، وملك نافارا ، وسفراء قطلونية وأراجون والبرتغال ، وأكابر الأشراف ورجال الدين من جميع أنحاء قشتالة ، أعلن ألفونسو ريموندز « قيصراً » لاسبانيا . وقاده أشراف المملكة من القصر الملكى إلى الكنيسة الكبرى حيث كان رئيس الكنيسة الاسبانية رعوند مطران طليطلة وجميع الأحبار فى انتظاره . وهنالك قاده المطران إلى الهيكل ووضع التاج على رأسه والصولجان فى يده ؛ وكان عن يمينه جارسيا ملك نافارا ، وعن يساره أسقف ليون يمسكان بالتاج ؛ وفى نهاية الحفل قاد الأحبار الملك إلى قصره ، حيث تولى الأشراف خدمته على السماط .

وقد اشتهر مجلس ليون هذا بما صدر فيه من قرارات كان أهمها بلا ريب قرار سبق اتخاذه فى اجتماع ليون فى سنة ١١٢٦ ، وهو يقضى بأن تطبق القوانين

والحقوق البلدية Buenos fueros فى جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لها ، وهى القوانين والحقوق التى كانت قائمة فى عصر الملك ألفونسو السادس ؛ وترتب على هذا القرار إلغاء كثير من التصرفات فى أراجون ، وإلغاء بعض الامتيازات التى انتزعها بعض الأشراف لأنفسهم دون حق ؛ كذلك أعيد إلى الكنائس والأديار ما نزع منها خلال الحرب الأهلية من الامتيازات ، وتقرر إصلاح الأماكن المخربة ، وغرس الحقول الدارسة توفيراً للعمران والرفاهة ، وأنشئ من سكان الحدود نوع من الجند الاحتياطى يحشد فيه كل رجل قادر على السلاح ، وذلك للعمل على رد غارات المسلمين ؛ وحققت خطوة كبيرة فى سبيل المساواة بين الطبقات باصدار قانون يحتم عقاب كل مجرم ، مهما كان شخصه ومقامه . ولكن الحوادث دلت على أن القوانين الحسنة لا تكفى لإسعاد الأمة ما لم يكن لدى الحكومة من العزم والقوة ما يكفى لتطبيقها ؛ ولم يك ممكناً فى معظم الأحيان أن تطبق على الأشراف ذوى الجرأة والقوة دون حرب أهلية ؛ وكان تشبه السادة التابعين بالأمراء يحقق لهم الإفلات من العقاب على أشد الجرائم ؛ وفى عصر كان يسود فيه حكم القوة كان إذعان الفرد متوقفاً على مقدار ما يمكن أن يبذله الأقوى لإرغامه من وسائل القوة والعنف . وإنه ليبدو من الدهش فى عصر كانت فيه الجريمة الحقيقية تفرض لها عقوبات ضئيلة ، أو لا يعاقب عليها أصلا ، أن تسن عقوبات صارمة لجرائم خيالية ؛ فمثلا كانت سيادة الخرافة تقضى فى كل عصر بأن تسن عقوبة الموت ضد السحرة والمرافين ومفسدى الجو[1] .

.بربيه : فلما عمد النصارى فى الأعوام الأولى لتتويج ألفونسو قيصرا على الايات الأيبرو واستولى عليها ، ولكنهم لما آنسوا قوتهم ، وأجمعوا أمرهم ، أ-ب بذلك على تحطيم نير التبعية الثقيل ، وتحقيق استقلالهم من جديد ؛ ولم يبق

(١) هم طائفة من « السحرة » فى العصور الوسطى ، كانت تعزى إليهم المقدرة على إفساد الجو ، وإثارة العواصف والأنواء والأمطار ؛ وما زال أثر هذه الخرافة باقياً فى بعض المجتمعات الأوربية المتأخرة ، ولا سيما الفلاحين .

على ولائه منهم سوى أمير قطلونية نظراً لمصاهرته للقيصر ، وهو مع ذلك يؤمل أن يكون أكثرهم غنما .

وقدّم أسباب الحرب الأولى راميرو الثانى ملك أراجون ؛ وكان راميرو بالرغم من سنه ، وكونه كان من رجال الدين ، قد تزوج بموافقة البابا بابنة جيوم التاسع دوق أكوتين ، وأعقب منها ابنة تدعى بترونيلا ؛ وكان أكثر اهتماما بشؤون طائفته القديمة وتخصيص الهبات للكنائس والأديار منه بمهام الحكم . وبذا خسر حب شعبه وولاءه . وكانت موافقته على أن يزوج ابنته من سانشو ولى عهد قشتالة — وهو مشروع قد يهدد استقلال أراجون — مثار معارضة شديدة من الكبراء ؛ وفى بعض الروايات القديمة أن نفراً من هؤلاء الكبراء المجتمعين فى وشقة قد قتلوا بأمر راميرو لهذا السبب أو غيره ، وهى رواية يحيق بها الشك نظراً لما اتصف به راميرو من ضعف فى الخلق والعزم . وكان ملك نافارا يطمح إلى اعتلاء عرش أراجون بعد وفاة راميرو ، ولكنه استشاط غضباً حينما علم أن بترونيلا اختيرت وارثة للعرش ، مع أنه تقرر وفقاً لترتيب وضع قبل أن يرزق راميرو بابنته ، أن يؤول عرش أراجون إلى نافارا ؛ والظاهر أن القيصر ألفونسو نفسه كان قد وعد ملك نافارا بذلك وكفل تحقيقه .

ولكن تطور الأمور على هذا النحو وضع ملك نافارا فى مأزق شديد الحرج ، فهو قد حصر من الجانبين بين مملكتين قويتين تعتزمان اقتسام مملكته . بيد أنه أبدى همة وحزما ، واستطاع أن يجنى من وعورة أرضه ، فى النضال أعظم الفوائد . وألفى حليفاً مخلصاً فى أمير البرتغال ألفونسو هنريكيز الذى كان يخشى قشتالة ويحتمل سيادتها على مضض . وفى سنة ١١٣٦ نشبت الحرب فى وقت واحد على ضفاف نهرى إيبرو ومنهو[١] ، فزحف القيصر ألفونسو على نافارا بجيش ضخم ، وأثخن فى البسائط وحاصر القلاع ، وبدا كأن النصر يحالفه ، ولكنه لم يغنم شيئا ، لأنه لم يفتتح الحصون ؛ ثم جاءت الأنباء بتقدم القوات

(١) نهر فى شمال البرتغال .

البرتغالية فى جليقية ، فاضطر أن يسير إلى الناحية الأخرى من مملكته ، وأن ينسحب من الأراضى الناقارية حتى لا يفقد جليقية ؛ وفى الوقت نفسه كان المسلمون يهددون حدود قشتالة الجنوبية ؛ وهكذا استطاعت ناقارا أن تنجو من الخطر الداهم .

وبينما كان القيصر يسير تارة لمحاربة المسلمين ، وأخرى لمحاربة البرتغاليين ، إذا بالحوادث فى أراجون تتطور لصالح قشتالة ، بالرغم من كون غزوها لناقارا لم يسفر عن فتوح ثابتة ؛ ذلك أن راميرو الثانى لم يستطع على تقشفه واعتداله أن يكسب حب شعبه ، وبالعكس فان فريقاً من الشعب كان يبغضه لأنه تزوج بالرغم من انتمائه لرجال الدين ، ويبغضه فريق آخر لأنه عاطل عن الصفات الحربية . وأخيراً غلب عليه ضعف الشيخوخة وعادته القديمة فى حب العزلة ، فاعتزم أن يختار لابنته بترونيلا زوجا يضطلع دونه بأعباء الحكم ، ثم ينسحب هو نهائيا من الملك ؛ ودعا بموافقة القيصر أو بإيعازه ممثلى أراجون إلى اجتماع عقد فى بربشتر لبحث هذا الموضوع ، واستقر الرأى بالإجماع على اختيار الكونت ريموند برنجار الرابع أمير قطلونية ليكون زوجا للأميرة لما اتصف به من رفيع المواهب والخلال ؛ فرحب الكونت ريموند بأن يغدو زوجا لوارثة مملكة ، وذلك بالرغم من أن الأميرة لم تكن قد جاوزت الثانية من عمرها ، واشتُرط فى الخِطبة أنه إذا توفيت بترونيلا قبل عقد الزواج ، فان خطيبها يرث عرش أراجون بعد وفاة راميرو الثانى ؛ وفى الحال تولى الكونت زمام الحكم باعتباره وصيا ، ولم يغير مع ذلك لقبه ، مؤثراً أن يبقى كونتاً قويا على أن يغدو ملكا ثانويا ؛ ولعل ذلك مرجعه أن راميرو الثانى لبث محتفظا بلقبه الملوكى ، وذلك بالرغم من أنه التجأ إلى سكون الدير (سنة ١١٣٧ م) واعتزل كل شؤون الحكم ، وعاش بعد ذلك زهاء عشرة أعوام حتى سنة ١١٤٧ ، وربما أيضاً حتى سنة ١١٥٥ . ولما توفى راميرو تلقبت بترونيلا بألقاب الملك ، وشاطرت زوجها الحكم فى أراجون ، ولكنها لم تشركه فى اللقب . ولم تتحد قطلونية وأراجون فى مملكة واحدة إلا فى ظل عقب

رعوند وبترونيلا ، واحتفظت مع ذلك كل منهما بقوانينها وأنظمتها السابقة ؛ وتبوأت قطلونية فى البداية مركز الرياسة نظراً لتجارتها الفنية ، وذلك بالرغم من مثول اسم أراجون فى المملكة المتحدة .

ولم يتردد القيصر فى أن يؤيد ارتقاء صهره الملك بالاعتراف به وإقراره ؛ ولعله قد عمل سرا لتنظيم هذا المشروع وتنفيذه ؛ وسار رعوند برنجار إلى لقاء ألفونسو رعوندز فى « كاريون » ، ووافق ألفونسو على تصرفات راميرو باعتباره صاحب السيادة عليه ، وقدم دليلا على جوده وصداقته بأن نزل للوصى على أراجون عن جميع القلاع الواقعة على نهر إيبرو ؛ ومنها سرقسطة التى كان يحتلها حتى ذلك الحين ؛ وأقسم رعوند من جانبه يمين الطاعة لألفونسو ، وتعهد بأن يمده فى جميع الحروب التى يخوضها بقوى أراجون وقطلونية ولا يجدوك .

وكان من صالح الملكين أن يحاربا عدوهما المشترك جارسيا ملك نافارا ، وكان رعوند برنجار يرى أن هذه المملكة يجب أن تؤول إلى أراجون . وكان القيصر ينقم على ملك نافارا أنه خرج عليه بعد أن أقسم فى البداية يمين الخضوع له ، وأنه تحالف مع أمير البرتغال الخارج على سلطانه ؛ ولما كان يتعذر على أراجون وحدها أن تحارب نافارا بنجاح ، فقد رأى القيصر أن يسير بنفسه إلى نافارا عن طريق الأيبرو فى جيش ضخم ، بينما زحف رعوند برنجار فى نفس الوقت فى جيشه من الجنوب لكى يشدد الضغط على المملكة الصغيرة ؛ وبدا عندئذ أنه يتعذر على الملك جارسيا أن يقاوم طويلا ، ولكن أحكم الخطط قد يفسدها حادث طارئ . أجل استطاع القيصر أن يخترق نافارا ظافراً (سنة ١١٣٩) ، وأن يصل إلى عاصمتها بنبلونة دون كبير مقاومة ، وأن يضرب حولها الحصار فى الحال ؛ ولكن الجيش الأرجونى الذى كان مقرراً أن يلحق بالقيصر تحت أسوار بنبلونة عاقته خطط الملك جارسيا البارعة عن بلوغ هذه الغاية ، وجعلته فى مأزق حرج ، واستطاع النافاريون أن يوقعوا به هزيمة شديدة ؛ وكان جارسيا أحرص من أن يحمله حسن طالعه على أن يحاول بقواته الضئيلة لقاء القيصر فى قواته الضخمة ،

فاكتفى بأن يلتزم خطة الدفاع ، وأن ينهك بذلك قوى خصومه ، وانتهى ببلوغ الغاية المنشودة ؛ إذ غادرت قوى العدو أراضيه دون أن تقوم فيها بأى فتح يذكر . وارتد الحليفان عند دخول الشتاء يغمرها الخجل ، وهما يعتزمان محو عار هذه الحملة الفاشلة فى العام التالى باحراز نصر باهر .

وعند بدء الحرب فى العام التالى تطورت الحوادث السياسية ، فسعى ملك نافارا الفطن لدى رجال الدين ، وكذلك لدى الكونت دى تولوز الذى جاء حاجا إلى شنت ياقب ، للتدخل فى عقد الصلح ؛ وكان حليف نافارا المخلص ألفونسو هنريكيز الذى تلقب قبل ذلك بقليل بملك البرتغال قد روعته نتائج الحرب مع قشتالة ، وشغلته غارات المسلمين ، فلم يك بوسعه أن يشد أزر الملك جارسيا . فلما سار القيصر ألفونسو فى ربيع سنة ١١٤٠م لمحاربة نافارا للمرة الثانية ، واتجه نحو قلهرّة ، وسار ريموند برنجار فى نفس الوقت بقوات أراجون وقطلونية وهو يضطرم شوقا إلى الانتقام لهزيمته ، ألقى جارسيا بقضيته الخاسرة إلى رجال الدين ؛ واستطاع هؤلاء أن يحملوا القيصر باسم السلام على وقف الحرب ، ولكن جارسيا اضطر للاحتفاظ بعرشه أن يعود فيعترف بسيادة القيصر ؛ ورؤى لتوطيد السلام والصداقة بينهما أن يعقد زواج أكبر أولاد القيصر ولى العهد سانشو والدونا سانشا ولية عهد نافارا ؛ وهكذا سوى النزاع بين قشتالة ونافارا . ولكن ذلك لم يكن ليرضى أراجون ، إذ كانت ما تزال تتطلع إلى عرش نافارا وتتربص الفرص لتحقيق أمنيتها بالسيف ؛ ونقم الأرجونيون على القيصر أنه لم يحسب حسابا لتحالفه مع أراجون وعقد الصلح بمفرده مع العدو المشترك ؛ وبينما كان ألفونسو مشغولا بقتال المسلمين نشبت الحرب بين نافارا وأراجون ، وبدأت الوقائع بينهما سجالا ، ثم رجحت كفة جارسيا ، واستولى على مدينة طرّكونة (سنة ١١٤٣) . فمنذئذ اهتم القيصر بالأمر ، سيما وقد أبدى ملك نافارا الذى غره الظفر أنه يبغى خلع سيادة قشتالة . وشهر ألفونسو الحرب على نافارا ، وزحف مع ريموند برنجار إلى الأيبرو لقتال العدو المشترك . وهنا تذرع جارسيا

بالحكمة وبادر بالتسليم اتقاء العاصفة ، ووعد بوقف الحرب ضد أراجون ، وأعاد إليها الأماكن المفتوحة وجدد عهد الخضوع للقيصر . ولما كانت زوجه الملكة مرجريتا قد توفيت منذ أعوام ، فقد رؤى توطيد هذا الصلح بتوثين روابط الأسرتين ، وذلك بزواج جارسيا من الدونا أوراكا ابنة القيصر غير الشرعية ، واحتفل بعقد هذا الزواج فى ليون فى ٢٤ يونيه سنة ١١٤٤ فى حفلات باذخة ضمت جميع ضروب اللهو الشائقة التى كانت معروفة فى ذلك العصر من موسيقى ومبارزات ومصارعات وغيرها ، وشهدها القيصر وأعضاء الأسرة الملكية وأشراف قشتالة وناقارا . وما كادت هذه الحفلات تنتهى حتى أخذ القيصر وأتباعه فى التفكير فى أمر الحرب التى يجب أن يشهروها معاً ضد المسلمين .

٢ — حروب النصارى الاسبان ضد المرابطين

منذ وفاة ألفونسو الأرجونى حتى بداية اضمحلال سلطان المرابطين

فى الأعوام الأولى التى تلت موت ألفونسو المحارب ، شغل الأمراء النصارى بشؤونهم الداخلية ، ولم يستطيعوا القيام بغزوات ذات شأن فى الولايات الإسلامية بل اكتفوا بأن عهدوا إلى حكام الحصون الواقعة على الحدود برد غارات المسلمين ؛ فلما انتهى القيصر من تهدئة اسبانيا النصرانية ، وخضع له جميع الأمراء عاد فسار بنفسه فى سنة ١١٣٨ م إلى مقاتلة المسلمين ، ولكن هذه الغزوة لم تكلل بالظفر . ذلك أنه لم يستطع الاستيلاء على قورية وهى قلعة منيعة تقع على مقربة من ضفة التاجه اليمنى ، وذلك بالرغم من حصارها الشديد . بيد أنه استطاع فى العام التالى أن يرد غزوة قام بها المسلمون فى ولاية طليطلة بقوات عظيمة ، وانتزع جنده بعد ذلك بقليل قلعة « أورية » من المسلمين ، وقد كانت قاعدتهم فى كل غاراتهم على قشتالة ، وكانت تعتبر مفتاح ولاية طليطلة واعتبر افتتاحها ظفراً عظيما ، واحتفل به فى طليطلة فى حفلات باذخة ، واستقبل رجال الدين القيصر الظافر ، وساروا فى موكبه إلى الكنيسة الكبرى حيث أقيم قداس شكر حافل .

ثم نشبت الحرب الأهلية بين الأمراء النصارى ، فاضطر القيصر أن يوقف غزواته الكبيرة ضد المسلمين ، وكانوا يومئذ يهددون البرتغال أكثر مما يهددون قشتالة . فلما سقطت قلعة « مورة » المنيعة فى يد المسلمين باهمال حاكمها مونيو ألفونسيز (سنة ١١٤٠ م) وعرضت قشتالة بذلك إلى الغارات المخربة مرة أخرى ، حشد القيصر جيشاً ضخما وسير حاكم طليطلة رودريك فرنانديز على رأس جيش إلى « وادى يانه » ضد قرطبة وحتى ظاهر إشبيلية ، وحاصر القيصر نفسه قلعة قورية مدى شهرين حتى سقطت فى يده فى يونيه سنة ١١٤٢ م (٥٣٦ هـ) وذلك بعد أن رد عنها جيشاً من المسلمين قدم لإنجادها . وفى بعض الروايات أن النصارى ساقوا إلى طليطلة عشرة آلاف من أسرى المسلمين .

وفى العام التالى قام مونيو ألفونسيز ضد قرطبة بغزوه موفقة محا بها الوصمة التى لحقته من جراء إهماله فى الدفاع عن قلعة « مورة » فانتسف المروج الخصبة الواقعة على ضفاف الوادى الكبير على مقربة من قرطبة وجمع غنائم عظيمة ، وأحرز نصراً باهراً على قوة كبيرة من المسلمين حاولت أن تعترض سبيل عوده إلى قشتالة ، وسقط القائدان المسلمان وهما واليا قرطبة وإشبيلية فى الميدان مع عدة آلاف من القتلى ؛ وكانت هزيمة ساحقة للمسلمين ، وكانت غنائم النصارى تفوق كل أمل ؛ واستقبل مونيو ألفونسيز فى طليطلة استقبال الفاتحين الرومان ، وتسلم رجال الدين عشر الغنائم برسم الكنيسة ورفع رأسا القائدين المسلمين على رمحين عاليين ، وتبعهما الأسرى من أكابر المسلمين والفرسان فى الأغلال ، ثم بقية الأسرى وقد غلت أيديهم وراء ظهورهم ، ثم موكب الغنائم من الخيل والدواب ومختلف النفائس ؛ وسار القائد المظفر على رأس هذا الحفل حتى الكنيسة الكبرى حيث كانت القيصرة برنجاريا ورجال الدين والأشراف والشعب المحتشد فى انتظاره . ولما عاد القيصر إلى طليطلة — وكان غائباً عنها — بعد ذلك بأيام أقيمت حفلات النصر مرة أخرى ، وأفرز من الغنائم غير عشر الكنيسة قسط كبير لمزار القديس ياقب فى كومبوستل ، وأفرز منها الخمس للقيصر وفقاً للحقوق المرعية ، وقدمت له

أجمل الخيل والدواب ، وحصل مونيو وجنده على ما تبقى منها ؛ وعُلق رأسا القائدين المسلمين أمام القصر الملكي وفقاً للتقاليد الشرقية ، ولكن القيصرة لم تطق المنظر المروع فأمرت بغسل الرأسين ووضعهما فى حرزين ثمينين وإرسالهما إلى زوجى القتيلين ليدفنا بالتكريم اللائق .

وقد أثارت هذه الهزيمة فى قلوب المسلمين أيما جزع ؛ ولما وصلت أنباؤها سلطان المرابطين فى إفريقية استشاط سخطاً لما لحق جيوش المسلمين من محنة ومهانة ، واعتزم اتخاذ الإجراءات المشددة ، فعين يحيى بن غانية الظافر فى موقعة إفراغة والياً عاما لجميع أراضى الأندلس التى يبسط عليها المرابطون حكمهم ، وأمره أن يعمل على أن يأخذ من النصارى بثأر قتلى المسلمين . وفى تلك الأثناء قاد القيصر جيشاً إلى قلب الأندلس ضد قرمونة وإشبيلية وعاث فى البسائط ، ونفذ المسلمون من ناحية أخرى إلى قشتالة وهاجموا قلمة رباح وأثخنوا فى هاتيك الأنحاء ، وأمل مونيو أن يحرز نصراً باهراً كالذى أحرزه من قبل ؛ فتقدم بجرأة ودون تحوط واشتبك فى موقعة مع عدو يفوقه فى الكثرة ، وقدم بذلك إلى المسلمين فرصة لتحقيق الانتقام المنشود ؛ وهنا هزم النصارى هزيمة شديدة وسقط مونيو مثخناً بالسهام . ففصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده ، وأرسلت إلى قرطبة وإشبيلية لكى تعرض على زوجى الواليين القتيلين عزاء لهما ؛ ثم حملت بعد ذلك إلى سلطان المرابطين فى مراكش دليلا على نفاذ أوامره . ولكن باقى الجثة أرسل إلى القشتاليين مقابل إرسالهم لرأسى الواليين المسلمين نزولا على تقاليد الفروسية . وعلقت رؤوس أكابر النصارى فوق أرفع أبراج قلمة رباح عنواناً بالنصر المبين .

وأثار موت مونيو الشجاع حزناً عاما فى طليطلة ، ولو أنه اعتبر عقاباً من الله لأن مونيو سبق أن قتل ابنته بيده ، إذ فاجأها ذات يوم مع حبيبها الفتى ؛ وحزن القيصر أيضاً لفقد قائده الباسل وأقسم بأن ينتقم لموته . فسار إلى الأندلس فى سنة ١١٤٤م وكرر غاراته المخربة ولم يتورع عن شىء ، ففى كل مكان أحرقت القرى والدساكر أو هدمت ، وسيق الناس والدواب قطعاناً ، وحملت غنائم

عظيمة ، وأثخن النصارى فى بسائط قرطبة وإشبيلية وقرمونة وغرناطة ، حتى المرية ، والتجأ المسلمون الذين استطاعوا النجاة إلى الحصون ، وعاد القيصر إلى وطنه مثقلا بالغنائم .

ومن ذلك الحين يجوز المرابطون أسود الفترات التى عجلت بانحلالهم . وقد مهد انهيار نظم الحكم فى اسبانيا المسلمة من جراء الحروب الأهلية ، واضمحلال سلطان المرابطين فى إفريقية ، السبيل لفتوح النصارى . بيد أنه يجب قبل أن نمضى فى تتبع هذه الفتوح أن نقص ما انتهت إليه مصاير المرابطين فى إفريقية .

الفصل الثانى

اضمحلال سلطان المرابطين فى إفريقية

من جراء ثورة الموحدين

(سنة ١١٢٠ — ١١٤٦ م) — (٥١٤ — ٥٤١ هـ)

---

١ — أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدى

مؤسس دولة الموحدين

فى العشرة الثانية من القرن الثانى عشر الميلادى ، بعد أن تولى على بن تاشفين حكم المرابطين ببضعة أعوام ، قصد رجل ، من بلاد السوس ومن قبيلة مصمودة يدعى أبو عبد الله بن تومرت[1] ، إلى طلب العلم فى أشهر معاهد المغرب والمشرق أسوة بعلماء عصره . وبعد أن درس حينا فى معاهد قرطبة والقاهرة رحل إلى بغداد لكى يستمع هنالك إلى دروس الفيلسوف الأشهر أبى حامد الغزالى ؛ وكان الغزالى قد وضع كتابا أنكره فقهاء قرطبة ، وقضوا بتكفير مؤلفه نظراً لما احتواه من أقوال ضد السنة ؛ وأخذ سلطان المرابطين على بن تاشفين برأيهم ، وأمر بأن

---

(١) هو كما ورد فى روض القرطاس محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ؛ وزعم بعض مؤرخى الموحدين أن نسبه ينتهى إلى على بن أبى طالب ؛ وقيل إنه دعى فى هذه النسبة ، وإنه يسمى فقط محمد بن تومرت الهرغى نسبة إلى هرغة من بطون مصمودة (راجع روض القرطاس ص ١١٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ وما بعدها ؛ والمراكشى ص ٩٩ وما بعدها ؛ والحلل الموشية ص ٧٥ وما بعدها ؛ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ وما بعدها) .

تحرق كتب الغزالى كلها فى أنحاء مملكته الشاسعة باعتبار أن مؤلفها كافر خارج على الدين[١] .

فنى تلك الآونة نفسها قصد أبو عبد الله بن تومرت إلى الغزالى فى بغداد ؛ فعرف الفيلسوف من لغة الفتى وزيه وهيئته أنه غريب ، ولما علم أنه قدم من المغرب وأنه درس طويلا فى قرطبة ، سأله كيف استُقبل هنالك كتابه « إحياء علوم الدين » ، فلم يخف عليه أبو عبد الله أن الكتاب قُضى بخروجه على الدين ، وأن سلطان المرابطين — على بن تاشفين — أمر بإحراقه نزولا على قرارات معاهد قرطبة ومراكش وفاس والقيروان ؛ وكان هذا أول نبأ تلقاه الغزالى عن مصير كتابه فى المغرب ، فبدا عليه التأثر لهذه المفاجأة ، ودعا على كل من أنكر كتابه أو أحرقه ، وخص على بن يوسف بلعنته ورفع يديه بالدعاء قائلا : « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ، فقال أبو عبد الله : « أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك على يدى » ؛ فقال : « اللهم اجعله على يد هذا الرجل »[٢] .

وربما بعث هذا الحادث إلى أبى عبد الله فكرة بأنه مكلف بأداء رسالة إلهية ؛ ذلك أنه ما كاد يعود إلى وطنه فى سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) حتى بدأ يبث تعاليمه الجديدة فى كثير من مدن المغرب ؛ وقد أثار بغريب زيه ؛ وبالغ زهده وورعه وتقشفه ، وخطبه القوية الحارة التى يشدد النكير فيها على مثالب الطبقة العليا ، ونقائص الرجل العادى ، بين الناس أيما اهتمام ، فهرع الناس إلى سماعه من كل صوب ؛ وكان يخلب ألباب المتبرمين من شظف العيش ، بما يستعرضه من ألوان الغطرسة والمرح والترف التى يغرق فيها البلاط والأكابر ؛ وكان من الطبيعى أن يهتم ولاة المدن التى يخطب فيها باحتشاد الناس من حوله ، وأن يعتبروا هذا « النبى » الجديد مهدداً للنظام والأمن ؛ ولكن الرجل الفطن كان يظفر بالنجاة

(١) كتاب الغزالى المشار إليه هنا هو مؤلفه المشهور إحياء علوم الدين ؛ وقصة الحكم عليه وتكفير مؤلفه مشهورة فى تاريخ الأندلس ، (راجع فى ذلك الحلل الموشية ص ٧٥، ٧٦ ، والمراكشى ص ٩٩) .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٧٦ ، ٧٧ ؛ وتروى هذه الواقعة أحياناً بصور أخرى .

فى كل مرة ، إما بالفرار فى الوقت المناسب أو بالاختفاء عند بعض الأصدقاء المخلصين ؛ وكان قد التف حوله بعض التلاميذ الذين يخلصون له من أعماق قلوبهم ، واصطفى من بينهم بالأخص فتى جيــل الطلمة هو عبد المؤمن بن على [١] ؛ فعنى بتثقيفه فى تعاليمه الجديدة أتم عناية واختاره وزيراً .

وبعد أن طاف أبو عبد الله بكثير من بلاد المغرب واعظا ، وحشد من حوله الأنصار والتلاميذ أينما حل ، سار بصحبة أخلص تلاميذه إلى مراكش عاصمة المرابطين . ثم قصد يوم الجمعة إلى مسجدها الجامع وقت الصــلاة ، وكان غاصا بالمصلين ؛ وجلس فى المــكان المخصص لأمير المسلمين بين استحسان الجمهور وإعجابه ؛ ولما أراد بعض سدنة الجامع أن يبعده عن موضعه التفت إليــه فى هدوء وحزم وتلا عليه الآية : « وأن المساجد لله » ، وأخذ يفسرها ، والجمهور يرمقه بمنتهى الإعجاب والتقدير .

ولما جاء سلطان المرابطين ليشهد الصلاة ، نهض الحضور جميعاً لتحيته كالعادة إلا أبا عبد الله فانه لم يتحرك من موضعه ، ولم يرمق الأمير ، ولم يبد أقل إشارة تشعر باهتمامه بأمره ؛ فلما انتهت الصلاة ، نهض لتحية الأمير وقال له ما يأتى : « غيِّـر المنكر وارفع الظلم ببلادك ، فأنت المسئول عن رعيتك أمام الله » ؛ فألفى الجمهور قوله صوابا ، وأيده باعتبار أن ما قاله حق ؛ ولــكن عليا لم يجب بشىء ، وظن أن محدثه من أولئك الزهاد الورعين المنقطعين إلى العبادة ، والذين لا حرج عليهم فى أن يحدثوا الأمير بمثل ذلك ؛ فسأله عندئذ عما إذا كانت له حاجة ؛ فأجابه أبو عبد الله : « لست بطالب دنيا ، ولا حاجة لى بها غير أنى آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر » [٢] .

ولم يمض سوى قليل حتى زاد اهتمام علىّ بأمر هذا الرجل ؛ وكان أبو عبد الله

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٧ .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٧٣ ؛ وروض القرطاس ص ١١١ ؛ وفى الرواية أن الشق الأخير من الحديث بين الأمير وأبى عبد الله لم يقع فى المسجد ، ولــكنه وقع فى القصر حيث استدعى الأمير أبا عبد الله عقب الصلاة .

يعظ فى المدينة ، فى الميادين العامة وفى المساجد ، فى جموع غفيرة ؛ ويحمل على الملاذ الدنيوية ، وعلى فساد الطبقة العليا بين هتاف الجمهور واستحسانه ؛ فأمر علىّ العلماء بامتحان الرجل ، وإصدار رأيهم فيه ، وقال العلماء بأن أبا عبد الله لا يبغى بالتحدث عن البدع والمدهشات سوى استهواء العامة وإثارتهم ، وأنه يجب لصون الأمن والنظام أن يحال بين الرجل وبين الناس ، وأن يزج فى الحال إلى السجن ؛ وقال بعض الفقهاء للأمير : «أبقاك الله ، هذا الرجل استعمله فى الكبول ، وإلا قصده يسمعك الطبول »(١).

ولكن الوزير عثمان بن عمر عارض فى هذا الرأى بحجة أن أخذ أبى عبد الله بالعنف يدل على خوف الأمير منه ، وأنه يجب أن لا تعلق مثل هذه الأهمية على رجل حقير مثله ؛ فوافق الأمير على هـذا الرأى ، ولم يتخذ أى إجراء عنيف ضد أبى عبد الله ، وترك حرا فى سبيله (٢) ؛ ولكنه أبعد من مراكش على ما يظهر أو لقى صعابا فى البقاء بها ، فغادرها بعد قليل إلى فاس ، وتابع مواعظه هنالك ؛ ثم عاد إلى مراكش بعد بضعة أعوام ، ليستأنف الوعظ بها بمحضر من البلاط ، وعاد صوته يدوّى فى الميادين والمساجد ضد الفساد والمنكر وشرب الخمر والانغماس فى اللهو ؛ ثم عمد إلى آلات الطرب فأخذ يحطمها بحماسة ، وكانت تستعمل للرقص الخليع والغناء المستهجن ، ومضى فى وعظه غير حافل بالسلطات ؛ ولم يقصر حملاته على المعاصى وحدها ، بل تعداه إلى الحملة على أشخاص مرتكبيها والتنويه باستحقاقهم للعقاب ؛ فعندئذ بذل رجال البطانة — وهم من خاصة المنغمسين فى اللهو والترف — كل ما استطاعوا للإيقاع به ، وأبدوا لسلطان المرابطين ما يحيق من الأخطار بحكومته إذا ترك هذا الواعظ المثير وشأنه دون عقاب ؛ فاستدعاه علىّ إليه وخاطبه برفق ، وسأله عما إذا كان حقا ما يقال عنه ، وهو أنه يحرض الناس على الثورة ، فأجابه أبو عبد الله : « ماذا يمكن أن يقال لك عنى ، إلا أنى رجل

(١) الحلل الموشية ص ٧٤ . وقد استعرنا هنا ألفاظ الرواية العربية ، وهى التى ترجمها المؤلف .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٧٤ .

فقير ، أطلب الآخرة ، ولست بطالب دنيا . وليس لى فى هذه الدنيا شأن غير شأنى ؛ وهو ليس فى الواقع من شؤون هذه الدنيا » فدهش على لجوابه ؛ ولما لم يكن فى نفسه منه شىء رأى أن يحاول حسم الأمر بالمعروف ، فاستدعى فقهاء البلاط لمناظرته بحضرته فى آرائه وتعاليمه الجديدة ؛ فطال الجدل والنقاش بين الفريقين[1] ولم يرتح علىّ لأقوال أبى عبد الله ، ورأى أخيراً أن ينزل عند نصح علمائه فى العمل على صون السكينة فى عاصمته ، فحظر الوعظ على الداعية ، وأمر بنفيه من مراكش ، خصوصا وقد اجترأ أبو عبد الله ذات يوم ، حينما لقى أخت علىّ فى الطريق حاسرة قناعها ، فأنبها على تبذلها ، ثم لطمها فوقعت من على جوادها[2] .

وما أن بدأت مطاردة أبى عبد الله (ابن تومرت) على هذا النحو حتى كتب النجاح لقضيته . ذلك أنه سار برفقة عبد المؤمن وزيره وأخلص تلاميذه إلى موضع منعزل بقرب مراكش ، وابتنى له هناك كوخا بين القبور ، فهرعت إليه جموع غفيرة من الناس تطلب الاستماع إليه ، والتف حوله ألف وخمسمائة رجل كانوا على استعداد دائم لأن يعملوا كل شىء ، وأن يحتملوا كل شىء فى سبيل أستاذهم وسيدهم .

وبدأ أبو عبد الله من تلك اللحظة يصف حكومة المرابطين بأشنع النعوت ، وكيف أنها عاكفة على نشر الإلحاد والفساد والمنكر والفجور ، وأنه يجب قتالها وإلا أصيب الاسلام فى الصميم ؛ وهنا بدأ لأول مرة يتلقب بالمهدى وهو الذى ورد ذكره فى الحديث ، بأنه يقوم برد الدين الصحيح ؛ وتطهير قلوب المؤمنين من الشوائب ، وإرشادهم إلى طريق الحق والعدل ومعرفة المولى الفرد الصمد ، وذاع صيت أبى عبد الله بسرعة وكثر أنصاره كثرة جزعت لها حكومة المرابطين

(١) أورد صاحب روض القرطاس خلاصة المناقشات الكلامية التى وقعت فى هذا المجلس بين ابن تومرت وبين مناظريه (ص ١١٢) .

(٢) إن إيراد هذه الواقعة على هذه الصورة فيه تحريف ؛ وخلاصته الواقعة كما رواها ابن خلدون هو أن ابن تومرت « لقى ذات يوم الصورة أخت على بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين فى زى نسائهم ، فوبخها ، ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه » (ج ٦ ص ٢٢٧) .

وأصدر علىّ فى الحال أمره بالقبض عليه وإعدامه ؛ ولكن أبا عبد الله وقف على ذلك الأمر فى حينه ، وفر من مطارديه سريعا ، وقصد إلى اغمات ، ثم قصد منها إلى تينمال (أو تينملل) من بلاد السوس يصحبه رهط من أخلص أنصاره .

وهنالك ، فى وطنه ، عكف يحدث جموع الشعب التى تتزايد كل يوم من حوله ، عن رسالته الإلهية باعتباره المهدى المنتظر ، ويطلب إليهم الثورة ضد المرابطين الملاحدة . ولما كان المرابطون قد أثاروا بغطرستهم ، وترفهم ، وعدم حرصهم على كثير من التقاليد الدينية سخط المسلمين المحافظين ، فقد ألقت تعاليم المهدى وتحريضاته الاستحسان والتأييد فى كل مكان . وبادر النبى الجديد من جانبه إلى انشاء نوع جديد من الدولة ، ليتم بذلك ثورته على حكم المرابطين ، وذلك بأن بايعه عشرة من أخلص أصدقائه وتلاميذه تحت شجرة خرنوب ، باعتباره الامام المهدى ؛ بايعوه على الطاعة المطلقة ، وأن يفتدوه بأرواحهم وأموالهم ،[1] وبايعه من بعدهم كثير من رجال القبائل ، وأطلقوا من ذلك الحين على أنفسهم اسم الموحدين ،[2] (ومعناه الذين اتحدوا على الإيمان بوحدة الله) ؛ وقسم أبو عبد الله أتباعه إلى عشر طبقات ، أولاها وأرفعها طبقة الجماعة أو العشرة وهم أول من بايعه ، وكانوا يشاطرونه الحكم ، ويتولون لديه مناصب الوزارة والقيادة . وتتألف الثانية من أهل الخمسين ، والثالثة من أهل السبعين ، وهما ضرب من المجالس النيابية ؛ ويتولى أعضاؤها فى الوقت نفسه مناصب الادارة ، وتنظيم أعمال

(١) وهذه هى أسماء صحب المهدى العشرة ، وهم عبد المؤمن بن على ، وأبو محمد البشير ، وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص بن يحيى الهنتاتى ، وأبو حفص عمر بن على أزناج ، وسليمان بن مخلوف ، وابراهيم بن إسماعيل الخزرجى ، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمار ، وأبو يحيى بن بكيت ؛ وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة . (راجع روض القرطاس ص ١١٣ والحلل الموشية ص ٧٩ والاستقصاء ج ١ ص ١٣٦ ، والمراكشى ص ١٠٤) ، وأورد ابن خلدون منهم أسماء أخرى (ج ٦ ص ٢٢٧) .

(٢) قال ابن خلدون فى تعليل هذه التسمية : « وكان (أى المهدى) يسمى أصحابه بالموحدين تعريضا بلمتونه فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم » (ج ٦ ص ٢٢٩) وراجع أيضاً روض القرطاس ص ١١٤ ؛ والحلل الموشية ص ٨٠ .

البر ، ويعاونون العشرة على القيام بأعباء الحكم ؛ وتتألف الرابعة من العلماء (الطلبة) ؛ والخامسة من الحفاظ (صغار الطلبة) ؛ والسادسة أهل الدار (أسرة المهدى) ؛ والسابعة أهل هرغة (قبيلة المهدى) ؛ والثامنة أهل تينمال ؛ والتاسعة أهل جرميوت ؛ والعاشرة من الجند من مختلف القبائل[1] ؛ وكان أصحاب المهدى يومئذ زهاء عشرين ألفا ، اختار منهم عشرة آلاف وزودهم بالأعلام البيضاء (وكانت أعلام المرابطين سوداء) ، ووضعهم تحت قيادة أبى محمد البشير ، أحد العشرة المختارين .

وكان على بن تاشفين فى اسبانيا حينما علم بأهبة أبى عبد الله لمحاربته ، فبعث فى الحال جيشا تحت إمرة ولده الأمير أبى بكر لمقاتلة الثائر ، وكانت قوى الموحدين قد بلغت عندئذ حدا لم يجرؤ معه قائد المرابطين على نزالهم ، فانتظر الأمداد ؛ فلما وصلته تقدم لقتال الموحدين ، ولكن رعباً فجائيا سرى إلى صفوف المرابطين ، فركنوا إلى الفرار قبل أن يبدءوا القتال ، وتركوا النصر لأعدائهم (سنة ٥١٦ هـ — ١١٢٢ م) . وجاء جيش آخر من المرابطين ، فكان أقل خوراً من سابقه ، والتحم مع الموحدين فى معركة دموية ، ولكنه هزم وألجئ إلى الفرار ؛ ثم جاء جيش ثالث ، فلقى مالقى سابقه . وبدا كأن المرابطين فاتحى إفريقية قد فقدوا كل قواهم وكل منعتهم ؛ واشتد ساعد المهدى ، وأخذ يدعو على بن تاشفين إلى الخضوع ؛ وفقد المرابطون أنفسهم كل ثقة فى جيوشهم . ولما سار أخو على الأمير الشجاع أبو الطاهر تميم ، الذى اشتهر فى اسبانيا بحروبه ضد النصارى ؛ على رأس جيش جديد لقتال الموحدين ، ركن جنده فى الليل إلى الفرار قبل أن يبدو لهم العدو ، وهلك كثير منهم تحت جنح الظلام فى مفاوز ووهاد عميقة ، ولعلهم لو خاضوا القتال بشجاعة لنجوا .

---

(١) راجع الحلل الوشية ص ٧٩ ؛ وقد أورد من أصحاب المهدى أربع طبقات أخر ، هم أهل جنفيسة ، فأهل هنتاتة ، فالجند ، فالغزاة والرماة ؛ ولكن المؤلف أجمل هذه الطبقات فى الطبقة العاشرة .

وعمد المهدى بعد هذه الانتصارات المتوالية — التى يرجع معظم الفضل فيها إلى تعصب الموحدين — إلى مدينة تينمال فحصنها وجعلها قاعدته ؛ وسير منها البعوث إلى مراكش تعيث فى أراضيها ، وتنزل بالمرابطين ويلات تجل عن الوصف ، ولا يستطيعون لها انتقاما . ولم يكتف المهدى بذلك ، واعتقد عندئذ أنه يستطيع غزو العاصمة المرابطية ، وتحطيم سلطان علىّ . ولما كان يومئذ مريضاً طريح الفراش ، فقد عهد بالقيادة إلى وزيره أبى محمد البشير ، فسار إلى مراكش على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل ؛ ومع أن علىّ بن يوسف ساق للدفاع عن عاصمته مائة ألف مقاتل ؛ فقد لقى على يد الموحدين المتعصبين هزيمة شنيعة ؛ وبدأ الموحدون فى الحال حصار مراكش .

وبدا لأول وهلة أن مراكش مع ما أصاب المرابطين من الهزيمة والانحلال ، لا تستطيع بالرغم من حاميتها الكبيرة المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أن تقاوم العدو طويلا . ولكن ما تلقاه المرابطون من عون محمد والى سجلماسة ونصارى الحرس الخاص قوّى عزائمهم ، وخصوصا عندما التقى نصارى الحرس خارج المدينة بقوة من الموحدين فهزموها ودلوا بذلك على أن الموحدين ليسوا من المنعة كما بدوا . وعلى أثر ذلك نشبت معركة قاتل المرابطون فيها كالأسود ذاكرين أيام نصرهم السابقة ؛ وقتل خلالها قائد الموحدين الشجاع أبو محمد البشير أعظم قواد المهدى ، وسقط معه فى الميدان معظم جنده (سنة ٥١٩ هـ — ١١٢٥ م) . وقاد فلول الجيش عبد المؤمن بن علىّ أحد العشرة ، وارتد نحو أغمات وهو يشتبك مع مطارديه فى معارك مستمرة ؛ وسقط خمسة آخرون من العشرة فى ذلك الارتداد ؛ ولما وقف المهدى على أنباء هذه الهزيمة أبدى ارتياحه حينما علم أن عبد المؤمن لايزال حيا ، وقال : إذاً فقد بقيت الغلبة لنا [(١)].

ولم يترتب على فوز المرابطين على الموحدين أن أنقذت العاصمة فقط ، بل

---

(١) هذه عبارة المؤلف ؛ ولكنها وردت فى الحلل الموشية كما يأتى : « ولما وصل الفل إلى المهدى وفيهم أربعة من أصحابه وعبد المؤمن معهم ، وجدوه بتينمال مريضاً ، « فقال لهم أسلم عبد المؤمن ، قالوا نعم ، قال منذ عاش عبد المؤمن بقى » (ص ٨٦) .

ترتب عليه بالأخص أن عاد كثير من القبائل المنشقة إلى الطاعة ، واستطاع علىّ بعد أن أغفل شؤون الأندلس مدى حين أن يعود إلى العناية بها . وكان ألفونسو الأرجونى قد قام فى ذلك الوقت بغزوته ضد غرناطة ، وبدأ النصارى المعاهدون والمسلمون أنفسهم يحاولون التملص من نير المرابطين المرهق ؛ فعمل علىّ على تغريب معظم النصارى المعاهدين إلى إفريقية [1] ، وقامت الحاميات القوية فى المدن بكبح جماح المسلمين ؛ وبعث علىّ ولده تاشفين بجيش جديد إلى الأندلس لكى يقاتل النصارى وليشغل بذلك اهتمام المسلمين . وقد فصلنا أخبار هذه الغزوة فيما تقدم .

وفى أثناء ذلك أنفق الموحدون فى قلعتهم المنيعة تينمال ثلاثة أعوام فى التأهب لاستئناف الحرب ، وظهرت خلال ذلك قوة نفوذهم وما تكنه القبائل لهم من الإخلاص ؛ وأدرك علىّ نفسه أن العاصفة التى تنذر باجتياح ملكه لم تخب بعد ، فعمل منذ هزيمته لأعدائه على تحصين مراكش وإعدادها للدفاع .

ولما أرسل المهدى — وكان لايزال مريضاً — عبد المؤمن إلى الميدان على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل عادت القبائل المنشقة عليه إلى طاعته ، وهرعت إلى لواء عبد المؤمن فبلغت قواته مبلغاً عظيما ، واستطاع أن يلقى جيشاً من المرابطين قوامه مائة ألف مقاتل بقيادة الأمير أبى بكر بن على ؛ وبعد قتال دام ثمانية أيام نشبت فيه عدة معارك انتصر الموحدون على المرابطين كرة أخرى ؛ وطارد الموحدون أعداءهم حتى أبواب مراكش ، وضربوا الحصار حولها مرة أخرى (رجب سنة ٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م) ؛ ولكن عبد المؤمن اعتبر بما وقع للموحدين فى الحصار الأول ، فاكتفى بنصره وعاد بجيشه إلى تينمال .

وكان المهدى قد اشتد به المرض والضعف ، فجمع من حوله صحبه وودعهم وداعا مؤثراً شاعراً بدنو أجله . وتختلف الرواية العربية فى أمر موته ، فالبعض يقول إنه توفى بعد ذلك بقليل فى شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ (سبتمبر سنة ١١٣٠) ،

(١) راجع الهامش الخاص بذلك فى ص ١٥٧ .

والبعض يقول بأنه عاش طويلا بعد ذلك ، أو على الأقل بأن الشعب قد حُمل على الاعتقاد بأنه مازال على قيد الحياة [١].

وكان أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدى ، متوسط القد ، أسمر اللون ، خفيف العارضين ، أسود الشعر ، جميل العينين ؛ وكان وافر الفصاحة واسع المعرفة ؛ وكان فى حياته الخاصة كثير التقشف والزهد ؛ بيد أنه كان صارما سفاكا للدماء ، يستبيح دم أعدائه ودم أصدقائه إذا لم يصدعوا فى الحال بأمره ؛ وكان إذا أراد المبالغة فى عقاب أحد أمر بدفنه حيا ؛ وكان يذكى حماسة جنده عما يعدهم به من عظيم الثواب فى جنات الخلد التى تنتظرهم إذا استشهدوا فى سبيل الدين الصحيح ؛ وكان يلقنهم صلوات صغيرة يتلونها فى الحرب فى الذهاب والوقوف والقتال ، اقتصاداً فى الوقت ولكيلا يضطروا إلى الركوع والسجود كما يحدث فى الصلوات المعتادة ؛ وهكذا كان المهدى يدفع بأصحابه إلى الحرب يحدوهم التعصب والبراعة ؛ وكان نصيبه الفوز [٢].

٢ — حروب الموحدين بقيادة عبد المؤمن ضد علىّ بن يوسف

ولما توفى ابن تومرت ، اجتمع الأئمة الأربعة الباقون من العشرة ، وجماعة الخمسين ، وجماعة السبعين لانتخاب زعيم جديد ؛ فاجتمعت كلمتهم جميعاً ، على أنه ليس أجدر بهذا المنصب من عبد المؤمن أحد العشرة ؛ فقد اصطفاه المهدى كأول تلاميذه وأخلصهم ، واتخذه وزيره ، وندبه للصلاة مكانه ، وعهد إليه بأمر دفنه ، وكثيراً ما صرح بأنه ما دام عبد المؤمن على قيد الحياة ، فلا خوف على سلطان

(١) تتفق معظم الروايات الاسلامية على أن وفاة المهدى كانت فى رمضان سنة ٥٢٤ هـ على اختلاف فى يوم الوفاة ، فالبعض يقول إنه يوم ١٣ رمضان ، والبعض يقول إنه ١٤ رمضان ، والبعض يقول إنه يوم ٢٥ رمضان . وفى الحلل الموشية أنه لما توفى المهدى كتم أصحابه موته مدى حين (راجع روض القرطاس ص ١١٧ والحلل الموشية ص ٨٦) ، ويقول ابن خلدون إن وفاة المهدى كانت سنة ٥٢٢ هـ (ج ٦ ص ٢٢٩) .

(٢) راجع وصف المهدى وخلاله وخلاصة تعاليمه فى روض القرطاس ص ١١٧ و١١٨ . ونشر الأستاذ لافى بروفنسال مجموعة من النبذ والفصول المتعلقة بتعاليم المهدى ورسائله منسوبة لابن البيدق تحت عنوان : Documents inédits d'Histoire Almohade.

الموحدين ، وقد أبدى عبد المؤمن فى الحرب أيما براعة ، وكان هو المنقذ عند المحنة ، وهو الظافر دائماً كلما قاد الجيش ؛ فهذه الخلال البديعة التى لم تتوفر فى غيره كما توفرت فيه ، تجعله خير أهل للزعامة ؛ فأجمعوا فى الحال على اختياره زعيمهم وسلطانهم المطلق ، ولقبوه بالخليفة وأمير المؤمنين ، وأقسموا له يمين الطاعة ، مبتدئين بالثلاثة العشريين فجماعة الخمسين ، فجماعة السبعين ، وتلاهم باقى الصحب والأنصار من الموحدين .

وقد رويت رواية أخرى عن تولية عبد المؤمن الزعامة لا يمكن الإغضاء عنها تماماً ؛ وخلاصتها أن المهدى توفى عقب هزيمة الموحدين الأولى ، ولم يعلم بموته سوى عبد المؤمن ؛ فحرص على إخفاء موته ، ولبث مدى ثلاثة أعوام يدير شؤون الحكم باسم المهدى ، كأنما هو حى ؛ ولما كان يعلم أن زملاءه الباقين من العشرة لهم أن يطمحوا مثله إلى الزعامة ، وكان يخشى أن تنهار المملكة من الخلاف والحرب الأهلية ، فقد رأى أن يضمن الولاية لنفسه بحيلة بارعة ؛ فربى أثناء قيامه بالحكم شبلا ، روضه حتى صار أنيساً كالكلب ، ودرب عصفوراً على أن ينطق بالعربية بهذه الكلمات : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، سند المملكة وناصرها » ؛ ولما تم تدريب العصفور على أن ينطق بهذه الكلمات نطقا صحيحا ، وروض الأسد على أن يقوم بجميع ضروب الخضوع والطاعة لسيده ، ابتنى عبد المؤمن فى ظاهر تينمال قاعة كبيرة ، واتخذ جميع التحوطات التى تمكنه من استعمال الأسد والعصفور ؛ ودعا شيوخ الموحدين وأكابرهم إلى الاجتماع ، وجلس فى الصدر فى مكان عال ، ونعى المهدى إلى الحضور بين مظاهر الحزن العميق ، وقال إنه أعرب فى كلماته الأخيرة عن أمنيته فى أن ينبذ الموحدون أهواءهم ومصالحهم الشخصية ، وأن يختاروا من بينهم رجلا واحداً يولونه الزعامة والسلطان المطلق . ولما انتهى من مخاطبة الحضور بذلك ، وساد الصمت العميق ، إذا بناطق ينطق فجأة بهذه الكلمات بلسان فصيح ، وكأنما نزل من السماء : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، سند المملكة وناصرها » ، وفى الوقت نفسه

فتح عبد المؤمن بابا خفيا كان يحجب الأسد ، فانطلق بين الحضور مزمجراً ، وهو منفوش الشعر ، مكشراً عن أنيابه ، رافعاً ذنبه ، وعيناه تقدحان بالشرر ، فذعر الحضور وارتعدت فرائصهم ؛ وبادر عبد المؤمن إلى الأسد ، فأنس إليه فى الحال بين دهشة الحضور ، وأخذ يلعق يديه فى هدوء ؛ ولما رأى الموحدون هذه المعجزة لم يترددوا لحظة فى اختيار ذلك الذى دعاه الوحى إلى الرياسة ، لهم خليفة وزعيما ، وبايعوه فى الحال على الطاعة ؛ وبقى الأسد من ذلك اليوم رفيقاً لعبد المؤمن مثل الكلب الوفى ، يرافقه حتى فى المسجد أثناء الصلاة . وكانت ولاية عبد المؤمن الخلافة فى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ؛ وتسمى من ذلك الحين « بالأمير بأمر الله »[1] .

ورأى عبد المؤمن فى الحال أن يمكّن لسلطانه بالأعمال الحربية الباهرة ؛ وأخذ خلال أعوام قلائل يسير من نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح ؛ ولبث حيناً أمام أسوار مراكش يحاصرها ، واشتد ساعده بمن انضم إليه من القبائل التى انشقت على المرابطين ، وأخذ نجم المرابطين فى الأفول يوماً بعد يوم ؛

(١) ورد فى روض القرطاس أن بيعة عبد المؤمن الخاصة كانت فى سنة ٥٢٤ هـ ، وبيعته العامة فى سنة ٥٢٦ هـ (ص ١٢١) وفى الحلل الوشية أن بيعته كانت سنة ٥٢٤ هـ (ص ١٠٧) ويقول ابن خلدون إن وفاة المهدى كانت سنة ٥٢٢ ، وإن عبد المؤمن وأصحابه كتموا وفاة المهدى ولبثوا يباشرون الأمور باسمه حيناً . ثم اختاروا عبد المؤمن للولاية (ج ٦ ص ٢٢٩) ، وفى الاستقصاء أن ولايته كانت سنة ٤٢٦ هـ (ص ١٠٩) ، ويقول المراكشى إن المهدى اختار عبد المؤمن لولاية عهده قبيل وفاته وحث أشياخ الموحدين على اختياره (ص ١٠٨ و١٠٩) ، ويورد صاحب روض القرطاس رواية الأسد والعصفور وما إليها مفصلة ، وهو فى الواقع مرجع المؤلف فى معظم مايورده فى هذا الفصل (ص ١٢٠) ، ويورد فى ذلك أيضاً أبياتا لشاعر اسمه أبو على نقلها المؤلف فى تعليقاته مترجمة للاتينية (ج ١ ص ٤١٣) وهذه هى :

أنس الشبل ابتهاجا بالأسد ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم فقضى حقكم لما وفد
أنطق الخالق مخلوقاته بالشهادات فكل قد شهد
إنك القائم بالأمر له بعدما طال على الناس أمد

ووردت قصة العصفور والأسد وهذه الأبيات فى الحلل الوشية (ص ١١٣) ، ولكن بصورة أخرى ولمناسبة لا علاقة لها بتولية عبد المؤمن .

ونضبت خزائن علىّ بما أصابه من الهزائم المتوالية ، وفقد الولايات والمدن وما تكبده في الحرب من نفقات باهظة ؛ وترتب على نقص عدد رعاياه أن زاد عبء الضرائب ، فبث ذلك روحا من السخط في الجهات التي بقيت على إخلاصها ، هذا إلى أن الشعب فقد عندئذ كل شجاعة ، وفقد كل ثقة في المرابطين .

واتخذ عبد المؤمن لقب أمير المؤمنين ؛ وفي العام الرابع من ولايته أمر بسك نقود جديدة ، جعلت مربعة الجوانب تمييزاً لها من نقود المرابطين ؛ ونقش على أحد وجهيها ما يأتي : « لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة بالله » ، ونقش على الوجه الآخر : « الله مولانا ، ومحمد رسولنا ، والمهدى إمامنا » .

ولما توغل عبد المؤمن في فتوحاته ، واشتد الخطر على المرابطين ، دعا علىّ ابنه تاشفين — وكان بالأندلس يقوم بمحاربة النصارى بعزم ، ويحرز النصر عليهم أحياناً — إلى إفريقية ، ليعاونه في شؤون مملكته المضطربة ، فكان الداء بذلك أشد وأنكى ، لأن الولايات الأندلسية التي بقيت تحت سيادة المرابطين ، كانت منذ بعيد تعاني من غطرسة ولاتها الإفريقيين وظلمهم ؛ وكان أبو الطاهر تميم ، وتاشفين قد استطاعا بكثير من الجهد والحكمة والرفق أن يكبحا جماح الثورة في مدن الأندلس ، وفي المدن الشرقية . فلما غادر تاشفين الأندلس ، نفد صبر الأندلسيين مما يعانونه من فداحة الضرائب وعسف الولاة ، وقامت الثورة على المرابطين في معظم المدن ، وكان سلطانهم قد اضطرب في إفريقية تحت ضربات الموحدين ؛ ولما عاد تاشفين إلى مراكش اصطحب معه صفوة الجند المرابطين ، هذا إلى أربعة آلاف من النصارى المعاهدين الذين تمرسوا في الطعان والفروسية ، جعلهم جزءاً من حرسه الخاص ؛ وكانت التجارب المحزنة قد دلت على أن النصارى الذين يجهلون تعاليم المهدى الدينية ، هم أفضل في مقاتلة الموحدين من المغاربة المسلمين الذين كان معظمهم يرى في المهدى نبيا ورسولا . على أن تاشفين لم يكن أسعد حظا في مقاتلة عبد المؤمن من القواد السابقين الذين قادوا المرابطين إلى مقاتلته ؛ فقد دارت عليه الدائرة في جميع المواقع التي نشبت بالرغم من ضخامة

قواته ، وأصيب بخسائر فادحة ؛ وهكذا رأى علىّ أمله الأخير الذى علقه على براعة ولده الحربية ، يخبو ويتبدد ؛ وعجلت الأحزان والهموم أجل الملك الشيخ ، فتوفى بقصره فى مراكش فى رجب سنة ٥٣٧ هـ (فبراير سنة ١١٤٣ م) وهو فى التاسعة والخمسين من عمره ، بعد حكم دام زهاء سبعة وثلاثين عاما ، يعذبه الاعتقاد بأن سلطان أسرته غدا على وشك الانهيار ؛ وأُخفى موته مدى ثلاثة أشهر .

٣ — حروب تاشفين مع عبد المؤمن

نخلفه على العرش تاشفين أكبر أولاده ؛ وبايعه على الطاعة كبراء المملكة ووفود الولايات التى لم يملكها الموحدون بعد ؛ وبُعث بولايته إلى حكام الأندلس مثل أبى زكريا يحيى بن غانية ، وعثمان بن أضحى ، وعمه على بن أبى بكر ، فبعثوا إليه فى الحال بطاعتهم ، ودُعى له فى الصلاة بمساجد الأندلس .

وفى تلك الأثناء ، كان عبد المؤمن يخرج من معاقله الجبلية بين فاس وتلمسان ويثخن فى البسائط ، ويلحق بالمرابطين أعظم الخسائر ؛ واستطاع تاشفين ذات مرة أن يظفر بقسم من جيش الموحدين وأن يبيده ؛ فاضطر عبد المؤمن من جراء هذه الخسارة أن يلجأ إلى جبال الأطلس الوعرة ؛ ذلك لأنه كان يخشى أن يستمين أعداؤه بكثرتهم على تطويقه فى السهل ، سيما وأن قوته من الفرسان كانت ضئيلة بالنسبة لقوى المرابطين ؛ وكانت قوى تاشفين تزداد تباعا ، وتفد إليه القبائل التى دعيت إلى ميدان الحرب من أوطانها النائية من كل صوب ؛ فلما تكاملت قواته ، سار فى أثر عبد المؤمن ، وكان عبد المؤمن قد ارتد صوب تلمسان ؛ وجمع فى الجبال كثيراً من المؤن ، هذا بينما كان المرابطون يعانون من جراء نقصها أعظم عناء ؛ ولما دخل الشتاء ، حل بهذه الأنحاء برد قارس لم يعهد مثله ، واضطر تاشفين فى هذا السهل الأجرد ، أن يحرق الأكواخ والخيام ، والقش ، والحراب ، والسروج ليتدفأ بها الجيش ؛ فلما انقضى الفصل واعتدل الجو ، أطلق عبد المؤمن جنده من الجبال صوب تلمسان لكى تثخن فى بسائطها .

وكان تاشفين قد عانى طويلا من قلة المؤن ، فبذل جهده لحمل عبد المؤمن على الخروج من الجبال وإرغامه على الاشتباك فى معركة ، وأرسل قسما من جيشه إلى الجبال لكى يطوق الأعداء من الجانبين ؛ ولكن عبد المؤمن فطن إلى محاولته ، فانقض بجيشه كالبرق على الحملة التى أرسلها تاشفين ، وكان هؤلاء لا خبرة لهم بحرب الجبال ، فهزمها ومزقها ؛ ثم انحدر من الربى بشدة وعنف إلى السهل حيث كان المرابطون يرمقون زملاءهم الفارين بجزع ؛ ومع أن المرابطين كانوا يتفوقون على أعدائهم فى الكثرة أيما تفوق ، فإن الموحدين سرعان ما أحرزوا النصر ، وركن جيش تاشفين إلى الفرار فى اضطراب عظيم ، وطارد الموحدون فلول الجيش المرابطى إلى مدى بعيد .

ولو حقت مثل هذه الهزيمة على أمير غير تاشفين ، أقل منه عزما وهمة ، لخبت كل شجاعته ؛ ولكن الهزيمة بالعكس شحذت عزمه ، وضاعفت همته ؛ فطلب إلى الولايات التى أنهكتها الحرب أن تبذل جهوداً أخرى ؛ ودعا ولى عهده أبا اسحق إبراهيم من الأندلس حيث كان يشرف على شؤونها ، فعاد إلى إفريقية ومعه من بقى من المرابطين وأربعة آلاف فارس من النصارى المعاهدين ؛ ولم يمض سوى قليل حتى استطاع تاشفين أن يسير إلى قتال الموحدين فى جيش آخر أوفر عدداً وعدة من جيشهم ؛ وكان عبد المؤمن قد امتلأت نفسه كبرياء وثقة بما أحرز من نصر متوال ، فلم يتردد فى لقاء المرابطين ؛ ونظم قواته للحرب تنظيما بديعاً فى شكل مربع ضخم ، فوضع فى الصفوف الأولى أشجع جنده من حملة القنا الطوال والطوارق المانعة ، ومن ورائهم رماة النبال والأسهم ؛ وجعل فى وسط المربع قوة الفرسان ، وأفسح لها فى كل ناحية مخارج تستطيع أن تخرج منها لمهاجمة العدو كما لو كانت فى قلعة . وذلك حتى لا تخل بنظام المشاة[1].

وهجم المرابطون على أعدائهم بشدة ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف

---

(١) ورد فى الحلل الموشية وصف لهذا التنظيم الحربى الذى وضعه عبد المؤمن لقواته (ص ٩٨) .

الموحدين المنيعة ، التى شهرت حرابها ، وقابلت الماجمين بوابل عنيف من القذائف ؛ ولما استنفد المرابطون قواهم فى تلك الهجمات المقيمة ، برز إليهم فرسان الموحدين من الصفوف الداخلية لمربعهم الحربى ، وانقضوا عليهم بشدة ، فارتدوا بلا نظام ، وحقت عليهم الهزيمة ، وفر تاشفين مع فلول جيشه إلى قلعة تلمسان ؛ ولكن عبد المؤمن تبعه إليها ؛ فيمم لفوره شطر وهران ، وهى ثغر يستطيع عند الحاجة أن يفر منه إلى الأندلس ؛ وكان قد بعث إلى حاكم ألمرية أن يبعث إليه بعشر سفائن إلى وهران لكى تحمله وخزائنه وحاشيته إلى الأندلس ؛ ولكن عبد المؤمن استمر فى مطاردة الجيش المنهزم ؛ فما كاد تاشفين يغادر تلمسان حتى طوقها الموحدون ، وسار عبد المؤمن فى قسم من جيشه فى أثر سلطان المرابطين الفار إلى وهران ، وبدأ فى الحال بحصارها وقطع علائقها مع قلعة الميناء ، وأمل تاشفين أن يستطيع مع ذلك أن يفر تحت جنح الظلام من المدينة إلى الميناء دون أن يفطن إليه الأعداء ؛ ولكن شاء طالعه السيء أن يسقط بفرسه أثناء فراره من الربى إلى شاطئ البحر ؛ وفى الصباح وجد الفارس وفرسه ميتين على الشاطئ . ومن الطبيعى أن تكون خاتمة تاشفين مستقى لكثير من الروايات المتعلقة بموته ، وكلها متباينة متناقضة . وأمر عبد المؤمن فسمرت جثة تاشفين إلى شجرة صفصاف واحتز رأسه وأرسل إلى تينمال ليحفظ بها ؛ وبعد ذلك بثلاثة أيام استولى الموحدون عنوة على وهران[1] .

وكانت وفاة تاشفين بن على فى نهاية عام ٥٣٩ من الهجرة (مارس سنة ١١٤٥) ولم يحكم سوى عامين وشهرين ، قضاها فى حروب مستمرة مع الموحدين أعداء أسرته الألداء .

٤ — إبراهيم آخر سلاطين المرابطين فى إفريقية

وما كاد موت تاشفين يعرف فى مراكش حتى بويع ابنه أبو إسحاق إبراهيم ،

(١) راجع الحلل الموشية ص ٩٩ و ١٠٠ ، والمراكشى ص ١١٢ و ١١٣ ، وروض القرطاس ص ١٢٢ .

وكان قد اختير وليا للعهد فى حياة أبيه ؛ ولكن ثار عليه عمه إسحاق بن على ، وكان يطمح إلى انتزاع العرش لنفسه ؛ وهكذا عجلت الثورة حول العرش بسقوط دولة المرابطين التى بدا انهيارها واضحاً فى الأفق .

وفى تلك الأثناء تابع عبد المؤمن خطواته المظفرة بنشاط ؛ فبعد أن استولى على مدينة تلمسان الزاخرة بالرغم من مقاومتها العنيفة التى زهق فيها مائة ألف من سكانها [1] سار إلى حصار فاس ، وهى أعظم مدائن المغرب بعد مراكش ؛ وتحطمت فى البداية كل جهود المحاصرين أمام ثبات الحامية والسكان ، وكان المشرف على الدفاع عنها الأمير يحيى بن على المرابطى وعبد الله بن الجيانى الأندلسى ؛ ولم تنجح محاولة عبد المؤمن فى أن يحطم جدرانها باطلاق المياه عليها ؛ وكان قد حجز مياه النهر الصغير الذى يشق المدينة باقامة السدود ، ثم أطلقها على المدينة دفعة واحدة مؤملا بذلك أن يعاونه التخريب الذى يحدثه الماء على اقتحام المدينة ؛ ولكن عمق الماء حال بين الموحدين وبين دخولها ، واستطاع المحصورون إصلاح ما تصدع من الجدران [2] ؛ بيد أن الخيانة حققت مالم تحققه القوة ، وذللت ما لم تقو العناصر على تذليله ؛ ذلك أن عبد الله الجيانى الأندلسى اختلف مع يحيى بن علىّ ، وأزمع الانتقام منه ، ففتح للأعداء ما عهد إليه بحراسته من الأبواب (ذو القعدة سنة ٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م) ، وانضوى تحت لواء الموحدين ؛ وفر يحيى بن على مع أسرته إلى طنجة ، ومنها إلى الأندلس ؛ وعلى أثر استيلاء الموحدين على فاس التى قتل معظم سكانها وهدمت جدرانها ، سقطت فى أيديهم سراعا معظم المدن المغربية الأخرى .

ولم يترك عبد المؤمن للمرابطين فسحة من الوقت ؛ فأرسل جيشاً إلى الأندلس لكى يخضع الولايات الأندلسية الضطربة لصولته ؛ وسار بنفسه إلى العاصمة

---

(١) الحلل الموشية ص ١٠١ .

(٢) راجع الحلل الموشية حيث يورد رواية مماثلة ؛ ويقول إن المدينة سقطت بالخيانة (ص ١٠١ و١٠٢) ، ولكن صاحب روض القرطاس يذكر بالعكس أن محاولة عبد المؤمن فى إغراق المدينة قد نجحت ، وانتهت بسقوطها فى يده (ص ١٢٣) .

(مراكش) ليضرب بافتتاحها سلطان المرابطين الضربة القاضية . وكانت مراكش يومئذ أزخر المدن الإفريقية سكانا[١] ، وكانت تحميها سلسلة من الحصون القوية . ولما طال أمد الحصار نظراً لما أبداه المحصورون من ثبات يحدوه اليأس ، ابتنى عبد المؤمن فوق رابية بالقرب من أبواب المدينة مدينة جديدة ذات مساجد وأبراج ، وذلك لكى يقنع المحصورين بأنه لن يمل أو يقصر فى الحصار ؛ ولم تفد هجمات المحصورين شيئاً ، وكانت تكلفهم كثيراً من الأرواح . وكان عبد المؤمن بعد أن أيقن بأنه ليس فى الاستطاعة أن تؤخذ المدينة عنوة يؤمل أن يحقق كل شيء بالجوع ، وهو ما يقتضى حصر المدينة حصراً دقيقاً ؛ على أن مراكش نظراً لضخامة سكانها لم تلبث أن شعرت بنقص الأقوات ، واشتد الأمر حتى أكلت الأطعمة الفاسدة والرديئة ؛ بل أكلت الجثث البشرية ، وأكل السجناء فى السجن بعضهم بعضاً ؛ وأفضى الجوع والضيق والأمراض التى ترتبت على شنيع الأطعمة إلى موت كثير من السكان خصوصاً من الشباب والأطفال ، حتى فنى منهم فى وقت قصير حسبما تؤكد الرواية العربية زهاء مائتى ألف نفس[٢] . وكان الأحياء يطوفون بين الموتى كالأشباح ، وقد خارت كل عزائمهم وقواهم ، وساد على المدينة التى كانت بالأمس آهلة زاخرة ، سكون مروع كالسكون الذى يسبق العاصفة ؛ ففى تلك الآونة العصيبة عمد الفرسان النصارى الأندلسيون حسبما قيل — وكانوا من أبرع فرسان إبراهيم ومن خاصة حرسه — إلى مداخلة الأعداء لتسليمهم المدينة بالخيانة ؛ وفى ساعة معينة فتحوا أبواب المدينة التى كانت فى عهدتهم للموحدين ، فدخلوها دخول الذئاب المفترسة إلى حظيرة الأغنام (شوال سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٦ م) ، وكان الموت قد أتى على معظم سكانها ، وأضحى

(١) لعل المؤلف يقصد هنا بالمدن الإفريقية مدن المغرب فقط ، وإلا فقد كانت القاهرة المعزية بلا ريب فى تلك العصور كما هى اليوم أعظم المدن الإفريقية عمرانا .

(٢) استقى المؤلف هذه التفاصيل فيما يظهر من الحلل الموشية (ص ١٠٣) ، وهى مطابقة فى معظمها ، ولكن الرواية العربية تقدر هنا عدد الموتى من المحصورين بمائة وعشرين ألفا فقط .

كالأموات من بقى منهم حيا ؛ ولم يلق الغزاة بالقصر حيث كان إبراهيم يدافع مع أشجع جنده سوى معارضة يسيرة . وغمر المدينة سيل مروع من الدماء ، واستمر من الصباح حتى المساء ؛ وأسر إبراهيم وأكابر الزعماء واقتيدوا خارج المدينة إلى حيث كان عبد المؤمن . وتأثر عبد المؤمن بادئ ذى بدء بحزن الأمير ويأسه ، ولاح أنه يميل إلى الإبقاء على حياته والاكتفاء بسجنه ، ولكن بطانته أشارت عليه بإعدامه اتقاء المشاكل فى المستقبل ؛ ولما غلب سلطان المرابطين يأسه وروعه وجثا يلتمس الحياة لم يجن من ذلك سوى الاحتقار والسخط ، وصاح به الأمير سير ابن الحاج وهو من قرابته : « لماذا تريد يامولاى أن تحط من قدرك وأن ترجو هذا البربرى ؛ فلنمت جميعاً دون أن نبدى أقل بادرة من الضعف ، وإن الموت لخير من الحياة بهما بربرى »[1] . فاستشاط عبد المؤمن لذلك غضبا ، وأمر بالأمير سير فجلد حتى مات ، وأمر بإبراهيم وأشياخ المرابطين فأعدموا ، واستمر القتل فى مراكش ثلاثة أيام هلك فيها من سكان المدينة حسبما قيل ستون ألفاً ؛ وهكذا كفر إبراهيم وهو فى زهرة شبابه عن زلات آبائه ، ولم يحكم سوى عامين وبضعة أيام ؛ وبموته انتهت سيادة المرابطين ، وجلس الموحدون على عرشهم بعد أن شقوا لأنفسهم إليه طريقاً تغمره الدماء ؛ وأخذت المدن والولايات التى لم تخضع بعد تنضوى تباعا تحت لواء عبد المؤمن ؛ وكانت الأندلس آخر من خضع بالرغم من أن عبد المؤمن كان قد أرسل لها جيشا قبل افتتاح مراكش .

والآن وقد أتينا على خاتمة المرابطين ، فلنلق نظرة سريعة على تاريخهم الذى لم يستكمل مائة عام ، فنرى أن قيام دولتهم (كما هو الشأن فى دولة الموحدين) ، يرجع إلى جهود رجل متعصب أخذ بقسط من العلوم ، وقصد إلى تحسين عقائد قومه وأخلاقهم ؛ فبدأ عبد الله بن ياسين بأن أتى إلى قومه اللمتونيين بدين وشرائع حسنة ؛ واستطاع بما أصاب لديهم من التوقير والنفوذ ، أن يغدو قائداً للبدو السذج

(١) وردت هذه الواقعة فى الحلل الموشية بصورة أخرى ، وهو أن الأمير أبا إسحاق جعل يرغب لعبد المؤمن فى إبقائه ، فتفل فى وجهه الأمير سير بن الحاج أحد أشياخ المرابطين وقال له : « أترغب إلى أبيك وتشفق عليك . اصبر صبر الرجال » (ص ١٠٤) .

البواسل ؛ ثم قاد المرابطين إلى الفتوح ؛ وقادهم من بعده خلفه المختار أبو بكر بنجاح أعظم ، ووضع أبو بكر خطط مدينة مراكش وأتمها ابن أخيه يوسف ابن تاشفين ؛ وسرعان ما استطاع يوسف بذكائه وبراعته أن ينتزع الحكم من عمه ، وتظاهر عمه بالنزول إليه مختاراً عن سلطانه. ولما ذاع صيت يوسف فى الأندلس عقب فتوحه العظيمة فى إفريقية ، وكانت الأندلس قد أشرفت على الفناء أمام ضربات ألفونسو السادس ، آثر الأندلسيون سيادة المسلمين على سيادة النصارى ، واستدعوا فاتح إفريقية لفتح شبه الجزيرة ؛ وأنقذت الأندلس فى موقعة الزلاّقة الشهيرة ؛ ولكن هزيمة ألفونسو لم تفض بعد إلى سقوط المملكة النصرانية : ذلك أن يوسف قبل أن يستطيع توجيه قواه لمقاتلة النصارى بنجاح اضطر أن يوجهها لمقاتلة أبناء دينه ، فانقلب من منقذ لهم من العبودية إلى مستبد بهم ، وليس أقل استحقاقاً لبغضهم من ألفونسو . ثم ترك يوسف لولده وخلفه علىّ السلطان على معظم إفريقية والأندلس ، ووصل المرابطون إلى ذروة بأسهم فى موقعة إقليش التى هزم فيها ألفونسو السادس وفقد ولى عهده . ولم يلبث أن سرى الفساد والاستهتار إلى بلاط على ، وأثارت غطرسة الحكام وعسفهم غضب الشعوب المحكومة ، ففقدت الأسرة المرابطية قدمها من جراء عدم مراعاتها للتقاليد الاسلامية ، ومهدت بذلك السبيل إلى أطماع مصلح جديد هو أبو عبد الله ، الذى زعم أنه المهدى المنتظر ؛ وأذكى علىّ بتهاونه وإغضائه فى البداية جرأة أبى عبد الله فاستطاع أن يقضى على هيبتهم ، ثم قضى عبد المؤمن على سلطانهم ؛ ولم يستطع تاشفين ولد على الشجاع أن يقف ظفر المرابطين ؛ فكان حظه أسوأ من حظ أبيه ؛ ثم ترك الملك بعد حكم قصير لولده أبى إسحاق إبراهيم فكأنه لم يتلقه إلا ليفقده . وهكذا انهار فى أعوام قلائل ذلك الصرح الباذخ الذى شاده فى نصف قرن سلاطين أقوياء يحبوهم حسن الطالع .

الفصل الثالث

نهاية سلطان المرابطين ونهاية عصر الإمبراطورية في اسبانيا

(سنة ١١٤٤ — ١١٥٧ م) — (٥٣٩ — ٥٥٢ هـ)

١ — ثورة الأندلس على المرابطين

كان من المحتوم أن تحدث الحركات والحروب التي هزت إفريقية وأودت بسلطان المرابطين ، كذلك في اسبانيا ، ثورة واضطرابا وانقلابا في الحكم ؛ وكان الأندلسيون ومعظمهم من أصول الشام والبلاد العربية قد اعتادوا الحكم المستقل ، فلم يطيقوا ما جبل عليه الولاة المرابطون الإفريقيون من غطرسة وعسف ، ولم يركنوا إلى الطاعة إلا خوفا من القوى الزاخرة التي يستند إليها الطغاة ؛ فلما اقتضت الحوادث الإفريقية سحب هذه القوى ، اضطرمت الأندلس في الحال بالثورة من أقصاها إلى أقصاها ضد المرابطين ، واعتزم العرب أن يحطموا نير المغاربة معتزين بذكرى أسلافهم الذين أخضعوا المغرب كله لصولتهم .

وكان أول من أذكى ضرام الثورة في الأندلس أيضاً طائفة دينية تُرجع تعاليمها — مثل المهدي — إلى الغزالي الذي قضى المرابطون بتكفير كتبه ، ومنعت في الأندلس وألقيت إلى النيران أينما وجدت ؛ وكان عميد هذه الطائفة أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قَسِيّ ، وهو من أصل روى ولد بمدينة شِلْب من أعمال الأندلس ، وكان أول أمره تاجراً ، ولكنه نظم الشعر وبلغ فيه شأوا ؛ وكان رجلا

وافر الذكاء والدهاء ، فاتخذ حياة النبي العربي (ص) نموذجا ، وتشبه به في بعض أحواله ؛ فوهب جميع أملاكه وركن إلى العزلة حيناً ، ثم ذهب إلى ألمرية فدرس على أشياخها ، وعاد بعد ذلك إلى بلده شلب وأخذ يدرس كتب الغزالي الممنوعة ؛ فلم يمض سوى قليل حتى التفت حوله جمهرة كبيرة من الطلاب ، فجعل نفسه لهم إماما ، وبلغ من إعجابهم به وحبهم له أن غدوا رهن أمره وإشارته . وفي أوائل سنة ٥٣٩ ﻫ (١١٤٤ م) عقد دروسه ومواعظه بأشبيلية ، وحشد له تلميذه محمد بن يحيى الشلطيشي جمعا من التلاميذ والأنصار ، وسرعان ما ألقى ابن قسي قناع المعلم والواعظ ، وظهر في ثوبه الحقيقي زعيما شعبيا ؛ والظاهر أنه لم يدع في البداية إلى الثورة على المرابطين ، ولكنه دعا الأندلسيين إلى أن يجعلوا من الأندلس دولة مستقلة كما كانت حتى تم انهيار سلطان المرابطين في إفريقية . وليس من المحتمل أن يكون المرابطون قد أيدوا ابن قسي في حركته كما تزعم بعض الروايات العربية الضعيفة .

وكان أول عمل حربي قام به أحمد هو استيلاؤه على حصن مارتلة (أو ميرتلة) المنيع من أعمال الغرب (غرب الأندلس) استولى عليه الأندلسيون بالمفاجأة في صفر سنة ٥٣٩ ﻫ (١١٤٤ م) ؛ واتخذه ابن قسي قاعدة لحشد قواه وتنفيذ مشاريعه ، وأمده رفيق حداثته وأخلص أنصاره أبو الوليد محمد بن عمر بن المنذر بقوات جديدة ؛ وكان أبو الوليد — وهو من أوجه أهل شلب — رجلا واسع المعرفة نافذ الكلمة ، وكان قد قسم ثروته الكبيرة بين الفقراء ، وعاش مدى حين على شاطىء البحر في عزلة يدرس كتب الغزالي ؛ ثم حالفه أبو محمد بن سيدراي ولد حاكم يابرة .

وبذل هذان الزعيمان جهوداً مدهشة لشد أزر ابن قسي ومضاعفة شيعته ، وتمكينه من الاستيلاء على شلب ويابرة . وامتد ضرام الفتنة بسرعة البرق ، وبث نجاح الثوار ، وظفرهم بهزيمة المرابطين في ميدان الحرب وإخراجهم من القلاع ، الروع في قلوب حامية باجة ، فسلمت المدينة وارتدت إلى إشبيلية . وفي الحال أقيمت حكومة جديدة على رأسها أحمد بن قسي ، وولي على شلب محمد بن عمر ،

وعلى يابرة وباجة ابن سيدراى ، واستطاع هذان الرجلان بفضل وجاهتهما ونفوذهما أن يوطدا دعائم الحكم فى تلك الأنحاء ، ورأى ابن قسى أنه لايقوى وحده على النهوض بالدعوة ، فأشرك معه صديقه محمد بن عمر فى قيادة الجيش وفى الحكم ؛ وتلقب محمد بألقاب الإمارة ، فاتخذ لقب العزيز بالله ، وسرعان ما وفدت إليه من اكسونبة وماردة اللتين انضمتا إلى الثورة أمداد من الجند ؛ فسار فى قواته إلى سهول وادى يانة ، وافتتح قلمتى ولبة ولبلة دون كبير مقاومة ؛ ذلك لأن سكان هاتين المدينتين كانوا يتوقون إلى تحطيم نير المرابطين ، فكانت الخيانة بالأخص هى عون الثوار فى الاستيلاء على لبلة بمثل هذه السرعة .

وشجع هذا النجاح الثوار على القيام بمشاريع أعظم وأخطر ؛ فلم يحجموا بعد افتتاح لبلة عن السير توا إلى مدينة إشبيلية بالرغم من ضخامتها وحصانتها ؛ وكان لابن قسى فيها جمهرة من الصحب والأنصار ، فاستولى الثوار على حصن القصر وطلياطة والحصن الزاهر من أعمال شرفها ، وجنحت هذه المنطقة كلها إلى الانضمام إلى الجيش الثائر ، وكان يزداد عدده يوما بعد يوم ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى سقطت قلاع كثيرة أخرى ، وبسط الثوار سلطانهم على غربى الأندلس كله ؛ وهال امتداد الثورة على هذا النحو كبير قواد المرابطين فى الأندلس أبا زكريا يحيى ابن غانيـة ، فحشد فى الحال جيشا ليضع حدا لتقدم الثوار ، وليقمع الثورة إذا أمكن ؛ وكان الثوار قد استولوا على طريانة فى ظاهر إشبيلية ، وأحاطوا بأشبيلية ذاتهـا ، ولـكنهم ما كادوا يعلمون باقتراب المرابطين حتى ركنوا إلى الفرار على ضفاف النهر (وادى يانة) ، فأسرع ابن غانية فى اللحاق بهم واضطرهم إلى التوقف ، ومزق جموعهم فى معركة دموية نشبت بين الفريقين فقتل منهم عدد وافر ، ولم تنج فلول الجيش المنهزم من الفناء المطبق إلا بالالتجاء إلى قلعة لبلة .

وحاصر ابن غانية الثوار فى لبلة وفى شلب ، ولـكن تفوق قواته الـكبير على قوات خصومه المرزقة لم يغنه شيئاً ، هذا إلى ما كان يقاسيه أثناء الشتاء من قسوة البرد ؛ ثم إنه ما لبث أن جاءته الأنباء المزعجة تترى من كل صوب بقيام

الثورة فى مختلف النواحى ، فرأى أن وجوده ألزم فى بعض النواحى الأخرى من الغرب ، واضطر إلى رفع الحصار فى الحال عن لبلة وشلب[١].

وما كاد أبو زكريا بن غانية يغادر قرطبة بجنده إلى إشبيلية حتى نشط خصوم المرابطين لحمل المدينة (قرطبة) بعد أن ضعفت حاميتها على الانضمام إلى جانبهم ، ثم العمل على اجتذاب المدن الأخرى لتأييد القضية الأندلسية بعد أن تنحاز إليهم عاصمة الأندلس ؛ ووثب أبو جعفر حمدين بن محمد على رأس المتآمرين ، وقتل قاضى المدينة ، ونادى بنفسه فى المسجد الجامع أميراً على قرطبة باسم المنصور بالله ، وذلك فى الخامس من رمضان سنة ٥٣٩ هـ (مارس سنة ١١٤٥ م) ، واشتد فى مطاردة كل من لحقته ريبة فى الانحياز إلى المرابطين ؛ وفى الحال اضطرمت الأندلس كلها بالثورة على المرابطين ، ورُفع علم الثورة فى كل المدن ، وطُردت الحاميات المرابطية أو قتلت أو حوصرت فى القلاع ، واضطر أبو محمد عبد الله بن غانيـة والى بلنسية أن يفر منها بأهله تحت جنح الظلام كيلا يأسره الثوار ، وسار إلى شاطبة حيث كان لديه بعض الجند ، وأقيمت فى الحال حكومة جديدة عهد برياستها إلى القائد أبى عبد الملك مروان بن عبد العزيز (شوال سنة ٥٣٩ هـ — أبريل سنة ١١٤٥ م) ، فبادر إلى اتخاذ الأهبة لمحاربة والى بلنسية الفار فى شاطبة[٢].

وفى ١٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١٢ أبريل سنة ١١٤٥م) أعنى لاثنى عشر يوما من ثورة قرطبة قامت الثورة فى مرسية ، واختلف أهلها فى البداية فى أمر من يلى الحكم ؛ ثم فاز الحزب الذى يرغب فى الانضمام إلى أمير قرطبة الجديد ، وقام

(١) فصل ابن الأبار فى « الحلة السيراء » حوادث الحركة الثورية التى قام بها أحمد بن الحسين بن قسى ، وصاحباه محمد بن عمر بن المنذر ، ومحمد بن سيدراى تفصيلا حسناً ، وأورد لنا نبذاً عن أشخاصهم وأعمالهم وشيئاً من نظم ابن قسى (راجع ص ١٩٩ و٢٠٢ و ٢٣٩) وتحدث المراكشى فى نبذة موجزة عن حركة ابن قسى ووصفه بأنه من أهل الفتنة والشعوذة (ص ١١٦) ، ولكن ابن خلدون لا يحدثنا عن هذه الحركة ويقول لنا فقط إن ابن قسى كان بحصن مارتلة حينما انهارت مملكة المرابطين ، وإنه دعا إلى الموحدين وأوفد بطاعته إلى عبد المؤمن رسولا خاصا (ج ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٤) .

(٢) راجع فى سيرة مروان بن عبد العزيز ، « الحلة السيراء » ص ٢١٢ وما بعدها .

القاضى عبد الله الطغرائى القونتى وهو صديق لابن حمدين[1] فى جند المدينة يؤيد رياسة أبى جعفر جعفر بن على وولايته لقضاء مرسية ؛ بيد أن أبا جعفر كان رجلا وافر الطموح ، وكان يمعن فى قتل الأسرى المرابطين ، فلم يكتف بهذه الولاية ، واعتزم أن يحقق الاستقلال لنفسه ، فلم تمض أيام حتى نادى بنفسه أميراً على المدينة باسم الناصر لدين الله ، وبسط حكمه مدى حين على مرسية وولاية تدمير بالرغم من مقاومة بعض الزعماء ؛ وتحالف مع مروان بن عبد العزيز أمير بلنسية ضد المرابطين الذين امتنعوا فى قلعة شاطبة .

وكان الشاعر والفقيه الأشهر القاضى أبو الحسن على بن عمر بن أضحى[2] فى المرية أكثر وفاء لأمير قرطبة من قاضى مرسية ؛ فطرد المرابطين من المرية وفقا لرغبة ابن حمدين بعد أن قتل عدداً منهم فى المعارك التى نشبت بينه وبينهم ؛ بيد أن القلعة بقيت مع ذلك فى أيديهم .

وثار الشعب فى مالقة فى الوقت نفسه ضد واليها المنصور بن محمد بن الهادى ، واختار للرياسة أبا الحكم ، فالتجأ المرابطون إلى القلعة وامتنعوا بها حتى أرغموا على التسليم بعد حصار دام سبعة أشهر فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٤٥ م) .

ولما وقف زعيم المرابطين القائد ابن غانية على أنباء هذه الحركات المزعجة أدرك أنه يستحيل عليه أن يعيد النظام ثانية إلى الغرب (غرب الأندلس) ، وأنه لابد أن يفقد المرابطون من جراء ثورة الأندلسيين ولايات بأسرها ؛ ومن ثم فقد عهد إلى أخيه محمد الذى كان والياً لأشبيلية أن يسير فى جنده وسفنه فى الحال إلى الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فيحتلها لكى يظفر ملجأ أمين يقصد إليه عند الفرار ، ولكى يتخذها من جهة أخرى قاعدة يستطيع منها أن يعمل على إخضاع الثغور الثائرة وردها إلى الطاعة .

---

(١) يلاحظ أن اسمه الكامل هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين .

(٢) راجع فى سيرة القاضى ابن أضحى « الحلة السيراء » ص ٢٠٧ وما بعدها .

ولكن هذا الحرص أفضى إلى خسارة جديدة فادحة ؛ ذلك أنه ما كادت السفن المقلة للمرابطين تغادر إشبيلية ، حتى نهض القاضى عبد الله بن ميمون ، فبسط حكمه على الولاية كلها ، واستطاع بمؤازرة معظم سكان إشبيلية أن يستولى على المدينة ذاتها ، وسقط المرابطون الذين بقوا بالمدينة وأنصارهم صرعى غضب الشعب وبطشه .

أما العاصمة (قرطبة) فكانت نظراً لعنف أهلها وحدة نفوسهم ، تضطرم بثورة بعد أخرى ؛ وكان الشعب ينقسم شيعاً وأحزابا ، وكانت الأهواء والأطماع تودى بكل إجراء يتخذ لصون النظام ؛ ولم يتمتع الأمير أحمد بن المنصور بالله بحكم قرطبة سوى أربعة عشر يوما (حتى ١٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ) ، وفى أثناء ذلك عمد أنصار سيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود ، وهو الذى كان القيصر ألفونسو ريموندز قد عوضه عن أملاكه فى سرقسطة بأراض فى ولاية طليطلة إلى مداخلة أهل قرطبة وإغرائهم بالوعود والعطايا على التخلى عن ابن حمدين ؛ ولما قدم سيف الدولة بنفسه إلى قرطبة على رأس قوة من الجند النصارى ، أمده بها ملك قشتالة ، هرع الشعب المتقلب المشغوف بالجديد إلى تأييده ؛ وقد سحرته نسبته الملوكية ، وثروته الطائلة ، وخلاله الباهرة ؛ وخُلع ابن حمدين وفر من قرطبة ، ونودى بسيف الدولة أميراً باسم المستنصر بالله ؛ ولكن روعة الاحتفال بولايته لم تحل دون قِصَر سلطانه ؛ ذلك أن حكمه لم يطل حتى مثل حكم سلفه ، ولم يطل سوى ثمانية أيام ، لم يطق أهل قرطبة بعدها صبراً على عسف وزيره ابن شماخ ، وعلى منظر الجند النصارى ؛ فقتلوا الوزير واضطروا الأمير إلى الفرار ناجيا بنفسه ؛ ولجأ أولا إلى حصن فرنجولش ، ثم قصد بعد ذلك إلى جيان ، حيث اعترف الشعب بولايته[1] ، وكان من الواضح أن الذى أحدث هذا الانقلاب فى الحكم هم شيعة ابن حمدين ، وكان يعاونهم فى ذلك حزب الكبراء ، الذى يعمل لنصرة ثوار الغرب ؛ وكان هؤلاء الكبراء يعتزمون أن ينادوا بمحمد بن عمر شريك ابن

---

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢٠٤ و ٢٢٥ .

قسى فى الحكم ، أميراً على قرطبة ، وكان محمد مذ رفع ابن غانية الحصار عن لبلة قد سار بجنده صوب قرطبة ، بيد أنه ما كاد يقترب منها حتى علم بأن ابن حمدين قد سبقه ، وعاد إلى المدينة بفضل أنصاره وهم جمهرة كبيرة (١٠ ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ — ٣ يونية ١١٤٥م) ، ونودى به للمرة الثانية أميراً على قرطبة بين مظاهر الفرح العام ، ولم يبق أمام محمد إلا أن يعود إلى الغرب ؛ وفى تلك الأثناء استطاع ابن حمدين ، بمعاونة أصدقائه وشيعته ، أن يبسط حكمه على رنده والأرك وشريش ، وشذونه وقونقة ، وكذلك مرسية لمدى قصير ؛ أما ابن غانية فقد لبث فى معظم قواته مشغولا بإخماد ثورة الغرب ؛ وكانت غرناطة لا تزال أهم مدينة باقية فى قبضة المرابطين وكان يقتتل من أجلها كل الأحزاب ، فثار الغرناطيون بتحريض شيعة ابن حمدين ، واضطرت الحامية المرابطية الضعيفة أن تلجأ إلى القلعة أو القصبة ؛ وأخذت الوقائع الدموية تنشب كل يوم بين المحاصرين والمحصورين ، وقتل القاضى أبو محمد بن سماك زعيم الثوار فى إحدى هذه الوقائع [١] ؛ فاختار الثوار للولاية مكانه أبا الحسن على بن عمر بن أضحى قاضى ألمرية السابق ؛ وكان بالرغم من ولائه السابق للمرابطين ، قد أخرجهم من المرية ، وانضوى تحت لواء ابن حمدين ، واختار ابن حمدين لولاية المرية عبد الله بن مردنيش ؛ ومع أن ابن أضحى أبدى فى غرناطة نشاطا فى مقاومة المرابطين ، فإنه لبث حينا يتردد بين الانضمام إلى ابن حمدين ، والانضمام إلى سيف الدولة بن هود ، على أنه لبث يجمع الأمداد من كل ناحية ، وكان منها قوة على رأسها الأمير أبو جعفر والى مرسية ، حتى اجتمع لديه جيش قوامه اثنا عشر ألف مقاتل ؛ وجمع المرابطون أيضاً كل قواتهم بقيادة الأمير على بن أبى بكر ، حفيد يوسف بن تاشفين ، واستطاعت الحامية المحصورة فى غرناطة أن تنضم إليه ؛ ونشبت بين الفريقين معركة دموية ، سقط فيها أبو جعفر أمير مرسية ، ولجأ جنده وفلول الجيش المنهزم إلى الفرار فى غير نظام ، واسترد المرابطون غرناطة ، ثم استردوا كذلك المرية بعد قليل .

---

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢٠٨ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

أما فى مرسية ، فقد نودى بعبد الرحمن بن طاهر أميراً لها ، وذلك فى ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٤٥ م) ، وكان ابن طاهر عالما كبيراً ولاسيا فى الشريعة والتاريخ ، كما كان زعيا وقائداً مجربا . بيد أنه كان قليل الطموح ، بعيداً عن الأهواء الشخصية ، ولم يفكر إلا فى خير وطنه ؛ فرأى أن ينزل عن سلطانه المستقل ، وأن يدعو بالإمارة على مرسية لسيف الدولة بن هود ، الذى كان يمثل فى نظره مجدد استقلال الأندلس ، واكتفى بأن يكون نائبه فى الحكم . فاستاء لذلك أنصار ابن حمدين ، وغادر مرسية وفد من الكبراء إلى قرطبة لمفاوضة ابن حمدين ، فاستقبلهم بترحاب مؤملا أن يسترد المدينة بمعاونتهم فى أول فرصة ؛ وجهز قوة مسلحة ، وحاول أن يغرى قادة جند ابن طاهر ، بيد أنه لم يكن من الميسور فى هذا الوقت الذى سادت فيه الفوضى والانقلابات المتوالية ، وأضحى كل يبحث عن الرياسة والغنم لنفسه ، لأولئك الذين ظفروا بالحكم أن يعملوا على تقوية شيعتهم ؛ ذلك أنه كانت تقوم بلا انقطاع أحزاب جديدة ترمى إلى تأييد سلطان هذا الزعيم أو ذاك ؛ وهكذا ، فإن ابن طاهر لم يلبث على حكم مرسية سوى خمسين يوما ؛ ثم نهض القاضى أبو محمد بن عياض على رأس قوة من الجند على حدود المدينة ، وكان الفريقان — فريق ابن هود وفريق ابن حمدين — يخطبان وده ؛ ولكنه آثر أن ينادى بنفسه فى أريولة أميرا على مرسية ؛ وفى الحال سار إلى المدينة ودخلها دون أن يستطيع ابن طاهر أية مقاومة ، وذلك فى العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (نوفمبر سنة ١١٤٥) ، واستقبله أهل مرسية الذين عرفوا بسرعة تقلبهم فى فيض من الفرح والتأييد ، ولم يتعرض ابن عياض — بالرغم من مطالبة أنصاره بقتل ابن طاهر له — بأذى ، ولم يكتف بالإبقاء على حياته ، بل رأى بذكائه وحكمته أن يتركه حرا فى مرسية يعيش فى سكينة ورغد[1] .

ولم تكن الحال فى بلنسية أقل اضطرابا وفوضى ، فقد كان الحكم فيها عرضة للانقلاب المستمر ؛ ولما أخرج المرابطون منها ، واستولى الأعيان على الحكم ،

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢١٤ .

دُعى أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز لولايتها ، فتولاها مرغماً لما يعرفه من تقلب الشعب ودسائس الأعيان . وكان المرابطون يخرجون من شاطبة فيثخنون فى الأنحاء المجاورة حتى أبواب بلنسية ، ويستاقون كثيراً من الأسرى والمتاع ، فجهز مروان الجند لقتالهم ، وسار إلى شاطبة ، واستطاع بمحالفة الأمير أبى جعفر والى مرسية يومئذ أن يستولى عليها بعد حصار دام عدة أشهر ؛ وأطلقت الحامية المرابطية لتسير إلى المرية ، وكانت قد عادت يومئذ إلى يد المرابطين ؛ وبسط مروان حكمه على شاطبة ، واليقنت ، وعدة أنحاء هامة أخرى ؛ ولما عاد إلى بلنسية دخلها فى موكب حافل ، راكباً على جمل ، وقد ارتدى حللا فاخرة ، وتقلد أسلحة ثمينة ساطعة ؛ يحف به الأعيان وأكابر الفرسان ، وجموع الشعب الغفيرة من حوله تهتف هتاف الفرح (جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ — أكتوبر سنة ١١٤٥ م)[1].

بيد أنه لم تمض أربعة أشهر حتى سئم سكان بلنسية أميرهم ، وأخذوا يفكرون فى نزعه من الحكم . ولقد قال بهذه المناسبة مؤرخ عربى : كان تأييد الشعب فى تلك الأيام كثير الاضطراب حتى أنه ما يكاد يرفع إلى الحكم رجلا تاق إلى إمارته حتى يسأمه ويبغضه ، ويرى فى حكمه وفى خلاله ما لا يطاق ؛ وهكذا فان أعيان المدينة وقضاة المدن المجاورة ، أعنى اليقنت وليرية وشقر ومربيطر وشاطبة وغيرها دعوا أمير مرسية الجديد ، أبا محمد بن عياض ، لكى يتولى أيضا حكم بلنسية ، وأن يعمل على توحيد الكلمة بين شعبها الممزق ؛ وبينما كان مروان ابن عبد العزيز يحاول أن يعمل على مقاومة هذه الحركة ، ثار الشعب فاضطر إلى مغادرة قصره ، واختفى لدى بعض أصدقائه ، ثم تدلى من سور المدينة تحت جنح الظلام ، لكى ينقذ حياته بالفرار ، وقد استطاع المنكود بالفعل أن يتقى مطاردة شعبه ، ولكنه ضل الطريق حتى لحق بجبال المرية ، وهنالك سقط فى أيدى المرابطين إذ عرفوه رغم تنكره وصفدوه بالأغلال ؛ بيد أنهم أبقوا على حياته ثم حملوه إلى ميورقة ، وهنالك استطاع أن يفتدى نفسه بمبلغ كبير من المال . ثم

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢١٤ .

قصد إلى مراكش حيث عاش فى كنف الموحدين ، وتوفى هنالك بعد حياة طويلة .
أما بلنسية ، فقد ندب ابن عياض لولايتها قريبه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش ؛
وأما سيف الدولة أحمد بن هود ، فقد استطاع فى تلك الأثناء وبعد أن أقصاه
خصومه عن قرطبة ، أن يستولى بمعاونة الجند القشتاليين على جيان ورنده وبيّاسة ،
وكان ابن جزى قاضى جيان يضطرم مثله بغضاً للمرابطين ، فتحالفا معاً ؛ وسار
ابن هود إلى غرناطة حيث كان القاضى أبو الحسن بن أضحى يحاول فى كثير من
الدهاء أن يبدو صديقاً حميا لجميع الأحزاب : المرابطين ، وحزب ابن حمدين ،
وحزب سيف الدولة ؛ وخف القاضى إلى لقاء سيف الدولة راجلا مبالغة فى تكريمه
ودعاه مع ولده عماد الدولة إلى منزله ، وأقام لهما مأدبة . ولما قدم القاضى إلى ضيفه
بناء على طلبه ، قدحا من الماء ، بادر بعض الحضور إلى تحذير سيف الدولة من
شربه لأنه مسموم . وقد ظهر فى الواقع أن القدح يحتوى على عصير برتقال ،
كان ممزوجا بسم حامض حلو المذاق ، يقتل من يجرعه . وفى بعض الروايات أن
القاضى شرب عندئذ من القدح ليدفع سوء المظنة عن نفسه فمات مسموما ، ولكن
الواقع أنه توفى بعد ذلك ، وسوف نراه بعد ذلك مراراً يكافح ضد المرابطين ؛ أما
سيف الدولة فقد غادر المدينة خشية العواقب ، وسار لمهاجمة قصبة الحمراء حيث
كانت بقية من المرابطين تمتنع بها ؛ ووثب المحصورون لمقاتلة الهاجمين مراراً ،
ونشبت بين الفريقين عدة مواقع دموية لم يفد سيف الدولة شيئا منها ؛ وفى اليوم
الثامن استطاع المرابطون التغلب على خصومهم وألجأوهم إلى الفرار ، وأسروا
عماد الدولة ولد الأمير ، وأخذوه إلى القصبة حيث توفى فى نفس اليوم من
جراحه ، وأبدى المرابطون شهامة فوضعوا جثة الأمير فى نعش ثمين محلى بالوشى
المذهب ، مضمخ بأنواع المسك وأرسلوه إلى والده لدفنه[٢] ؛ وفاضت نفس الأمير
حزنا على ولده ، وسخطا على قصور الغرناطيين وفتورهم ، فلم يلبث فى غرناطة
وضواحيها سوى شهر ، ثم عاد إلى جيان ، بعد أن أيقن بعقم هجماته ضد قصبة

(١) راجع قصة القدح المسموم فى الحلة السيراء ص ٢٠٩ .
(٢) راجع « الحلة السيراء » ص ٢٠٨ .

الحمراء ؛ أما أبو الحسن بن أضحى ، فقد بقى على حكمه المدينة ، وعقد مع الرابطين هدنة ، وأجاز لهم وفق رغبتهم ، فى السفر إلى المنكب حيث يبحرون إلى ميورقة أو إفريقية .

أما سيف الدولة فقد كان فى مرسية وبلنسية أوفر حظا منه فى غرناطة ؛ ذلك أنه دعى منهما لتولى الإمارة عليهما ؛ فسار إليهما فى قوة من الجند النصارى ؛ ودخل مرسية فى ١٨ رجب سنة ٥٤٠ هـ (يناير سنة ١١٤٦ م) ، فبادر أمير مرسية وبلنسية القاضى ابن عياض ، والحا كان عليهما من قبله وهما محمد بن سعد ابن مردنيش وعبد الله بن سعد ، إلى مبايعته والخضوع له ، وأطاعته جميع البلاد الواقعة على الشاطئ من لورقة إلى مصب نهر إيبرو ؛ وازداد سيف الدولة ثقة بنفسه وقوته حتى اعتقد أنه يستطيع الاستغناء عن معاونة الجند النصارى ، وكان يقودهم ثلاثة من الكونتات هم إماريش وبونسيوس ومارتن ، وكانوا فى تلك الأثناء قد افتتحوا جيان وبياسة وأبدة ؛ وأثخنوا فى سكانها المسلمين ، فطلب إليهم سيف الدولة تسليم المدن المفتوحة ، وكذلك تسليم الأسرى والغنائم ، وأن يقفوا غزواتهم المخربة التى قاموا بها فى أراضى المسلمين بالتحالف مع القاضى الطموح عبد الله الطغرانى والى قونقة ، فيما بين شاطبة وأبدة ؛ ذلك لأنه لايستطيع أن يسمح بأن يقوم النصارى بغزو المدن والأراضى التابعة له وتخريبها . ولما طال الجدل بينه وبينهم دون جدوى لجأ الفريقان إلى السلاح ؛ فسار الكونتات النصارى وحليفهم القاضى الطغرانى الذى لم يعترف بسيادة سيف الدولة فى قواتهم ، — بعد أن حاصروا شاطبة عبثاً — لمقاتلة قوات مرسية وبلنسية ؛ والتقت زهرة الفروسية الاسبانية والمسلمة فى موقعة دموية فى سهل « البسيط » على مقربة من جنجالة فى ٢٠ شعبان سنة ٥٤٠ هـ (٤ فبراير سنة ١١٤٦ م) ، وأسفرت الموقعة فى النهاية عن هزيمة المسلمين وفرارهم ، وأسر سيف الدولة ، وقتله بعض الفرسان دون علم الزعماء النصارى مما أثار بالغ سخطهم ، وقتل عبد الله بن سعد فى الموقعة [1]

---

(١) راجع تفاصيل هذه الموقعة فى الحلة السيراء ص ٢٢٦ .

وارتد ابن عياض فى فلول الجيش إلى بلنسية ؛ وسار عبد الله الطغرانى فى جيش من النصارى إلى مرسية لمحاربة واليها محمد بن سعد بن مردنيش ، واضطر ابن مردنيش أن يخوض بقواته القليلة معركة ثانية مع قوات تفوقه فى الكثرة ، وقاتل الفريقان بمنتهى الشجاعة ، ولكن الكثرة غلبت فى النهاية ، وفر ابن مردنيش ناجياً بنفسه إلى اليقنت ، وترك مرسية دون دفاع تحت رحمة الظافرين ، فدخلها عبد الله الطغرانى وبسط حكمه عليها ، وذلك فى أوائل ذى الحجة سنة ٥٤٠ ﻫ (مايو سنة ١١٤٦ م) ، بيد أنه لم يستطع أن يحول دون تقدم حلفائه النصارى إلى المدينة ، وترتب على ذلك أن سخط عليه أهل المدينة لما يكنونه من بالغ حقد للنصارى ، ولم يوفق إلى استمالتهم بالرغم مما بذله لإرضائهم ؛ وانتهز ابن عياض هذه الفرصة ، فسار فى قواته الجديدة التى استطاع أن يحشدها فى بلنسية واستولى على مرسية ؛ ذلك أنه ما كاد يهاجمها حتى ثار أهلها وانضموا إلى القادمين فى مهاجمة قوات القاضى عبد الله ، وكان استيلاؤه عليها فى السابع من رجب سنة ٥٤١ ﻫ (ديسمبر سنة ١١٤٦م) ، وكان عبد الله يقاتل بمنتهى الشجاعة ، ولكنه اضطر أخيراً إلى الفرار فى نفر من أصدقائه ، وهرع أعداؤه فى أثره يطاردونه ، وجفل جواده لحجر أصابه ، فألقاه من فوق ظهره ، وقبض عليه مطاردوه وقطعوا فى الحال رأسه ؛ وهكذا استطاع ابن عياض للمرة الثانية الاستيلاء على مرسية ، وقد عفا عمن كان من أهلها موالياً لعبد الله الطغرانى ، ولكنه لم يرحم من بقى فيها من النصارى فأمر بقتلهم جميعا ، وبسط ابن عياض حكمه مرة أخرى على جميع أراضى الشاطئ الواقعة بين لورقة ومصب نهر ايبرو ؛ ولكن أنصار عبد الله وحلفاءهم من النصارى لبثوا يسيطرون على المناطق الجبلية الواقعة بين قونقة واقليش وبياسة ممتنعين بقلاعها ، بالرغم من كل الجهود التى بذلت لإخضاعهم .

٢ — تقلب القيصر ألفونسو بين محالفة المرابطين والأندلسيين

كانت حالة الأندلس تسوء من يوم إلى يوم وتزداد اضطرابا وفوضى ؛ فكانت الأحزاب تتكاثر ، وترتفع وتسقط ، وكان الولاة والحكام يسقطهم الزعماء الأصاغر متخذين من تقلب الشعب وسيلة إلى قلب الحكم بلا انقطاع . ومع أن مسلمي الأندلس كانوا يزمعون التخلص من النير الأجنبي ، سواء أكان نير المرابطين أم نير النصارى ، فانه كان ينقصهم الوحدة والتماسك ؛ ذلك لأن نضال الأحزاب فيما بينها كان يحول دون خضوع البعض للبعض الآخر . وكان سيف الدولة أحمد ابن هود أكثر الزعماء توفيقا فى نيل تأييد الأندلسيين ، ولا سيما منذ انقلب على النصارى فترك حلفهم ، وشهر الحرب عليهم ، ولكن خاتمته المحزنة دفعت بكل شيء إلى الفوضى القديمة ، وعاونت المرابطين أنفسهم على النهوض .

وبينما كانت الأندلس تموج بالفتن والحروب الأهلية ، وتقدم إلينا — كالبحر الذى أثارته العواصف — صورة من غضب الطبيعة ، كانت دولة المرابطين فى إفريقية تسير إلى الانهيار أمام ضربات الموحدين وفتوحاتهم ؛ ولم يكن ثمة من الميسور عندئذ أن ترسل الأمداد إلى قائد الجيوش المرابطية العام فى اسبانيا أبى زكريا بن غانية ؛ وكان ابن غانيـة يقود قوات قليلة ، ويحيط به الأعداء من كل صوب ، ومع ذلك فقد استطاع أن يقوم بكل الممكن ؛ ولم يظفر فقط بأن وضع حدا لتقدم أحمد بن الحسين بن قسى فى الغرب ، واسترد المرية وإشبيلية ، وبسط سلطانه على ميورقة وغرناطة وقرمونة ، وعدة أماكن أخرى يمكن أن تقدم قلاعها المنيعة إلى المرابطين عند الفرار ملاذاً أمينا ، ومنها يستطيعون الإغارة على الأندلسيين بلا انقطاع ، ولكنه استطاع بالأخص أن يستغل تفرق الأندلس وتطاحن زعمائها لتأييد مركز المرابطين ببراعة . ولما رأى أحمد بن قسى أن ابن غانية كاد يقضى على الثورة فى الغرب ، بعث إلى أمير الموحدين عبد المؤمن رسولا ينبئه بأن سيادة المرابطين أضحت على وشك الانهيار ، وأنه يدين بنفس العقائد التى يدين بها الغزالى والمهدى ، وأنه قد ثار ضد المرابطين ، وانتزع منهم كثيراً من أراضى الغرب ، وخاض معهم عدة وقائع ،

وأنه يقدم طاعته إلى أمير الموحدين ويدعوه إلى الجواز إلى اسبانيا ؛ فأبدى عبد المؤمن رضاه للرسول وعين الخائن لوطنه واليا على الغرب وذلك فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠ هـ (اكتوبر سنة ١١٤٥ م) [١] ، وما كاد قائد المرابطين ابن غانية يقف على مسعى ابن قسى حتى بادر إلى الاستفادة منه فى بث التفرق بين ثوار الغرب ، وانتزاع زملاء ابن قسى وأنصاره منه ، واستطاع أن يوغر سيدراى صاحب يابرة ، ومحمد بن عمر صاحب شلب — وكانا يقودان أيضاً قسما من جيوش الغرب — غيرة وحسداً على ابن قسى من جراء تحالفه مع الموحدين ، سيما وقد كان الموحدون ينذرون بأن يصبحوا على الأندلسيين أشد وطأة من المرابطين . ثم إنه كان خليقا بالمرابطين وقد اضمحل خطرهم وشأنهم أن يبدوا للوطنيين الأندلسيين بالنسبة لغزاة إفريقية الجدد أصدقاء لا أعداء ، ومن ثم فإن سيدراى وابن عمر لم يترددا فى الانفصال عن زميلهما القديم ، والانضمام بقواتهما إلى المرابطين أعدائهما السابقين ؛ وقد أخذا على أنفسهما أن يتوليا قتال ابن قسى ، وأتاحا بذلك الفرصة لابن غانية للسير بقواته ضد قرطبة .

ولما رأى أحمد بن قسي تفوق قوات أعدائه من حوله ، وقد تركه الموحدون دون عون ، ارتد فى محنته صوب ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال أو كما تسميه الرواية العربية « الطاغية ابن الريق صاحب قلنبرية [٢] » ، وطلب إليه العون ضد أعدائه ووعده بالغنائم والهدايا الفخمة ، والظاهر أيضاً أنه تمهد بأن يدفع إليه الجزية

---

(١) يقول ابن خلدون إن ابن قسى كان صاحب مارتلة حينما أوفد رسوله إلى عبد المؤمن سنة ٥٤٠ هـ ويذكر لنا اسم الرسول وهو أبو بكر بن حبيس ، ثم يقول لنا إن الرسول لقى عبد المؤمن فى تلمسان ، ولكن عبد المؤمن أنكر ما تضمنته رسالة ابن قسى من نعته بالمهدى ولم يجاوبه (ج ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٤) . ولكن المراكشى (ص ١١٦) يقول لنا إن الموحدين حينما اقتحموا حصن مارتلة قبضوا على ابن قسى ونفوه إلى المغرب . ويقول ابن الأبار فى الحلة السيراء (ص ٢٠٠) إن ابن قسى هو الذى عبر إلى المغرب بنفسه ثم عاد إلى الأندلس صحبة جيش الموحدين الذى عبر إليها .

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٢٠٠ والظاهر أن هذه التسمية ، أى « ابن الريق » إنما هى تحريف لاسم هنريكيز الذى يكتب بالإسبانية « انريك » Enrique ، وهو والد ألفونسو ملك البرتغال . وأما قلنبرية فقد كانت يومئذ عاصمة البرتغال .

كتابع له ؛ فلم يتردد ألفونسو فى إجابته وبادر فى قواته من الفرسان مخترقاً أراضى باجة وماردة لإمداد حليفه وعاث فيها أيما عيث . ونشبت بين الفريقين المتحاربين عدة وقائع دموية دون أن يحرز أحدهما نصراً حاسماً ؛ ولما حل الشتاء واشتدت وطأته (شعبان سنة ٥٤٠ - يناير سنة ١١٤٦م) عاد البرتغاليون إلى بلادهم مثقلين بالغنائم والتحف الثمينة ؛ بيد أن ابن قسى أثار بتحالفه المشين مع النصارى وتعهده بالخضوع لملك البرتغال احتقار أنصاره أنفسهم ، ونبذه أنصاره فى قلعة ميرتلة التى كان يحاصرها أعداؤه ، واستطاع سيدراى أن يفتتح حصونها دون صعوبة ، وأسر ابن قسى وحمله معه إلى باجة وسجنه هناك ، ولكن صديقه الوفى عبد الله ابن على بن الصميل الذى افتتح باجة فيما بعد وفق إلى الإفراج عنه وإطلاق سراحه .

وكان اضمحلال سلطان المرابطين فى إفريقية ، وتفوق قوى الأندلس عند اتحادها ، والعون الذى لقيه ثوار الغرب من ملك البرتغال ، ثم العاصفة التى تنذر باضطرامها مقدم الموحدين إلى اسبانيا ؛ كل هذه حملت قائد المرابطين الذى ترك دون عون من إفريقية ، على أن يسعى للحصول على مساعدة النصارى . وقد حصل عليها من القيصر ألفونسو أعظم أمراء اسبانيا ، وبذل فى سبيلها بلا ريب وعوداً ضخمة ؛ وبدا عندئذ أن سياسة الجزيرة تقتضى تعضيد سيادة المرابطين التى كانت عندئذ فى دور النزع ، وذلك لإحباط الجهود التى يبذلها الأندلسيون فى سبيل وحدتهم ، والوقوف فى وجه الموحدين الأشداء الذين لاح مشروعهم فى الجواز إلى اسبانيا . وبعد أن قاتل النصارى بالتعاقب مع حزب سيف الدولة بن هود ، ثم عبد الله الطغرانى ، ثم أحمد بن قسى تحالفوا عندئذ مع المرابطين ألد أعدائهم من قبل ؛ وسارت القوى المتحدة صوب اندوجار وبياسة وقرطبة ، وكان ابن حمدين لايزال أميراً عليها ؛ ولم يكن من الصعب على المرابطين — وقد أنجدتهم فوق ذلك قوى محمد بن عمر التى سلخها من ابن قسى — أن يفتتحوا قرطبة والمدن المجاورة لها ، بيدأنه كان من الصعب أن يوحد الرأى بين هذه الجموع التى تفيض أثرة وطمعاً ، وأن يهدأ اضطرام الأحزاب فى المدن ، وأن ترضى مطامع الجند

النصارى وغطرستهم التى لاحد لها . ودخل النصارى قرطبة بالرغم من ممانعة ابن غانية فى آخر شعبان سنة ٥٤١ هـ (أوائل سنة ١١٤٧ م) ، وأقاموا بمسجدها الجامع بين سخط المسلمين وارتياعهم قداساً حافلا برياسة أسقف طليطلة ، وربطوا خيولهم فى أروقته ، وتناولوا بأيديهم النجسة مصحف عثمان ، أقدس ذخائر الأندلس ، وأثاروا غضب الشعب باغراقهم فى سوء معاملته ، ولم يراعوا شيئاً من الشروط التى سلمت المدنية بمقتضاها . ولما وقعت المفاوضة حول قرطبة ومن يتولى حكمها ، ازداد الخلاف اضطراما . ذلك أن القيصر الفونسو كان يطالب بها كتعويض لما أنفقه فى سبيل الحرب ، وكان قائد المرابطين يرى بحق أن التسليم بهذا المطلب إنما هو حكم بالإعدام على حزبه ؛ ومن ثم فقد عرض على القيصر مقابل ذلك ، أن يأخذ بياسة ، وتحفاً كثيرة ، ومبالغ طائلة من المال ، وكذلك الطاعة وأداء جزية سنوية ، فرضى الفونسو بذلك بعد جهد ، ولكن التفاهم ساء من ذلك الحين بين القيصر وبين المرابطين . ولقى ابن حمدين أمير قرطبة المخلوع لدى النصارى مثل ما لقى خصومه من العون ، وازدادت بذلك الحوادث فى جنوبى اسبانيا اضطرابا وتعقيداً . ذلك أن ابن غانية حينما حاصر ابن حمدين فى حصن اندوجار حينما لجأ ، أعلن ابن حمدين عندئذ خضوعه للقيصر ، واستطاع بذلك أن يستأجر منه جنوداً لمعاونته ، وقادها إليه — بأمر القيصر — قائده الدوق فرديناند ابا نيز دى ليا .

ولما غادر النصارى قرطبة مثقلين بالغنائم ، ووضعوا فى بياسة حامية قوية بقيادة الكونت المانريش ، ثار الجدل بين أبى زكريا بن غانية وبين محمد بن عمر صاحب شلب حول امتلاك المدينة ؛ ولما اختار القرطبيون رياسة ابن عمر ونادوا به أميراً عليهم ، لم ير ابن غانية مناصا من التسليم ، ولكن سرعان ماأدرك الأمير الجديد أنه يستحيل عليه أن يحكم شعبا لا يستطيع بعد أن يروض نفسه على الطاعة ، وغدا يضطرم بالثورة بلا انقطاع من جراء دسائس الأحزاب ، فلم تمض عشرة أيام حتى نزل عن الحكم مختاراً وفر من المدينة قبل أن تحطمه الثورة

وسار إلى الغرب ، وهنالك نشب النضال بينه وبين عبد الله بن الصميل صاحب ابن قسى ، حتى ظفر به عبد الله فى إحدى المواقع فأسره وسمل عينيه ، ثم أخرجه الموحدون بعد ذلك من سجنه فى باجة وحملوه إلى إفريقية حيث توفى فى سلا فى سنة ١١٦٣ م[١] .

وكانت الأنباء قد ذاعت فى الوقت الذى افتتح الحلفاء فيه قرطبة وأخذ الجدل يضطرم حول إمارتها ، بأن الموحدين قد جازوا إلى الجزيرة الخضراء ، وأخذوا يتقدمون فيها ، وكان ذلك من الأسباب التى حملت ابن غانية على ترك رياسة قرطبة ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يفيد من هذا الظرف شيئاً .

٣ — جواز الموحدين إلى الأندلس وفتوحهم الأولى فيها

فى الوقت الذى كان زعيم الموحدين عبد المؤمن مشغولا فيه بحصار مراكش عاصمة المرابطين ، والقضاء بافتتاحها على آخر ملاذ لخصومه فى إفريقية ، لم يفته أن يعنى بشؤون الأندلس ، حيث كان حليفه أحمد بن قسى والى الغرب يشتد المرابطون فى إرهاقه يوما عن يوم ؛ فسير إلى الأندلس بإمرة قائده أبى عمران موسى بن سعيد جيشا مؤلفا من عشرة آلاف فارس ، وعشرين ألف راجل ، فجاز إلى شبه الجزيرة فى أواخر سنة ٥٤٠ هـ (مايو سنة ١١٤٦م) واستطاع ببذل جهود عنيفة ، وبمؤازرة قوة من فرسان الغرب بقيادة ابن قسى ، أن ينتزع حصن الجزيرة من يد المرابطين ، ودخله الموحدون فى المحرم سنة ٥٤١ هـ (يونيه سنة ١١٤٦م)[٢] . وكانت الجزيرة قبل ذلك بستين عاما أيضاً أول موضع استولى عليه المرابطون حين جوازهم إلى الأندلس . واستطاعت الحامية المرابطة أن تشق لها وسط الأعداء طريقاً ، وأن تسير سالمة إلى اشبيلية ؛ وفتح جبل طارق[٣] وشريش أبوابهما

---

(١) راجع « الحلة السيراء » ص ٢٠٤ و ٢٠٥ ، ويضع ابن الأبار تاريخ وفاته فى سنة ٥٥٨ هـ وهو يقابل التاريخ الميلادى الذى يورده المؤلف .

(٢) فى روض القرطاس أن عبور الموحدين إلى الأندلس لأول مرة كان فى ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ . وأنهم دخلوا حصن الجزيرة فى يوم عيد الأضحى (ص ١٢٣) .

(٣) سمى الموحدون جبل طارق بهذه المناسبة جبل الفتح ، وتنسب هذه التسمية إلى عبد المؤمن ذاته (راجع المراكشى فى المعجب ص ١١٧) .

للموحدين طوعا واختياراً ، وبايعنا عبـد المؤمن على الطاعة ، وحصلنا بذلك على حقوق ومنح خاصة (١) .

وسار الموحدون بعد قليل ، ومعهم قوات ابن قسي وقوات زميله سيدراى الذى عاد إلى محالفته ، إلى إشبيلية ، وكان حزب ابن حمدين هو الغالب فيها ، فانضم إلى الموحدين ، وعاونهم فى الاستيلاء على تلك المدينة الهامة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤١ هـ (أوائل سنة ١١٤٧ م)، ولم ير المرابطون مناصا من الارتداد أمام هذه القوى العظيمة فغادروا القلعة ، ولجأوا إلى حصون قرمونة المنيعة ، ودُعى لعبد المؤمن سلطان الموحدين فى الصلاة فى مساجد إشبيلية ، ثم دعى له بعد ذلك بقليل فى مالقة ؛ وكان بغض الأندلسيين للمرابطين ورغبتهم فى الانتقام منهم ، مما يساعد على تقدم الموحدين بسرعة ، وإن كانت سيادة الموحدين لا تبشر فى نظرهم بحسن المصير ، ومع ذلك فقد كانوا يغتبطون لما يتخذه الظافرون فى حق النصارى المعاهدين واليهود من شنيع الاجراءات ، إذ ينزعون أملاكهم ويطاردونهم بمنتهى القسوة والعنف .

وفى تلك الأثناء كان الموحدون قد فتحوا مراكش ، وانتهت بذلك دولة المرابطين فى إفريقية ، وغدت الأندلس عندئذ مقصد الموحدين وهدف فتوحهم ، وأضحى فى وسعهم أن يسيروا إليها الجيوش الضخمة ؛ وأدرك القيصر ألفونسو فداحة الخطر الذى يهدد شبه الجزيرة من إفريقية للمرة الثالثة ، فلم يقنع عندئذ بافتتاح قلعة رباح وغيرها من أماكن الحدود ، ولكنه كان يتوق إلى أن ينفذ إلى قلب الأندلس على يد الأمراء الأندلسيين أنفسهم ، وذلك باعتباره صديقاً وحليفاً لمعظم الأحزاب الأندلسية ، وكذلك للمرابطين ، وللشعب المتبرم فى بلنسية ومرسية ولابن حمدين .

وكان القيصر قد استطاع فى ذلك الحين أن يوفق بين نافارا وأراجون ، وأن يعقد نوعا من السلام العام بين الممالك النصرانية الاسبانية ، وكان واجبا أن تنتهز

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٢ .

هذه الفرصة للقيام بحملة مشتركة ضد أندلس يسودها الخلل والاضطراب ؛ ذلك أن جنوب غربى اسبانيا كان يتقاسمه الموحدون ، وأحمد بن الحسين بن قسى ، وأنصار ابن حمدين ؛ وكان الشاطئ الممتد من ألمرية حتى مصب الايبرو يحكمه منذ وفاة ابن عياض (فى ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ) أبو عبد الله محمد بن سعد ، وكان المرابطون يبسطون حكمهم على معظم الأراضى الداخلية الممتدة حتى نهر الوادى الكبير ، ويحكم بعضها ابن حمدين أيضا وأنصار سيف الدولة السابقون ؛ وكان من حسن الطالع بالنسبة لحملة النصارى الاسبان ، أن عبد المؤمن بعد أن قتل إبراهيم آخر الأمراء المرابطين ، واعتقد أنه قد أضحى بذلك يسيطر على المغرب بلا منازع ، كان يواجه فى ذلك الحين بالذات معركة جديدة ، كاد يفقد من جرائها كل فتوحه . وذلك أنه ظهر فى سلا رجل يدعى محمد بن هود بن عبد الله ، وتسمى بالهادى أو المهدى ، وثار على الموحدين ، وكافح سلطانهم بنجاح مدهش ، ولم يمض سوى قليل حتى انتزع من عبد المؤمن كل الأقاليم والمدن التى يسيطر عليها ، خلا مراكش وفاس ، وكادت دولة الموحدين الناشئة تنهار فى مهدها ؛ ولكن عبد المؤمن وفق إلى الانتصار على الثائر فى بعض المواقع ، وقتل الثائر نفسه فى الموقعة ، واسترد الموحدون أراضيهم بنفس السرعة التى فقدوها بها [١] بيد أن هذه الثورة عاقت الموحدين عند فتوحهم فى اسبانيا مدى حين .

٤ — حملات النصارى ضد المرية واشبونة وطرطوشة

وجه القيصر الفونسو ، نزولا على اقتراح الجنويين — الذين أوفدوا إليه سفراء للتباحث فى خير الوسائل لقمع أعمال خوارج البحر (القرصان) الأندلسيين — ، حملته إلى ألمرية ؛ وكانت المرية يومئذ أهم ملجأ للقرصان ، يخرجون منها للإغارة على شواطئ اسبانيا وجليقية واشتوريش وبرشلونة والبرتغال ، وشواطئ فرنسا

(١) راجع فى ثورة ابن هود على الموحدين روض القرطاس ص ١٣٣ و ١٣٤ . وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٤٤ و ١٤٥ .

وإيطاليا الجنوبية ، وأحياناً تمتد غاراتهم إلى الشواطئ البيزنطية . والمرجح أن المرية لم تكن يومئذ تحت حكم محمد بن سعد أمير بلنسية ومرسية ، الذى كان مشغولا يومئذ بمحاربة المرابطين والنصارى معاً ، وأن القرصان كانوا قد أسسوا بها إمارة مستقلة ؛ يؤيد ذلك أن القيصر كان متحالفاً مع باقى الأحزاب الأندلسية ، ولم تذكر الرواية أن المرية تلقت عوناً من أى جانب ، هذا إلى أن الموحدين لم يكونوا قد تقدموا فى فتوحهم يومئذ ، حتى يمكن أن يقال إن سلطانهم امتد إلى المرية .

ولما كان حصار المرية لا يمكن أن يسفر عن النجاح إلا إذا طوقت المدينة من البحر أيضا ؛ فقد أرسل القيصر أرنولد أسقف أسترقة إلى الكونت رعوند برنجار الرابع أمير برشلونة ، والكونت جيُّوم صاحب مونبلييه بطلب إليهما الاشتراك فى الحملة البحرية ؛ وكان الجنويون والبيزيون ، بعد أن تقاضوا من القيصر ثلاثين ألف قطعة من الذهب لتجهيز السفن ، قد حددوا يوم أول أغسطس سنة ١١٤٧ م موعداً لمقدمهم إلى المرية ، فلم يتردد الأميران رعوند وجيُّوم فى التعهد ، بارسال إمدادهما فى الموعد المضروب . ومنذ شهر مايو حشد القيصر كل قواته فى قلعة رباح ، وأقام هنالك استعراضاً عسكريا لمختلف الفرق . وكان الجيش مكوناً من قوات جلّيقية واشتوريش وقشتالة وقطلونية وأراجون ونافارا ، وكل منها يقوده أمير أو كبير منهم ، ويتولى القيصر نفسه قيادة الجيش العليا ؛ ويصف لنا مؤرخ عربى الحملة ضد المرية فيما يأتى :

« ملأ النصارى السهل بجيوشهم الضخمة ، وخربوا الحقول ، واستاقوا الماشية وساروا نحو المرية ، وكان يقود النصارى ملكهم أذفنش ، ويتألف جيشه من صفوف لا تحصى من الفرسان والمشاة ، وقد ملأوا الجبال والسهول ، ولم تكف مياه العيون والأنهار لإرواء ظمئهم ، ولا الحشائش والنبات لتغذيتهم ، وكانت الجبال ترتج لوقع حوافر خيولهم وصوت أقدامهم ، وتردد صداها ؛ وكان بين قادة الجيش فردلند ملك جليقية ، والقمط رذمير ، والقمط ارمنجودى ، وغيرهم من أمراء الفرنج وأمم النصرانية المجاورة . وجاء القمط رمند من البحر

فى سفائن عديدة وطوق مدينة ألمرية من البر والبحر ، حتى أصبح من المتعذر أن يدخلها أحد سوى النسور ؛ ونفدت المؤن بسرعة ، ورأى المسلمون أن لا أمل لهم فى النجدة ، فخرجوا مراراً لمقاتلة النصارى ، وفقدوا خيرة فرسانهم ، ولما نقص عددهم ولم يعد يكفى للدفاع ، بدأوا المفاوضة مع النصارى ، وسلموا المدينة للأذفنش بعد حصار دام ثلاثة أشهر على أن يؤمّنوا أنفسهم ؛ وكان ذلك فى أواخر سنة ٥٤٢ هـ »[١] .

وتقول الروايات النصرانية إن حصار ألمرية بدأ فى أوائل أغسطس ، حيث التقى أمامها أسطول الجنويين والبيزيين بالكونت ريموند صاحب برشلونة ، وجيوم صاحب مونبلييه ، واستمر حتى ١٧ أكتوبر سنة ١١٤٧ م . ثم أخذت المدينة عنوة ، وقتلت حاميتها بعد دفاع شديد ؛ واستولى الظافرون على غنائم عظيمة مما جمع القرصان فى المدينة ، وكان أثمن ما حمل عليه الجنويون قطعة من الزجاج الأخضر ، قيل إنها من الزمرد ولم تكن كذلك . وبعد أن قسمت الغنائم على الجند ، وحصل الجنويون والبيزيون منها على أوفر نصيب ، وحصل الكونت ريموند على جميع الأسرى ، دخل القيصر ألمرية فى قوة كبيرة ، وعند اقتراب الشتاء عاد كل فريق إلى بلاده .

وفى نفس الوقت الذى افتتحت فيه ألمرية ، سقطت أشبونة[٢] فى يد النصارى ؛ وكان الفونسو ملك البرتغال قد خرج من قبل مراراً إلى ضفاف التاجه لمقاتلة ثوار الغرب الذين انشقوا على أحمد بن قسى ؛ فخرج فى نفس العام لمحاصرة أشبونة وطوقها بجميع قواته ، وكان قد حاصرها من قبل عبثاً بمعاونة الفرسان الصليبيين الذين قدموا من فرنسا ؛ وكان بالمدينة فضلا عن سكانها الكثيرين حامية كبيرة ومن ثم فقد يئس البرتغاليون من افتتاحها بسرعة نظراً لأنه لم يكن لديهم أسطول

---

(١) لم نجد أصلا لهذه الفقرة فى جميع المراجع المصرية التى لدينا . وقد ذكر المؤلف أنه نقلها عن كوندى المؤرخ الأسبانى وبعض المراجع النصرانية (ج ١ ص ٤٢٥) . ومن الصعب دائماً أن يعثر المرء على أصل عربى يورده كوندى .

(٢) لشبونة أو Lisbon عاصمة البرتغال الحديثة .

يطوقها من ناحية البحر ؛ ولكن كان من حسن طالع الملك الفونسو ، أن رست في هذا الوقت بالذات عند مصب نهر دويره (دورو) زهاء مثتى سفينة من سفن الصليبيين ، ما بين إنكليزية وهولندية وألمانية ، لتتزود بالماء العذب ، ثم أرغمت على البقاء فى مراسيها نظراً لاضطراب الريح . ففاوضهم الفونسو ، وحملهم الوعود وأمل الحصول على الغنائم الضخمة ، وما يقترن به من ثواب مقاتلة المسلمين فى سبيل الدين ، على تلبية ندائه ؛ وسارت سفنهم بقيادة الكونت أرنولف فون ارشوث الهولندى إلى مياه أشبونة ، لمعاونة البرتغاليين على أخذها ، خصوصاً وقد ساء الجو ولم يبق صالحاً لسير السفن ، وانتهت جهود البرتغاليين والصليبيين المشتركة بأخذ المدينة المحصورة بالرغم من دفاعها الباسل ؛ وسلم المحصورون المدينة بعد أن فقدوا كل أمل فى الاغاثة ولم يبق أمامهم سوى القتل أو الموت جوعاً ، وحصلوا مقابل ذلك على حق الرحيل مع ترك أسلحتهم وأموالهم ؛ واقتسم البرتغاليون والصليبيون ما لقوا فى المدينة من غنائم لا تحصى ؛ وأنفق الصليبيون الشتاء فى مياه البرتغال ؛ وكان بدء حصار أشبونة فى ٢٨ يونيه سنة ١١٤٧ م ، واستمر مدى أربعة أشهر حتى ٢١ أكتوبر من نفس العام ؛ وكان سقوطها بعد أيام قلائل فقط من سقوط ألمرية . وكان فتحاً عظيم الأهمية بالنسبة للبرتغال ، حيث استطاعت أن تنتزع بأخذ اشبونة مفتاح التاجه من يد المسلمين .

وكان هذا التوفيق الذى صاحب النصارى عاملا فى إغراء الكونت ريموند صاحب برشلونة ، مذ عاد إلى وطنه بعد افتتاح المرية ، على أن يستأنف مشروعه لافتتاح قلعة طرطوشة الواقعة على مصب نهر ايبرو ، بعد أن فشلت كل محاولاته من قبل فى هذا السبيل . فسار يعاونه أسطول الجنويين إلى هذه القلعة التى تعتبر مفتاح الايبرو ، والتى تغلق البحر فى وجه السفن الأرجونية ، محاولا افتتاحها مرة أخرى . وطوق النصارى طرطوشة من البر والبحر ؛ وعجز أمير بلنسية محمد ابن سعد عن أن يرسل إليها المدد ؛ فسقطت فى يد النصارى بعد حصار دام ستة أشهر من بداية يوليه إلى ٣١ ديسمبر سنة ١١٤٨م (٥٤٢ هـ) ؛ واستولى الجنويون

والبيزيون وجيوم صاحب مونبلييه ، باعتبارهم حلفاء على ثلثى المدينة نظير عونهم ، على أن يؤدوا الجزية ؛ وترك الثلث الباقى ملكا لأمراء أراجون . وانتزع رعوند فى العام التالى الأماكن التى بقيت بيد المسلمين على نهر ايبرو ، وهى قلاع مكونيزا ولاردة وإفراغه[1] من يد محمد بن سعد ، فلم يبق فى يده سوى الحاضرة بلنسية وقد غدت عندئذ تحت رحمة الأعداء .

٥ — تحالف القيصر ألفونسو مع المرابطين ضد الموحدين

ولم يستطع الموحدون فى تلك الأثناء أن يجاوزوا فى فتوحهم منطقتى إشبيلية ومالقة ؛ ذلك أنه ما كادت تخمد ثورة محمد بن هود الملقب بالهادى فى إفريقيــة حتى قامت ثورة أخرى فى سبتة ترمى الى إعادة سلطان المرابطين ، وقتل الموحدون الذين لم يستطيعوا الفرار وأحرقوا أحياء ؛ واتصل قاضى المدينــة وزعيم الثورة عياض بن موسى فى الحال بالمرابطين فى اسبانيا ، ودعا بالولاية لقائدهم أبى زكريا يحيى بن غانية ؛ وسير إليــه ابن غانية المدد بقيادة يحيى بن أبى بكر الصحراوى ؛ واتسع نطاق الثورة ، واجترأ الثوار وحلفاؤهم رغم ضآلة قواهم على أن يخوضوا مع الموحدين معركة صريحة انتهت بهزيمتهم وإخماد الثورة[2] ؛ وانتهى حزب المرابطين فى اسبانيا بعــد أن استنفذ قواه الأخيرة فى سبيل السلطان فى إفريقية إلى حالة يرثى لها من الضعف ، ولم يبق أمامه سوى الخضوع والتسليم بالرغم مما كان يلقاه من معاونة القيصر .

وما كاد عبد المؤمن ينتهى من توطيد سلطانه فى إفريقية حتى بعث إلى شبه الجزيرة بجيش ضخم ، وسار الموحدون إلى قرطبة حيث كان ابن غانية يرابط فى معظم قواته ، وبعد أن ضرب الموحدون حولها الحصار الصارم ، سقطت المدينة فى أيديهم بخيانة واليهــا يحيى بن على ؛ أما يحيى بن غانية فقد استطاع الفرار من

---

(١) راجع ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ .

(٢) وردت تفاصيل هذه الثورة فى روض القرطاس ص ١٣٤ ، وفى الاستقصاء ج ١ ص ١٤٥ .

قبل إلى غرناطة ؛ وسمح للحامية المرابطية بالخروج من المدينة ، وسار قسم منها إلى قرمونة ، وكانت ما تزال بيد المرابطين ؛ وكان استيلاء الموحدين على قرطبة فى مايو أو يونيه سنة ١١٤٨ (٥٤٣ هـ) ؛ وبدأوا حين دخولها بتطهير مسجدها الجامع من آثار المرابطين ورجسهم ، وأقاموا الصلاة ودعوا فيها لسلطان الموحدين ؛ واستولوا على مصحف عثمان النفيس — وهو من أقدم النسخ التى ترجع إلى عهد الخلفاء الراشدين ؛ وقد نقله الأمويون من الشأم الى الأندلس — وبعثوه الى مراكش[1] . وهكذا تقلبت على قرطبة فى نحو ثلاثة أعوام دول وحكومات عدة ، فملكها المرابطون مرتين ، وابن حمدين مرتين ، وسيف الدولة ابن هود مرة ، ومحمد بن عمر مرتين ، والقيصر ألفونسو مرة ، ثم ملكها الموحدون آخر الأمر .

وكان يحيى بن غانية يضطرم حقداً على والى قرطبة ويعتبره خائناً لأنه عجل بتسليم المدينة ، ولذا فانه (أى الوالى يحيى بن على) ما كاد يصل إلى غرناطة حتى بادر إليه ابن غانية ، وفلق رأسه بنفسه ؛ وقد كان ابن غانية يؤمل إنقاذ قرطبة متى وصلتها نجدة من النصارى . وكان لسقوط عاصمة الأندلس وقع شديد فى النفوس ، غاض معه كل أمل فى مقاومة الموحدين ، ولم تكن جموع الفرسان القشتاليين التى قادها الكونت المانريش لمعاونة المرابطين لتغنى شيئاً بعد . وبعد أن استولى الموحدون على قرمونة ، وخاضوا فى ولاية جيان عدة مواقع مظفرة ، طوقوا مدينة غرناطة التى غدت أمنع قاعدة دفاعية للمرابطين ، وكان ابن غانية ممتنعاً فيها مع جميع قواته . وتقول الرواية العربية إن قائد المرابطين (ابن غانية) سقط فى ميدان الحرب وهو يقاتل الموحدين بشجاعة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤٣ هـ (ديسمبر سنة ١١٤٨) ، ثم دفن فى غرناطة . ولكن توجد ثمة رواية نصرانية تناقض هذه كل المناقضة ، وخلاصتها أن ابن غانية أسره حلفاؤه أنفسهم أعنى جند

---

(١) راجع قصة نقل مصحف عثمان من قرطبة إلى مراكش فى الاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

الكونت المانريش ؛ ثم قتله بعد ذلك سكان جيان عقاباً له على ما اقترفه من التآمر على حياة القيصر [١] .

وكانت وفاة يحيى بن غانية ضربة مؤلمة للمرابطين ؛ فقد لبث زهاء ستة عشر عاماً فى رياسة اسبانيا المسلمة يرد عنها غارات النصارى بقوة ؛ وكان هو الظافر فى موقعة إفراغة التى هلك فيها ألفونسو المحارب ؛ وقد رد عن سلطان المرابطين فى الأندلس عادية الثورات وعادية الموحدين ، حتى بعد أن انهارت دولة المرابطين فى إفريقية ؛ بيد أن تحالفه مع النصارى قد وصم اسمه لدى المسلمين ؛ ذلك أن بغض المسلمين للنصارى كان من الشدة بحيث كان أهل الأندلس يؤثرون أن يرزحوا تحت نير الإفريقيين (المغاربة) المرهق على أن يستردوا حرياتهم بمعاونة أعداء دينهم .

ولما اتسع نطاق ظفر الموحدين فى الأندلس ، واستولوا على جيان فى سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) وهددوا غرناطة والمرية بالحصار ، اعتزم القيصر ألفونسو — وكان يضع نفسه دائماً على رأس حزب المرابطين — بالاتحاد مع جارسيا ملك نافارا أن يسير حملة إلى الأندلس ، وحشد فيها قوى جميع الأمراء التابعين له . وفى أوائل سنة ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) سار إلى قرطبة وحاصرها بعد أن خرب بسائطها ، وهزم جيشاً من الموحدين قدم لإنجادها وألجأه إلى الفرار ؛ ولكنه رأى إزاء مقاومة الحامية الشديدة ، ومناعة حصون المدينة ، وما نمى إليه من أن عبد المؤمن سلطان الموحدين القوى ، قادم بنفسه إلى الأندلس فى جيش ضخم ، ألا يطوح بزهرة جيشه فى محاولات عقيمة ، فرفع الحصار عن قرطبة ؛ ولكى يجنى من حملته بعض الشىء ، ارتد إلى جيان ، واستولى عليها عنوة ووضع فيها حامية من جنده ؛ ثم عاد إلى طليطلة ، لكى يقوم بأهبات جديدة للقتال فى العام التالى .

---

(١) تجمع الرواية الإسلامية على أن ابن غانية توفى فى غرناطة فى سنة ٥٤٣ ، ولا تقول لنا إنه سقط فى ميدان الحرب ، وإنه دفن فى قصبة غرناطة بإزاء قبر باديس الصنهاجى ، وإن قبره لبث عصراً مزاراً معروفاً (راجع روض القرطاس ص ١٣٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ والاستقصاء ج ١ ص ١٤٧) .

وكانت الأخطار التى تهدد اسبانيا من جراء جواز الموحدين إليها تتفاقم بالنسبة للنصارى يوماً عن يوم . أجل ، كان عبد المؤمن لا يزال فى إفريقية مشغولا بإخماد بعض الثورات ، ولكنه مع ذلك لبث يتابع فتوحه فى شبه الجزيرة . فبعث بقيادة الشيخ أبى حفص وولده (أى ولد عبد المؤمن) السيد أبى سعيد إلى الأندلس جيشاً جديداً ومعه أسطول ليقوم بمحاصرة ألمرية التى كانت لا تزال يومئذ فى يد النصارى ، من البر والبحر . وجمع الخطر المشترك بين الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية بالرغم من خصومته للقيصر ألفونسو ، وبين النصارى والمرابطين ؛ فاقتصر النضال فى الأندلس لذلك على حزبين اثنين ، هما الموحدون ، وخصومهم . ولم يستطع الموحدون رغم جهودهم افتتاح ألمرية ؛ وحاول محمد بن سعد بمعاونة النصارى عبثاً إنجادها ، فتحول عندئذ إلى أبدة وبياسة ، وانتزعهما من يد الموحدين (سنة ١١٥٢ م — ٥٤٧ هـ) . وفى الوقت نفسه خرج المرابطون من غرناطة بقيادة الأمير على ، واشتبكوا مع الموحدين فى معارك دامت أعواماً حتى هلك علىّ فى المنكّب مسموماً فيما يظهر ، وذلك سنة ١١٥٦ م .

ومع أن الروايات النصرانية والعربية لا تقدم إلينا عن الحروب التى وقعت بين سنتى ١١٥١ و١١٥٧ م (٥٤٦ — ٥٥٢ هـ) سوى تفاصيل موجزة ناقصة ، فانه يبدو مع ذلك من سير الحوادث أن الغلبة كانت للموحدين ، وأنهم استطاعوا بالرغم من مقاومة المرابطين والنصارى فى جميع البلاد التى كانت بأيديهم ، أن يستولوا عليها ؛ هذا فيما عدا بلنسية ومرسية التى استطاع ابن مردنيش أن يحتفظ بهما بمعاونة النصارى ، بل لقد استطاع أيضاً أن ينتزع غرناطة مدى حين من الموحدين الذين انتزعوها قبل ذلك بقليل من المرابطين . ثم سقطت ألمرية أخيراً فى يد الموحدين بعد حصار دام بضعة أعوام فى سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) أعنى لعشرة أعوام من سقوطها فى يد النصارى ، وخرج النصارى منها بالأمان[1] ؛ واستولى

---

(١) راجع فى حصار المرية وسقوطها روض القرطاس ص ١٣٦ .

الوحدون أيضاً على جيّان وأبده وأندوجار وبيّاسة ووادى آش ؛ ثم زحفوا على غرناطة كرة أخرى ، وأمر عبد المؤمن بافتتاحها مهما كلفهم الأمر ، وبذل المرابطون والنصارى وجند بلنسية ومرسية كل جهد ممكن لإنقاذها ؛ وسار القيصر الفونسو ومعه ولى عهده سانشو وأسقف طليطلة على رأس حملة كبيرة إلى الأندلس ، واشتبك مع الموحدين فى عدة مواقع دون أن يحرز النصر ؛ بيد أنه استطاع أن ينتزع منهم بيّاسة رغم تفوقهم فيما يشبه المعجزة ؛ ثم اضطر إلى العودة دون أن يجتنى نتائج تذكر ، وفى أثناء عوده توفى فى مضيق موراوال فى ٢١ أغسطس سنة ١١٤٧ ، إما متأثراً بجراحه ، وإما بسبب تحطم قواه بما بذل من جهود ولما أصابه من الحزن لفشله . ووصلته الأنباء قبيل موته بأن الموحدين أخذوا غرناطة عنوة ، وقتلوا قائد النصارى المدافع عنها وحاميتها جميعا ، سواء من النصارى أو المسلمين ، وحصل الموحدون باستيلائهم على غرناطة على دعامة جديدة لسيادتهم ؛ وفرت فلول المرابطين إلى المنكّب ومنها إلى ميورقة ملاذهم وملجأهم الأخير ، وانهار سلطانهم نهائيا فى الأندلس .

٦ — الأعوام الأخيرة من حكم القيصر ألفونسو

لما امتد سلطان القيصر بافتتاح ألمرية وجزء كبير من الأندلس إلى حدود لم يبلغها قبله أمير من أمراء اسبانيا النصرانية ، بلغ العاهل المتلقب بقيصر اسبانيا المتوج بتاج المجد ، الظفر دائماً ، مَلِك جليقية وليون وقشتالة ونافارا وسرقسطة والمرية وبياسة وأندوجار ، ذروة قوته وسلطانه . وكانت مملكة البرتغال الصغيرة فى عهد ملكها الجديد الفونسو هنريكيز قد استطاعت فى البداية أن تهز أسس المملكة الاسبانية ، ثم كان مقدم الموحدين إلى اسبانيا وفتوحهم فيها واستيلاؤهم بالأخص على إشبيلية وقرطبة والمرية وغرناطة ، لحطموا السيادة النصرانية فى الأندلس فى مهدها ؛ ولما انفصمت روابط الأسرة بين قشتالة وبين أمراء أراجون ونافارا أصبحت سيادة قشتالة على المملكة الممتدة بين جبال البرنيه والايبر و عرضة للخلاف والضياع .

ففى خلال عام واحد (سنة ١١٤٩ — ١١٥٠م) توفيت زوج القيصر الملكة برنجاريا أخت الكونت رعوند أمير برشلونه الذى لبث حتى ذلك الحين صلة التفاهم الوثيق بين قشتالة وأراجون ، وفقد القيصر أيضاً زوج ابنته جارسيا الرابع ملك ناقارا الذى كان فى أواخر أعوامه يعمل مع قشتالة بمنتهى التفاهم بالرغم مما سبق من الحروب بينه وبين القيصر . وهكذا فإن ضرام الحرب بين ناقارا وأراجون ما كادت تخمد حتى عادت إلى اضطرامها ، وبذل القيصر جهوداً فادحة ليعقد السلام بين الفريقين المتخاصمين ؛ ذلك أن سانشو السادس ولد جارسيا وخلفه فى الحكم كان من جهة يحاول أن يحطم نير قشتالة الثقيل ، ومن جهة أخرى فقد ألفى رعوند أمير برشلونة الذى غدا بعد وفاة راميرو الثانى — وفقا لوصية زوجه الفتية الملكة بترونيلا — سيد أراجون الحقيقى ، أنه لم تبق له حاجة إلى مؤازرة قشتالة خصوصا وقد كانت هذه المؤازرة تحول بينه وبين الاستيلاء على ناقارا التى كان ملك أراجون يدعى عليها كل الحقوق .

وحاول القيصر أن يعود فيوثق بأسرع ما يستطاع روابط الأسرة المنحلة ، وأن يوطد بذلك دعائم السلم بين أمراء اسبانيا النصرانية ؛ كذلك اتخذ فيما يتعلق بوراثة العرش فى مملكته وإماراته بعض التدابير التمهيدية ؛ ولما لم يكن فى وسعه أن يتخلص من التقليد السيء الذى جرى عليه أسلافه فى تقسيم المملكة بين الأولاد ، فقد رأى أن يحاول قدر الاستطاعة أن يكون تقسيم السلطان فى اسبانيا النصرانية أبعد ما يكون عن الإضرار بصالح المملكة ، ورأى لذلك أن يمين ولديه اللذين سيرثان الملك من بعده وصيين للحكم معه ، وأن يقوم كل منهما بالإشراف على شؤون مملكته المستقبلة ؛ فتلقى ولده الأكبر وولى عهده سانشو مملكة قشتالة وبسكونيه (بسكايا) ، والإشراف على الممالك البرينية ، وتلقى ولده الأصغر فرديناند ليون واسترامادوره وجليقية واشتوريش ، والإشراف على مملكة البرتغال ، وقد كانت ما تزال موضع النزاع ؛ ومن ذلك الحين كان الولدان يوقعان مع أبيهما القيصر وثائق الدولة باعتبارهما ملكين . ثم رأى القيصر لكى يوثق العلائق بين

الدولتين المتجاورتين قشتالة وناڤارا فى المستقبل أن يتزوج ولده سانشو ملك قشتالة من الدونا بلانكا أخت ملك ناڤارا (سنة ١١٥١م)، ولما تزوج القيصر ثانية بعد ذلك بعامين واحتفل فى مدينة سُريا بزواجه من الأميرة ريكا ابنة لادسلاوس الثانى ملك بولونيا، دعا هنالك تابعيه ملكى ناڤارا وأراجون ونصح إليهما بعقد السلام ونبذ الخلاف، وأسبغ القيصر على ملك ناڤارا الفتى لقب الفروسية، وقدم إليه ابنته من القيصرة برنجاريا الدونا بياتيا عروساً، ووعد بأن يزوج ابنته الأخرى التى رزق بها من القيصرة ريكا لألفونسو ولد ريموند وبترونيلا ملك أراجون وقطلونية المستقبل، وكان يومئذ طفلا لايجاوز بضعة أعوام. وهكذا عُقدت خطبة أطفال فى المهد لكى تُوثق علائق الدول المجاورة فى المستقبل.

ولم يقتصر القيصر ألفونسو على توثيق الروابط بين الأمراء الاسبانيين؛ فان لويس السابع ملك فرنسا، بعد أن طُلق من زوجه الأولى، غير المخلصة، إلينورا، وانتُحلت شدة القرابة سبباً للطلاق، تزوج ابنة القيصر اليزابيث، التى اتخذت عندئذ اسم كونستانسيا (سنة ١١٥٤م). ولما كانت لألفونسو من قبل خليلة تدعى جوندرادا، وقد أعقب منها عدة بنات، فقد أثار البعض فى نفس لويس التاسع ريبا بأن زوجه ليست ابنة للقيصرة برنجاريا، كما قيل، ولكنها فى الواقع ابنة غير شرعية للقيصر من خليلة تنتمى إلى أصل وضيع. والظاهر أن البعض لم يكن ينظر بعين الرضى إلى توثيق روابط الصداقة بين القيصر ولويس ملك فرنسا ومن ثم فقد كانت تُلقى إلى الملك الضعيف عن القيصر أقاويل تحط من قدره، وتصوره كأنه لم يكن ذا مكانة بين شعبه. واعتزم لويس أن يتحقق من صحة هذه الأقاويل بنفسه، فسافر إلى اسبانيا محتجا بزيارة قبر القديس يعقوب فى كومبوستل (سنة ١١٥٥م). بيد أن القيصر لم يكن يجهل السبب الحقيق لمقدم صهره. فسار ومعه زوج ابنته سانشو ملك ناڤارا، إلى لقائه فى برغش، واستقبله فى بذخ طائل دهش له لويس. على أن هذا الاستقبال لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك الذى شهده فى بلاط طليطلة عقب عوده من شنت ياقب؛ وكان ألفونسو قد

نظم كل شيء لكي يبدو سلطانه في ذروة بهائه ، ويبدو ثراؤه في منتهى بذخه ؛ فوفد عندئذ على طليطلة جميع كبراء المملكة من النصارى والمسلمين ، في بطاناتهم الكبيرة ، وفي أفخم المظاهر وأروعها ؛ ووفد أيضاً ملك نافارا والكونت رعوند ملك أراجون ، وقدّما للقيصر شعائر الطاعة بحضور لويس ، وصرح ملك فرنسا في دهشة ، أنه لم ير قط مثل هذا البهاء ، أو بلاطاً بمثل هذه الفخامة ، أو بطانة بمثل هذه الكثرة . وهنا أشار القيصر إلى رعوند قائلا : لقد رزقت من برنجاريا ، أخت هذا الأمير ، ابنتي كونستانسيا التي زوجتها إليك ؛ والتفت رعوند إلى لويس قائلا : أجل إن زوجك هي ابنة أختي ، فعاملها بالاحترام والتكريم ، وإلا فانتظر مقدمي في باريس مع القيصر ، كعدوين لك . وعندئذ اقتنع لويس بأصل زوجه الرفيع ، وطيب خاطرها وهدأ روعها ؛ ولكنه لم يأخذ من الهدايا الكثيرة التي قدمت إليه سوى زمردة كبيرة ، كان القيصر قد تلقاها من قبل هدية من سيف الدولة ابن هود ؛ ويقص علينا الأسقف رودريك الطليطلي صاحب التاريخ ، أنه رأى هذه الزمردة بعد ذلك بمائة عام في كنيسة سان دني في باريس .

ولما عاد الملك لويس إلى مملكته ، اضطرم النزاع بين نافارا وأراجون ، واضطر القيصر أن يتدخل فيه بالسيف ، وأن يرغم صهره وزوج ابنته سانشو على الإذعان والتسليم . ثم اختتم القيصر بعد ذلك حياته الحافلة في غزوة قام بها ضد أعداء النصرانية . وقد ذكرنا فيما تقدم أن القيصر حاول مع تابعه ابن مردنيش أمير بلنسية أن يستنقذ ألمرية من يد الموحدين ، وكانوا يحاصرونها يومئذ ، وأن يردهم عن غرناطة ، آخر معقل للمرابطين ، وأن جهوده ذهبت عبثاً ، فسقطت ألمرية ، وسحقت بقايا المرابطين ، واستولى الموحدون على معقل غرناطة الشهير ، وأن القيصر الذي هدمته الشيخوخة والإعياء ، اضطر أن يعود إلى وطنه صفر اليدين ، وأنه توفي أثناء عوده في مضيق مورادال على حدود الأندلس وولاية طليطلة ، متأثراً فيما يظهر بحزنه لما أصابه من الفشل ؛ وكانت وفاته في ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ ، وهو في الثالثة والخمسين ، بعد أن حكم جليقية سبعة وأربعين عاماً ،

وليون وقشتالة زهاء أربعين عاماً ؛ بيد أنه لم يحكم جميع اسبانيا النصرانية بوصفه قيصراً لها سوى اثنتين وعشرين عاما .

والفونسو السابع (أو الثامن إذا اعتبرنا الفونسو المحارب ملكا لقشتالة) هو خاتمة الأمراء الذين تلقبوا بلقب قيصر اسبانيا ؛ وهو أول الحكام الذين ينتمون إلى الأسرة البرجونية ، والذين لبثوا على عرش قشتالة حتى القرن الخامس عشر ؛ وقد امتاز حكمه بالحكمة والعدالة والقوة ، واستطاع بالرغم من تمرد الأشراف الاسبان ، الذين كانوا ينقمون كل حد من سلطانهم المرهق ، أن يحافظ بعزم على حقوقه فى السيادة ، وأن يقمع بقوة وسرعة كل الحركات الثورية ، التى كانت دائمة الوقوع فى عهد أمه أوراكا ؛ وكما أنه كان يشتد فى معاقبة الخارجين وإرهابهم ، ويرفع بذلك من هيبته القيصرية ، فكذلك كان يقدر الشجاعة والخلال الحسنة قدرها ، ويثيب أهلها ويرفعهم ، ويحيط نفسه بذلك بسياج من التأييد والحب . وكان وقت السلم يعنى بتنظيم الدولة ، ويطوف بالمملكة ليقف بنفسه على حسن تنفيذ أوامره ؛ وكان يشتد فى العقاب لكى يعاقب قليلا ، وكان يسمح لأقل رعاياه أن يرفع مظلمته إليه مباشرة ؛ وكان فى الوقت نفسه ، مثلا كاملا للفروسية الحقة ، تقيا ، ونصيراً جواداً للكنائس والأديار ؛ وفى الحرب ، شجاعا فطنا ، لا يعنى كثيراً بشخصه ، وعدوا شديد الوطأة على أعداء الدين ، ما دام يخوض الحرب معهم ، يروعهم اسمه ويرهبهم ؛ بيد أنه كان إزاء المغلوبين شهما ، بل كان صديقا حقا لمن كان يلتمس حمايته من المسلمين ، ولم يكن فى تقلبه من محالفة إلى أخرى ، سواء بالنسبة للدول النصرانية أو الاسلامية المجاورة ، يتحرى غير مصلحة قشتالة ؛ وقد كان يضحى فى تقلبه من وسيط أحيانا ، إلى حليف ، أو إلى عدو صريح ، بما تفرضه المبادئ والخلال الحسنة ، فى سبيل إعلاء وطنه ؛ وقد سقط فى ذلك إلى نفس المنحدر ، الذى انحدر إليه أعظم الأمراء الذين يرون فى الفتوح أعظم واجبات الحاكم ، وتحطمت فيه البقية الباقية من مجدهم الحق ؛ ومن الأسف ألا تتلقى عن أمير عظيم مثل الفونسو ريمونديز سوى روايات ناقصة ،

فلم يصلنا من سيرته التى كتبها باللاتينية قس مجهول سوى نبـذ يسيرة ، وهى لا تحتوى إلا على العصر الذى بدأ فيـه حكم قشتالة بعـد وفاة أمه حتى بدء حصار ألمرية ، وبذلك ينقصها تاريخ عشرة الأعوام الأخيرة من حياته ، وهى فترة لا نجد عنها سوى فقرات قليلة فى كتب الحوليات ، تتعلق بالسنين والأسماء والأماكن ، بل إنا لا نجد فى التواريخ الكبيرة التى تركها لوقا التطيلى ، وردريك الطليطلى من ذلك سوى اليسير الذى تنقصه الدقة والتحقيق .

الفصل الرابع

قيام مملكة البرتغال

١ — أقدم الروايات عن البرتغال

كانوا يفرقون فى العصر القديم ، منـذ عهد القرطاجنيين والرومان بين الاسبانيين ، وبين أهل لوزيتانيا ، وهم سكان غربى شبه الجزيرة البرينية فيما بين مصب نهر أناس (وادى يانه) ومصب نهر دورو (دويره) . وكان ڤرياتوس ، الذى قاوم سيادة الرومان بمنتهى البسالة ، ولم يسقط إلا بخيانة مواطنيه من أهل لوزيتانيا . ولما استطاع الرومان ، بعد ثورة نومانسيا[1] ، أن يوطدوا دعائم سلطانهم فى اسبانيا ، وأضحى اسمهم بذلك مروعا بغيضا ، قسموا شبه الجزيرة إلى قسمين ، أولها يشمل الشمال الشرق ويسمى « اسبانيا الطرّكونية » Hispania Tarraconesis ، والآخر وهو الجنوب الغربى ، يسمى اسبانيا السفلى Hispania ulteiar ، ويشمل ولايتى لوزيتانيا وبيتكا (ولاية الأندلس فيما بعد) . ولما هاجرت القبائل الجرمانية إلى شـبه الجزيرة ، نزل الشوابيون والوندال والآلان فى لوزيتانيا ، واستقر الشوابيون على ضفاف نهر دويره ، والآلان على ضفاف التاجه ، والوندال على ضفاف وادى يانه . ولما تم ظفر القوط ، بقيادة ملـكهم ڤاليا ، بعد حروب عنيفة ، ارتد المغلوبون إلى ما وراء التاجه ، واحتل الوندال الشقة الواقعة فيما بين قلمرية وبراجا على ضفتى دويرة السفلى ، ولجأ الشوابيون إلى جبال جليقية . ولـما قاد جيزريش

(١) مكان فى قشتالة القديمة كان مدى أعوام مركز مقاومة عنيفة من جانب الأسبان للرومان فيما بين سنتى ١٥٤ و١٣٣ . ق م .

ملك الوندال قومه إلى إفريقية فى النصف الأول من القرن الخامس ، واضمحل سلطان الرومان فى اسبانيا بالرغم من مؤازرة القوط ، استطاع الشوابيون أن يبسطوا حكمهم على لوزيتانيا كلها ؛ وانزعج ملوك القوط ، سادة مملكة تولوشه لهذه الفتوح وحاولوا وقفها ، ولم يفلحوا فى ذلك إلا فى النصف الثانى من القرن الخامس ، حينما استطاع القوط وحلفاؤهم البرجونيون أن يوقعوا بالشوابيين على مقربة من أسترقة هزيمة شنيمة (سنة ٤٥٦ م) ، وأن يحتلوا لوزيتانيا وعاصمتها ماردة ، واعتصم الشوابيون بعد تضعضعهم فى جبال جليقية . ولما انهار سلطان الدولة الرومانية الغربية ، استولى القوط على اسبانيا كلها ، وكذلك لوزيتانيا حتى مصب دويره ، وتركوا قسمها الشمالى للشوابيين ، واستقر الشوابيون فى هذا القسم حتى ضمت مملكتهم إلى مملكة القوط فى أواخر القرن السادس من الميلاد . بيد أن لوزيتانيا لبثت وحدها تكوّن إقليما من الأقاليم الستة التى قسمت إليها المملكة القوطية ، ويعرف باسم عاصمتها ماردة ، حتى الفتح الإسلامى . وبعد الفتح كانت ماردة مقرا للوالى أو الحاكم المسلم ؛ وبذل ولاة ماردة ، فى عهد الدولة الأموية جهودا عديدة للاستقلال بحكم الولاية ، ولكنها لم تسفر عن النجاح . وفى تلك الأثناء استطاع ملوك النصارى الذين يبسطون حكمهم فى أشتورية وجليقية وليون أن يفتتحوا مايجاورهم من الأراضى حتى نهر دويره ، وأن يدفعوا غزواتهم حتى نهر التاجه ، وتداول المسلمون والنصارى أثناء هذه الغزوات مدن قلمرية وأشبونة وشنترة مراراوتكرارا

ولما انهارت الدولة الأموية فى قرطبة واستحالت إلى ولايات وإمارات عدة ، قامت فى جنوبى لوزيتانيا ، التى كانت لا تزال بيد المسلمين ، ويطلق عليها إسم « الغرب » (أى غربى الأندلس) ، دولة بنى الأفطس ، ونقلوا قاعدة حكومتهم إلى بطليوس ، وبسطوا حكمهم على منطقة وادى يانة ، وكذلك على جزء من منطقة مصب التاجه مشتملة على ثغر أشبونة (لشبونة) . أما أراضى لوزيتانيا الواقعة بين نهرى دويرة ومنديجو وإلى ما بعد قلمرية ، فكان الملك فرديناند قد انتزعها من المسلمين ، وجعلها ولاية مستقلة باسم البرتغال (بالاشتقاق من اسم ،

بورتو كالى Porto Calle وهى الثغر الواقع عند مصب دويرة) يحكمها حاكم يعرف بالقنصل أو القومس أو الأمير ، وانتدب لحكمها الكونت زيزناندوس ؛ ثم ضمت بعد ذلك قبل وفاة فرديناند بقليل إلى مملكة جليقية ، التى تركها فرديناند إلى أصغر أولاده جارسيا (سنة ١٠٦٥م) ، مقرونة بالسيادة على بنى الأفطس أصحاب ولاية الغرب أو جنوبى البرتغال ، الذين أرغموا على أداء الجزية .

وكان البرتغاليون الذين سموا عندئذ « بالبرتغالزيين » يتوقون إلى الاستقلال عن جليقية ؛ ومن ثم فقد ثاروا على الملك جارسيا بقيادة زعيمهم الكونت نونيو ، الذى كان والده منندوس دوقاً لجليقية ؛ بيد أنهم أخطأوا تقدير قواهم ؛ ولما اشتبكوا فى ميدان الحرب مع جيش جليقية الذى كان يفوقهم عدداً ، قتل زعيمهم نونيو ، وقتل معه كثير من البرتغاليين ؛ وسرعان ما خضعت الولاية الثائرة عقب هذه الهزيمة التى وقعت فى ١٤ يناير سنة ١٠٧١ م فى موضع يسمى « برتاليني » بين براجا ونهر كافادو .

ولم يمض قليل على ذلك حتى تعاقب الأمراء على حكم جليقية والبرتغال مسرعين ؛ ذلك أن جارسيا ، وكذلك أخوه ألفونسو ملك ليون ، أخرجهما أخوهما الأكبر سانشو ملك قشتالة من المملكة ، وبسط سيادته على مملكتى أخويه ، ولكن موته عند حصار سمورة فى سنة ١٠٧٢ م ، مهد السبيل لعود أخويه إلى المملكة ؛ ولم يكتف ألفونسو بالاستيلاء على ليون وقشتالة ، ولكنه استطاع بالغدر أن يستولى على مملكة أخيه ، وأن ينتزع منه جليقية والبرتغال دون صعوبة ؛ وعهد بالدفاع عن البرتغال — التى لم تكن تضم يومئذ سوى أماكن قليلة على ضفة منديجو اليسرى ولم تكن تصل حدودها إلى التاجة — إلى كونت من أسرة الدوق منندوس التى حكمت جليقية والبرتغال فى أوائل القرن الحادى عشر .

ولما افتتح ألفونسو السادس طليطلة ، التى بلغ بافتتاحها ذروة مجده الحربى ، وبدا الخطر الذى أثاره المرابطون بفتوحهم فى اسبانيا شديداً على سيادة النصارى فى شبه الجزيرة ، عبر البرنيه من جنوبى فرنسا كثير من الفرسان والقوامس

(الكونتات) لإغاثة إخوانهم فى الدين ؛ وكان من بين هؤلاء الكونت رعوند والكونت هنرى البرجونيان اللذان أسديا إلى ألفونسو فى حروبه مع المسلمين أجل الخدمات ؛ وكان كلاهما ينتمى إلى فرع من فروع آل كابيه ملوك فرنسا ؛ ومن ثم فقد رآهما الملك جديرين بأن يضمهما إلى أسرته وأن يثيبهما بذلك عن خدماتهما ؛ فزوج رعوند بن جيوم كونت برجونيا العليا (ولاية فرانش كونتيه الحالية) بابنته أوراكا ؛ ولما كان قد ظهر بالأخص فى محاربة المسلمين فى البرتغال، وانتزع منهم فى سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦هـ) شنترين وأشبونة وشنترة، فقد عينه حاكما لهذه الولاية، وجعل حاكمها السابق سواريو مننديز خاضعاً لأوامره.

٢ — ولاية البرتغال فى عهد هنرى البرجونى

ولم يبق رعوند طويلا فى البرتغال، فقد ندب لحكم مملكة جليقية ؛ وخلفه فى أواخر سنة ١٠٩٤ م فى ولاية البرتغال قريبه هنرى وهو كونت برجونى من بيزانصون، وحفيد لروبير أمير برجونيه السفلى ؛ وكان ألفونسو السادس قد زوجه بابنته غير الشرعية تيريزا ابنة خليلته كينا نونيز، وهى فيما يرجح ابنة نونيو مننديز، الذى ثار فى البرتغال ضد الملك جارسيا، وقتل فى موقعة برتاليني، وكانت أسرته أعظم الأسر البرتغالية وجاهة وعدداً.

وهكذا أقطع الكونت هنرى، الذى كان يلقب أيضاً بالدوق بوصفه قائد الجيش ضد المسلمين، إمارة البرتغال، أعنى المنطقة الواقعة بين أسفل التاجه ونهر منهو، لا باعتبارها إمارة مستقلة، ولكن باعتبارها خاضعة لمملكة قشتالة تؤدى الجزية إليها، ويتوارثها عقبه. بيد أن زوج هنرى، كانت لنسبتها الملكية تتلقب بالملكة ؛ وكان هذا اللقب يسبغ على أخوات ملك قشتالة وبناته ؛ واتخذت قلمرية حاضرة للإمارة ؛ ومن ثم فقد جرى المسلمون على تسمية أمير البرتغال « بصاحب قُلُمرية » Coïmbra وجعل مقر المطران فى مدينة براجا عاصمة جليقية القديمة ؛ وجعلت كل من بورتو ولاميجو وبازو وقلمرية مركزا لأسقفية. وعكف هنرى

على حماية حدود ولايته الجنوبيــة من غارات المرابطين بعزم وقوة ؛ ولـكنه لم يستطع أن يحتفظ بأشبونة وشنترين ؛ أما شنترة فقد فقدها حيناً ثم استردها (سنة ١١٠٩ م) . وكان من المتعذر على النصارى أن يحتفظوا بهذه المدن نظراً لأن كثرة سكانهــا الغالبة كانت من المسـلمين ، ولأنهم كانوا يؤلفون بذلك كتلة عظيمة .

وأقر ألفونسو السادس فى وصيته إمارة هنرى على البرتغال ، وأقر وراثة عقبه لها ، بيد أنه ليس من المحقق ما إذا كانت هذه الولاية قد اعتبرت مستقلة عن قشتالة أم تابعــة لها ؛ والمرجح أن ألفونـسو السادس لم يعرض فى وصيته بوضوح إلى هــذه المـسألة . واشترك هنرى بقسط وافر فى النزاع الذى قام بين الملـكين الزوجين ألفونسو الأرجونى وزوجه الملـكة أورا كا ؛ ولما لم يكن يخشى شيئاً على استقلال إمارته من أراجون ، وكان بالعكس يخشى على هذا الاستقلال من قشتالة وجليقية ، فقــد انضم حين نشوب الحرب بين ألفونسو وزوجه أورا كا إلى ألفونسو ، وعاونه فى موقعة كامبو دى سبينا (٢٦ أكتوبر سنة ١١١٠ م) على هزيمة الـكونت جومز القشتالى ، وافتتاح عدة حصون فى قشتالة وليون . بيــد أنه لما ساءت حال الملـكة أورا كا ولاح أنها هالـكة ، وحاصرها زوجها فى أسترقة ، رأى هنرى من الحـكمة أن يعضد الحزب الأضعف بعونه ؛ وبذا أنقذت ملـكة قشتالة ، واضطر ألفونسو الأرجونى أن يعود إلى مملـكته . ومن المحقق أن أورا كا لم تحصل على معاونة البرتغال دون تضحيات ذات شأن ، بيد أن الروايات الموجزة التى انتهت إلينا لا تشير إلى موضوعها بشىء ؛ والمرجح أن أورا كا ، إذا صدقنا بعض الوثائق القــديمة ، وهبت البرتغال نظير عونها ، فضلا عن مدينة توى والأرض الواقعة على ضفة نهر منهو اليمنى ، سمورة وتورو وغيرهما من المدن الواقعة على نهر دىرو ، وكذلك ولاية استرامادوره بأسرها .

٣ — البرتغال تحت حكم الدونا تيريزا

وكان من سوء طالع البرتغال أن توفى الكونت هنرى عقب إنقاذ استرقة مباشرة ، وذلك فى أول مايو سنة ١١١٢م ، ولم يترك سوى طفل فى نحو الثالثة من عمره يدعى ألفونسو ، فتولت أمه الدونا تيريزا الحكم بالوصاية عليه ؛ ولم يك ينقص هذه المرأة البارعة فى الحسن ، خلال الرجال اللازمة للقبض على زمام الحكم ، من الذكاء والعزم والإقدام حين الخطر ، بل وشجاعة الرجال فى ميدان الحرب ؛ ولكن شغفها بالسلطان وأهواءها المضطرمة كانت تخمد فى نفسها كل عاطفة أموية ، فكانت نزولا على هذه الأهواء تعمل لانتزاع السلطة من يد ولدها ؛ وقد عملت للدفاع عن استقلال البرتغال سواء فى الحرب أو السلم ضد أطماع أختها لأبيها (أوراكا) التى غزت البرتغال غير مرة ، وأطماع ولدها ألفونسو السابع (ريمونديز) واستطاعت أن تحافظ على حدود البرتغال الجنوبية ضد المسلمين؛ بالرغم من أن المرابطين اقتحموها مرة بعد أخرى ، ومن أن مدينة قلمرية عاصمة البرتغال يومئذ كادت تسقط فى أيديهم بعد حصار طويل (سنة ١١٢١م — ٥١٥ هـ) ، وكذلك بالرغم من محاولة أختها أوراكا محالفة المرابطين على إهلاكها . أما كون تيريزا كانت تسير فى حياتها مثلما كانت أختها ملكة قشتالة على نمط لا يليق بكرامة أميرة ، فليس من التحامل فى شىء ؛ إذ تؤيده بعض الروايات القديمة ؛ ومن المحقق أنها تزوجت الكونت فرديناند الجليقى ولد الكونت بيدرو فرويلاز صاحب ترافا ، وأخا عشيقها السابق برمودو وشاطرته الحكم ، وأنها حاولت حتى بعد أن بلغ ولدها ألفونسو هنريكيز الرشد أن تحتفظ بالسلطة ، وأن تنتزعها من ولدها لتقدمها إلى زوجها .

وكان ألفونسو هنريكيز منذ بلغ الرابعة عشرة من عمره (سنة ١١٢٤) قد اتشح بثوب الفروسة وفق تقاليد العصر ، وأجازه لذلك الملك ألفونسو ريمونديز ، وفى سنة ١١٢٧م التقى ألفونسو ريمونديز عقب وفاة أمه أوراكا بقليل بالملكة تيريزا وزوجها الكونت فرديناند فى مدينة سمّورة ، وتباحث معهما فى تسوية

الأمور المعلقة بينهما ، وعقد معهما السلم إلى حين بشروط لانعرفها .

وكان الأمير الفتى ألفونسو هنريكيز يبدى كل يوم من صفات الفروسة ، ومن الذكاء والفطنة ، مايؤهله لأن يتولى بنفسه شؤون الحكم ، وكان الشعب يحبه لفصاحته ورقة خلاله وجمال طلعته ؛ وكانت تقواه وتوقيره لرجال الدين مما زين فروسته ، ويكسبه تعضيد رجال الدين ؛ ولم يلبث أن دبرت لتأييده مؤامرة اشترك فيها معظم الأشراف والأحبار ، وكان نصيبها التوفيق ؛ ونزل الولد فى جنده ميدان الحرب ضد أمه ، ونشبت بينهما موقعة دموية فى سنت ماميتى على مقربة من جويمرانس ، هزمت فيها الأم وأسرت ، وألقيت فى السجن أعواما تكفر عن زلاتها ، ونفى زوجها فى السر الكونت فرديناند من المملكة ، ونفى معه كثير من أنصاره ؛ وحاول أخوه الكونت برموندو صهر الملكة وزوج ابنتها ، أن يعمل لرد الملكة إلى سلطانها ، ولكنه أخفق تمام الإخفاق ، ونفى مثل أخيه ، وتولى ألفونسو هنريكيز الحكم فى سنة ١١٢٨ م ، وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، مستقلا ، دون أن يعترف بسيادة قشتالة .

٤ — ألفونسو هنريكيز أمير البرتغال

وما كاد ألفونسو هنريكيز يقبض على زمام الحكم حتى اضطرمت بين البرتغال وقشتالة حرب دامت بضعة أعوام ؛ ذلك أن ألفونسو ريمونديز كان يعتبر البرتغال إقليما من أقاليم مملكته ، أو على الأكثر ولاية وراثية فى أسرة الكونت هنرى ، فلما أبى ألفونسو هنريكيز أن يقدم إليه طاعته وأن يقسم يمين الخضوع له ، أعلن أنه خارج عليه ، ثم غزا البرتغال بحجة العمل على إنقاذ عمته تيريزا ، ومعاقبة الخارج على سيادته . وليس فى وسعنا أن نتتبع حوادث هذه الحرب نظراً لضآلة التفاصيل المتعلقة بها ، ولكنا من جهة أخرى نعرف نتائجها . ذلك أن الملكة تيريزا توفيت فى سنة ١١٣٠ م ، واجتمعت بذلك كلمة جميع الأحزاب حول ألفونسو هنريكيز ؛ ومع أن ملك قشتالة استطاع فى البداية أن يتقدم فى البرتغال ،

فأن ما حدث عندئذ من نشوب الخلاف بينـه وبين ملك أراجون ، وحدوث القلاقل فى قشتالة ، وغارات المسلمين على أراضيه ، حملته على الارتداد ؛ وعهد إلى مطران كومبوستل وأشراف جليقيـة بمتابعة الحرب ، ولكنها سارت عندئذ ببطء ؛ وليس بعيدا أن يكون أشراف جليقية ، الذين كانوا يفكرون عندئذ فى الخروج على ملك قشتالة ، قد تعمدوا معاونة العدو الذى عهد إليهم بمحاربته ؛ وهذا ما يوضح لنا ما كان يعمد إليه ألفونسو هنريكيز فى غاراته على جليقيـة من التفريق بين الخصوم والأصدقاء ؛ وكان من خصومه بالطبع الكونت فرديناند بيريز وأسرته ، وكان يقيم فى جليقية منذ نفيه من البرتغال .

ولما رأى ملك قشتالة ضآلة النجاح الذى أحرزه جيشه ، وانشغاله بغارات المسلمين ، ثم تفاقم شؤون أراجون ، وما حملته إياه من التفكير فى ترك جميع الأراضى الواقعة فى مملكته بين نهر الايبرو وجبال البرنيه ، اضطر أن يعقد مع البرتغال الهدنة لبضعة أعوام ؛ وكان البرتغاليون أثنـاء ذلك قد عبروا نهر منهو وافتتحوا منطقة لميا ، وأقاموا فيها قلعة منيعة ، فردهم القشتاليون ثانية إلى ما وراء النهر ، وهدموا القلعة ، وأسروا حاميتها .

ولما توج ملك قشتالة فى ليون ، فى سنة ١١٣٥م ، قيصرا لاسبانيا ، وأعلن تبعية جميع أمراء اسبانيا إليه ، أبدت البرتغال منـذ البداية معارضتها لهذا الادعاء ؛ وسرعان ما حطم جارسيا الرابع ملك نافار هـذا النير الذى تدعيه قشتالة ، وعقد حلفا مع البرتغال ، وشهرا الحرب معا على القيصر (سـنة ١١٣٦) ؛ وبينما سار القيصر بنفسه لمحاربة الملك جارسيا ، إذ زحف البرتغاليون على جليقية ، وافتتحوا مدينة توى وعدة مواضع أخرى ، وعاونهم الكونت جومز نونيز والكونت رودريك بيريز الثائران على القيصر ، معاونة قوية ، وأقسما يمين الطاعة لأمير البرتغال ؛ وتولى الدوق فرديناند ابانز صاحب لميا الدفاع عن جليقية ، واستطاع أن يقف تقدم البرتغاليين ؛ ثم وردت الأمداد إلى البرتغاليين ، واجتمع فى الوقت نفسه تحت راية الكونت فرديناند بيريز والكونت رودريك فيلى جميع الذين بقوا على

إخلاصهم للقيصر من أهل جليقية ، والتقى الفريقان المتحاربان فى موضع يسمى « سرنيزا » ومع أن الجليقيين قاتلوا بمنتهى الشجاعة ، وضرب قادتهم أروع الأمثال فى الجرأة والبسالة ، فقد بدا أيضا فى هذه الموقعة أن مصاير القتال تتوقف قبل كل شىء على براعة القادة ، وليس على كثرة العدد ، ولا على شجاعة المحاربين العمياء . ومن ثم فقد أحرز الفونسو هنريكيز على خصومه نصرا باهرا ، بيد أنه لم يستطع أن يجنى ثمرة نصره ، إذ وصلته الأنباء بأن المسلمين افتتحوا مدينة « ليرينى » وقتلوا قسما من حاميتها وعاثوا فى مناطق الحدود ؛ فارتد مسرعا إلى قلمرية ليعمل على رد أعداء النصرانية عن حدوده ، ولكن المسلمين كانوا قد ارتدوا عندئذ إلى أراضيهم حرصا على غنائمهم ، واستطاع الفونسو هنريكيز أن يعود ثانية إلى جليقية ؛ على أن مصاير الحرب كانت قد تغيرت عندئذ . ذلك أن فرديناند ابانز صاحب ليميا استطاع فى هذه الأثناء أن يجمع فلول الجيش القيصرى ، وأن يدفع البرتغاليين عن كل شبر من الأرض ، وكان أمير البرتغال يقاتل بشجاعة على رأس جنده فجرح فى إحدى الوقائع ، واقتضى لعلاجه وبرئه بعض الوقت قبل أن يستطيع العود إلى ميدان الحرب .

وفى تلك الأثناء كان القيصر ، قد رد ملك نافارا إلى جباله الوعرة وقلاعه المنيعة ؛ وبعد أن ترك قوة احتياطية على حدود نافارا لمراقبتها ، سار فى قواته من ليون إلى البرتغال ، واستولى على عدة قلاع ، وعاث فى بسائطها ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكيز تفوق العدو عليه فى العدد ، تذرع بالفطنة وحرص على أن يجتنب الاشتباك معه فى أية موقعة فاصلة ، وأن يعمد إلى إنهاك الليونيين ، وحملهم على القيام بحملات طائشة ؛ ونجحت الفكرة أيما نجاح ؛ فقد سار الكونت ردمير ، فى قوته بجرأة ، وما كاد يبتعد عن الجيش القيصرى ، حتى طوقه البرتغاليون فجأة ، وهزموه ، وأسروه ؛ واعتبر القيصر بهذا الدرس ، فأصدر أوامره الصارمة بمنع الوحدات المختلفة من الابتعاد عن الجيش العام ، وأقام معسكراً محصناً على تل « بورتيلا دى فيسى » ، وأقام البرتغاليون معسكرهم فى الجهة

المقابلة على تل أكثر ارتفاعاً تحميه قلعة « بنيادى رجينا » ؛ وفرق بين المعسكرين واد شاسع ؛ وأخذ الفرسان والجند من الفريقين ، يتبارون فى القتال أزواجا فى هذا الفضاء ، ويعرض كل ما لديه من الجرأة والشجاعة بمرأى من الجيشين المتحاربين .

ولكن عقم هذه المبارزات التى هلك فيها كثير من الفرسان من الفريقين ، وحصانة المعسكرين مما يعرض الفريق المهاجم إلى الهلاك ، والخوف من أن طول الحرب يمكن المسلمين من القيام بغارات ناجحة فى أراضى قشتالة والبرتغال ، كل هذه حملت الفريقين على التفكير فى تسوية الخلاف بالحسنى . ونزل ألفونسو هنريكيز على نصح قادته ، فأرسل رسله إلى القيصر بطلب الصلح ، فاستقبلهم القيصر بترحاب ، واتفق الطرفان فى الحال على التهادن حتى يعقد الصلح . وفى رواية برتغالية قديمة ، أن ألفونسو هنريكيز استطاع أن يحصر القيصر فى « ڤالديڤيز » ، وأن يوحنا مطران براجا هو الذى توسط فى عقد الصلح . وترك تنظيم السلم إلى الاشراف من الفريقين ؛ واتفق قبل كل شيء وحتى بعقد التفاهم ، على تبادل الأسرى من الجانبين ، وعلى إعادة الحدود بين البلدين كما كانت فى آخر عام من حكم الملكة تيريزا ، ولم يتفق على شيء بالنسبة للنقطة الجوهرية التى أثارت النزاع ، وهى مسألة سيادة قشتالة على البرتغال ؛ فبقى ألفونسو هنريكيز أميراً (كونتاً) للبرتغال ، ولكنه ألزم بتسليم الزعيمين الثائرين اللذين أثارا الحرب وهما الكونت رودريك بيريز والكونت جومز نونيز ؛ وفر الأخير وعبر البرنيه إلى فرنسا ، والتحق راهباً بدير « كلونى » ؛ وأما الأول فقد التجأ إلى رحمة القيصر فعفا عنه . وأقسم الأشراف من الفريقين على مراعاة شروط الصلح . ثم اجتمع القيصر ألفونسو ريمونديز ، وألفونسو هنريكيز معا فى خيمة واحدة ، وقبل كل منهما الآخر ، وأكلا وشربا معاً ؛ ثم عاد كل منهما إلى عاصمته فى أمن وسلام . وهكذا انتهت الحرب بين قشتالة والبرتغال ، وذلك فى سنة ١١٣٨ م .

٥ — ألفونسو هنريكيز أول ملك للبرتغال

لما اطمأن ألفونسو هنريكيز[١] بعقد الصلح على حدود إمارته من ناحية المملكة النصرانية ، أخذ فى الأهبة لمحاربة المسلمين ، أولا لينتقم منهم لما أوقعوه من الغارات والعيث فى أراضى البرتغال ، وثانياً لكى ينتزع منهم بعض الأراضى ويوسع بذلك حدود الإمارة ؛ فيقوى بذلك دعواه فى الاستقلال بالاستناد إلى أنه افتتح معظم أراضيه من يد أعدائه المسلمين . ثم خرج فى جيش من صفوة الجند البرتغاليين لا يجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل ، وسار إلى ضفاف التاجه فى أراضى والى الغرب (غربى الأندلس) وذلك فى أوائل سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) ؛ فلما علم المسلمون بمقدم البرتغاليين جمع ولاة بطليوس ، ويابره ، وباجه ، وإشبيلية جيشاً عظيما أسندت قيادته إلى الوالى أسمر (ولعله إسماعيل) ، والتقى الفريقان فى مكان يسمى «أوريك» (واسمه الآن كابيزا دى رايس) على ضفة التاجه اليسرى ؛ وعلى مقربة من ملتقى نهر كوريس بنهر ترجيس ؛ وتقول بعض الروايات المتأخرة المغرقة إن عدد المسلمين كان زهاء أربعمائة ألف مقاتل ؛ على أنه يبدو من سرعة التعبئة والحركة أنه كان من المستحيل على المسلمين أن يحشدوا مثل هذا العدد . أما أقدم الروايات النصرانية التى تتحدث عن حملة الكونت ألفونسو (ولا توجد عن ذلك روايات عربية معروفة) فلا تذكر شيئاً عن عدد البرتغاليين والمسلمين ؛ وكل ما تقوله الروايات البرتغالية بإيجاز هو ما يأتى : فى ٢٥ يوليه ، يوم الاحتفال بمولد القديس ياقب دى آرا ، عام ١١٣٩ ، وهو العام الحادى عشر من حكم ألفونسو ، اشتبك هـذا الأمير فى معركة عظيمة مع ملك المسلمين (والروايات النصرانية تنعت الولاة بالملوك) واسمه أسمر ، فى موضع يسمى « أوريك » ؛ وكان

---

(١) سبق أن أشرنا إلى أن الرواية العربية تعرف ألفونسو هنريكيز « بابن الريق » ، وأن كلمة الريق هذه إنما هى تحريف لاسم هنريكيز أو انريكو أى هنرى وهو اسم أبيه ، ثم هى تعرفه بأنه صاحب قلمرية ، أعنى صاحب البرتغال ، لأن قلمرية كانت يومئذ عاصمة البرتغال (راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٠) .

فى جيش المسلمين كثير من النساء يرتدين ثياب الرجال ، ويقاتلن على طريقة الفرسان ، واكتشف النصارى ذلك بعد الموقعة حينما وجدوا كثيراً منهن بين القتلى ؛ وكان النصر فى جانب ألفونسو ؛ ولم ينقذ قائد المسلمين أسمر سوى الفرار ، ولكن أميراً مرابطيا هو ابن أخى سلطان المرابطين على ، ويدعى عمر الطاجور[1] كان بين الأسرى .

ولا تذكر الروايات الاسبانية شيئاً عن هذه الموقعة : وحتى رودريك الطليطلى ، ولوقا التطيلى ، يتحدث كل منهما فى روايته الضافية بعبارات عامة عن حروب أمير البرتغال ضد المسلمين ؛ وقد وجدت فى سنة ١٥٩٦ ، فى « الكوبازا » وثيقة مختومة تتحدث عن هذه الموقعة باسهاب ؛ بيد أن صحة هذه الوثيقة أمر مشكوك فيه جدا ، وبفرض صحتها ، فان ما ورد فيها من الوقائع لا دليل على صحته ؛ وتقدم هذه الوثيقة التى قيل إنها وضعت فى سنة ١١٥٢ بأمر ألفونسو هنريكيز تذكاراً لموقعة « أوريك » ، عن هذه الموقعة تفاصيل مسهبة ، ولكن مدهشة ، لا يوجد ما يؤيدها . وخلاصة ما تقصه علينا ، أن البرتغاليين اشتبكوا فى مروج « أوريك » مع إسماعيل وأربعة أخر من ملوك المغاربة وجيشهم الذى لا يحصى ؛ فخبت شجاعتهم ويئسوا من النصر ، ولم يفكروا إلا فى إنقاذ أنفسهم بالفرار ؛ ولكن المسيح نفسه ظهر بالليل مصلوباً ، للكونت ألفونسو هنريكيز ، وأمره أن يتذرع بالشجاعة فى القتال ، ووعده بالنصر فى تلك المعركة وكل معركة أخرى يخوضها ، كما وعده بأن يضع المملكة التى تقوم على أثر هذه الموقعة تحت حمايته ورحمته ، وأمره بأن يجعل شعارها مكوناً من جروح المسيح الخمسة ، والقطع الفضة الثلاثين التى قبضها يهوذا أجراً لخيانة المسيح .

وتستطرد الروايات اللاحقة ، فتقول إن ألفونسو قص فى اليوم التالى على جيشه نبأ هذه الرؤيا ، فاشتدت عزائم البرتغاليين ، وسرعان ما وضعوا على رأس الأمير تاجاً من الأغصان الخضراء ، ونادوا به ملكا للبرتغال ، وفاضت نفوسهم

(١) لم نجد فى المراجع العربية أى ذكر لهذه الموقعة .

رغبة فى محاربة المسلمين ، وأحرزوا هذا النصر الباهر فى « أوريك » على الأعداء ، ثم أمر الملك ، حسبما تقول الوثيقة المشار إليها ، أن يكون شمار الدروع البرتغالية خمسة دروع صغيرة تمثل جراح المسيح ، توضع فى شكل صليب ، وينقش فى كل منها ثلاثين نقطة من الفضة ويعلو الصليب رمز لثعبان موسى[١] .

وإذا كنا لا نستطيع أن نثق بصحة هذه الوثيقة ، فانه من الثابت مع ذلك أن ألفونسو هنريكيز ، الذى كان يلقب مذ نزعت تيريزا من الحكم بلقب القومس أو الدوق أو الانفانت أو الأمير ، قد تلقب حسبما تدل عليه الوثائق عقب انتصاره فى موقعة « أوريك » بألقاب الملك ؛ معتقداً أن انتصاره على عدد من الأمراء المسلمين يقودون مثل الجيش الزاخر مما يؤهله للملوكية ؛ وبلغ من ثقته عندئذ بقوة الجيش البرتغالى ، الذى أتيحت له مثل هذه الفتوح العظيمة فى أراضى المسلمين ، أن عقد العزم على محاربة القيصر ، إذا أبى أن يعترف به ملكا على البرتغال . والظاهر أيضاً أن المبعوث البابوى الكردينال جيدو الذى كان يومئذ فى اسبانيا قد حث ألفونسو هنريكيز على اتخاذ هذه الخطوة ، ونصح إليه — سعياً إلى توسيع سلطة البابوية الزمنية — أن يعمل على توطيد استقلاله عن قشتالة ، وأن يعلن انضواءه تحت رعاية الكرسى الرسولى ، وأن يدفع إليه جزية رمزية قدرها أربعة أفلاس من الذهب دلالة على خضوعه ، وأن الملك الجديد استمع إلى نصحه ؛ وكان القيصر ألفونسو ريمونديز يومئذ مشغولا بحرب النافاريين والمسلمين ، فلم يرقه اتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ؛ بيد أنه نظراً لأنه لم يكن فى وسعه يومئذ أن يحاول إخضاع الملك الجديد بالسيف ، فقد اكتفى بأن أرسل إلى البابا أنوسان الثانى رسولا يخطره بأنه لا يوافق على اتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ؛ فأرسل البابا إلى اسبانيا سفيراً من قبله ليبحث موضوع النزاع ، ولعله أراد بذلك أن يكسب وقتاً ؛ واقترح السفير على القيصر أن يعترف بالبرتغال كمملكة ، على أن

---

(١) لا تزال هذه الدروع الخمسة المرقومة فى شكل الصليب شعار العلم البرتغالى حتى يومنا .

يعترف ألفونسو هنريكيز مقابل ذلك بخضوعه لسيادة قشتالة كتابع لها . واستغرقت المفاوضات فى هـذا الشأن أعواماً ، كان ملك البرتغال يعمل خلالها على توطيد استقلاله ؛ ولم ينتظر مصادقة على استقلاله من جانب البابا — فقد سمح له فقط بأن يتسمى بالملك — أو من جانب القيصر ، بل وضع بالاتفاق مع شعبه ، ممثلا فى طبقاته الثلاث ، فى المجلس الذى عقد فى لاميجو سنة ١١٤٣ م ، لائحة اتخذت من ذلك الحين أساساً لدستور البرتغـال ، وإليك ما عنى به مجلس لاميجو من الشؤون والقرارات :

٦ — مجلس لاميجو(١)

لـما أبدى البابا تردده فى الاعتراف باستقلال البرتغال عن قشتالة ، واستمر القيصر يهدد البرتغـال بالحرب ، دعا ألفونسو هنريكيز رجال الدين والأشراف ومندوبى المدن إلى عقد اجتماع وطنى فى لاميجو ؛ وعرض فيه المكتوب البابوى الذى يلقب فيه ألفونسو بالملك ، ثم سأل ممثل الملك ، لورنتوس فنيجاس الحضور ، عما إذا كان ألفونسو الذى نودى به ملـكا فى ميدان الحرب فى أوريك ، يبقى ملـكا ؛ ولما أجاب الحضور بالإيجاب ، ووافقوا أيضاً على أن يكون الملك متوارثاً فى أعقابه الذكور ، نهض مطران براجا ، ووضع على رأس ألفونسو تاجاً من الذهب المرصع بالجوهر ؛ ثم نهض الملك الجـديد وسيفه المسلول فى يده ، وصادق على القوانين التى قدمها إليه ممثلو الطبقات للمصادقة ، وعددها ثلاثة ، الأول يتعلق بوراثة العرش ، والثانى يتعلق بالأشراف ، والثالث يتعلق بإقامة العدل .

فأما المسألة الأولى فقد تقرر بشأنهـا ما يأتى : ان وراثة العرش تـكون للأولاد من الذكور ، بالتسلسل من الأب إلى الابن وهكذا ؛ فإذا توفى الولد الأكبر قبل أبيـه ، خلفه فى الوراثة أخوه الذى يليه فى السن ؛ فاذا توفى الملك دون ولد (ولم يكن لهؤلاء عقب) يتولى العرش أخو الملك ؛ ولا تحق الولاية

(١) والمقصود به هنا البرلمان Cortes

لولده من بعــده ، إلا إذا اختاره الشعب بطبقاته الثلاث لولاية العرش ، أما فيما يتعلق بالابنة ، وهل يحق لها أن تحكم ، فقد اختلف الرأى فى البداية ، ثم تقرر فى النهاية بشأنها ما يأتى : إذا توفى الملك دون عقب من الذكور ، وترك ابنة ، فانها تتولى الملك من بعــده ؛ ولـكنها لا تستطيع أن تتخذ لها زوجاً إلا من أشراف البرتغال ؛ ولا يمكن أن يغدو هــذا الزوج ملـكا ، إلا إذا رزق من زواجه عقباً من الذكور ؛ ولا يحق له أن يجلس فى الاجتماعات العامة إلا عن يسار الملـكة ، ولا يحق له أن يضع التاج على رأسه .

وأما المسألة الثانية وهى مسألة الأشراف ، فقد تقرر ما يأتى : ينتمى إلى أرفع طبقة من النبلاء ، كل شخص يجرى فى عروقه الدم الملـكى ؛ وينتمى إلى طبقة الأشراف كل من وفق إلى إنقاذ الملك أو أحد أقاربه المقربين ، أو إلى إنقاذ العلم الوطنى فى ميدان الحرب ؛ وأبنــاء الذين يموتون فى سبيل النصرانية ، فى أسر المسلمين ، وأولئك الذين يقتلون فى الحرب أميراً من الأعداء أو ولداً له ، أو من يغتنم علماً من أعلام الأعداء ، وكل من انتمى من قبل إلى رجال الخاص (البطانة) أو الأشراف ، وكذلك كل من حارب فى موقعة « أوريك » فهو وعقبه يحسبون من الأشراف .

وترفع صفة النبل والشرف عن أى شخص يفر من ميدان الحرب وعن عقبه ، وكل من يضرب أنثى بالسيف أو بالحربة ، وكل من يتخلف فى ميدان الحرب عن إنقاذ الملك أو ولده . أو إنقاذ العلم الوطنى متى أتيح له ذلك ؛ وكل من حلف يميناً كاذبة ، وكل من كتم الحقيقة عن الملك ، وكل من سب الملـكة أو بناتها ، وكل من فر إلى المسلمين ، وكل من ارتـكب جريمة السرقة ، أو سب السيد المسيح ، أو اعتدى على حياة الملك .

وأما فيما يتعلق بإقامة العدل ، فقد اتخذت القرارات الآتية : يجب أن يدين جميع البرتغاليين بالطاعة للملك باعتباره أكبر قاض فى البــلاد ، ولجميع نوابه فى النواحى Alguaziles ، الذين يقيمون العدل وفقاً للقوانين .

ويعاقب على السرقة الأولى والثانية بالتعزير ؛ وفى السرقات الكبرى بالكى بالنار أو بالموت ، وفى الحالة الأخيرة تجب موافقة الملك .

وتعاقب المرأة المتزوجة إذا زنت هى وعشيقها بالحرق ؛ فاذا عفا الزوج عن زوجه ، وجب الافراج أيضاً عن شريكها .

ويعاقب القاتل بالاعدام مهما كان شخصه ، وكذلك يعاقب بالاعدام كل من اغتصب بكراً شريفة ، وتؤول تركته إلى المجنى عليها ؛ فاذا لم تكن المجنى عليها من الأشراف وجب عليهما الزواج .

وإذا اغتصب شخص بالقوة أملاك الغير ، فعلى المعتدى عليه أن يلتجئ إلى قاضى الجهة ، ليقوم بفحص النزاع ورد الشىء المغتصب إلى صاحبه .

ويترك الضرب والجرح إلى تقدير القاضى ، ويعاقب عليهما فى الأصل بغرامة قدرها عشر قطع من الذهب ، مضافاً إليها ما يقدره القاضى .

وكل من اعتدى على أحد من رجال القضاء بالسب أو الضرب ، يعاقب بالكى بالنار أو بغرامة قدرها خمسون قطعة من الذهب ، وبالتعويض المناسب .

ولما انتهت الموافقة على هذه القوانين ، نهض ممثل الملك لورنتيوس فنيجاس وقال : هل ترون أن يذهب الملك إلى بلاط ملك ليون ، أو يؤدى إليه الجزية ، أو يؤديها إلى أحد آخر سوى البابا الذى عينه ملكا ؟ فنهض الجميع وسيوفهم مسلولة ، وقالوا : نحن أحرار ، وملكنا حر ؛ وقد حررنا أنفسنا بأنفسنا ، وإن ملكا يفكر فى مثل ذلك (أى الخضوع للسيادة الأجنبية) ليستحق الموت ، ولو كان قد تولى العرش لما أبقيناه على حكمنا . ثم نهض الملك والتاج على رأسه وسيفه فى يده وقال : إنكم تعلمون كم حرباً خضت فى سبيل حرياتكم ، وإنكم لشهود على ، ولتشهد على هذه اليد وهذا السيف ؛ إن من يفكر فى مثل ذلك (أى الخضوع للسيادة الأجنبية) يستحق الموت ، ولو كان ولدى أو حفيدى ما حق له الحكم ، وعندئذ قال الجميع : لقد أحسنت القول ؛ إن هؤلاء

سيموتون ، ولو تولى مثل هذا الملك لما سمح له بالحكم لأنه فكر فى الخضوع للسيادة الأجنبية ؛ وقال الملك : أجل فليكن هذا .

وهكذا قامت مملكة البرتغال ، واستطاع قومس (كونت) بالوراثة ، وسيد للبلد الصغير الذى يقع من نهرى منهو ومنديجو ، والذى يكاد يقسمه نهر دويره الأدنى إلى قسمين متساويين ، أن ينتهز ظروف عصره ، وأن يجعل نفسه مستقلا عن قشتالة . واعتمد ألفونسو على نصره على المسلمين ، وما أسفر عنه من ضم شقة كبيرة من الأرض إلى إمارته تمتد حتى نهر تاجه ؛ ثم على قوته التى لم تقهرها قوى القيصر ، فاتخذ حين عوده ظافراً من موقعة أوريك ، ألقاب الملك ، وحصل على موافقة البابا على ذلك ؛ ووضع أسس استقلال البرتغال فى عهد عقده مع الشعب البرتغالى ، ممثلا فى طبقاته الثلاث ؛ وهى التى تولت بنفسها التشريع لنظم الحكم والإشراف وإقامة العدل .

تم الجزء الأول

بيان عن المصـــــادر

— ١ —

ذيل المؤلف كتابه بطائفة كبيرة من التعليقات والمصادر ، جمعت معا فى قسم واحد (ص ٣١١ وما بعدها) . ولما كان المؤلف قد وضع كتابه منذ أكثر من مائة عام ، ظهر فى خلالها كثير من المصادر والآثار المتعلقة بتاريخ الأندلس من عربية وأفرنجية ، فقد رأينا أن نستبدل هذه التعليقات بهوامش وتحقيقات جديدة ، نعنى فيها عناية خاصة باستعراض الروايات الإسلامية . على أننا رأينا مع ذلك أن نثبت أهم المصادر التى يعتمد عليها المؤلف ولا سيما المصادر النصرانية التى تجهلها الرواية الإسلامية فى الغالب .

ففى عصر فرديناند الأول وتاريخ اسبانيا النصرانية منذ سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٨٦م ، أعنى إلى افتتاح النصارى لمدينة طليطلة ، يعتمد المؤلف على مصدرين معاصرين هما :

(١) Chronicon Monachi Silensis أى « أخبار رهبان سيلوس » ومطبوع فى سلسلة (Florez : Espana Sagrada T. XVII) ؛ والثانى (٢) Chronicon Pelagii Episcopi Ovetensis أى « أخبار بلاجيوس أسقف أوفيدو » ، ومطبوع فى نفس السلسلة (الجزء الرابع عشر) ؛ وهو حسبما يقول المؤلف مصدر ضعيف يكثر فيه السقط والتحريف .

وطائفة من روايات الأديار مثل أديار كومبستل وبرغش وقلمرية وطليطلة ، وقد جمعت معاً فى نفس السلسلة فى الجزء الثالث والعشرين ؛ وهذه لا تحتوى سوى التواريخ والأسماء . ثم Chronicon Lusitanum ، وهى رواية أكثر تفصيلا ، وقد طبعت فى نفس السلسلة فى الجزء الرابع والعشرين .

وأما المصادر اللاحقة فأهمها رواية لوقا التطيلى المسمى (أخبار العالم) Lucas Tudensis : Chronicon Mundi المطبوع فى فرانكفورت سنة

١٦٠٦ فى سلسلة Hispana illustrata (الجزء الرابع) ؛ ورواية رودريك مطران طليطلة[1] Rodericus Archiepiscopus Toletanus ، ومطبوع فى نفس السلسلة (الجزء الثانى) . وقد كتبت كلتاهما فى أوائل القرن الثالث عشر ؛ وتاريخ اسبانيا العام الذى كتبه الملك ألفونسو العالم Cronica general de Espana . وقد كتب فى أواخر القرن الثالث عشر . وفى هذه المصادر تختلط الأساطير بالتاريخ فى مواطن كثيرة ، ولكن لا يصعب على الباحث المحقق أن يستخرج منها الوقائع الصحيحة ؛ وتاريخ المطران رودريك هو أشهر هذه الآثار النصرانية خصوصا وقد اعتمد فيه على كثير من الآثار الإسلامية المعاصرة والسابقة .

* * *

هذا إلى طائفة من الآثار التاريخية العامة التى كتبت فى عصور متأخرة اسبانية وغيرها مثل تواريخ ماريانا (Mariana) وفيرراس (Ferreras) وماسدى (Masdeu) وأورتس اى سانز (Ortiz y Sanz) ؛ وغيرها وآثار جامعة منوعة أخرى نذكر منها :

Sandoval : Histor. de los Reyes de Castilla y de Leon (Pampl. 1634).

(تاريخ ملوك قشتالة وليون)

Annales de Navarra (Pampl. 1766).

(أخبار ناڤارا)

Zurita : Annales de la Corona de Aragon (Zarag. 1610).

(تاريخ عرش أراجون)

Dom Vissette : Histoire de Languedoc.

(تاريخ لانجدوك)

Von Schmidt : Geschichte Aragoniens (Leipzig 1829).

(تاريخ أراجون)

* * *

(١) وهو مطبوع أيضاً باللاتينية مع الطبعة العربية لتاريخ المسكين بن العميد المطبوع فى ليدن سنة ١٦٢٥ .

أما الأخبار الوافية عن دول اسبانيا المسلمة منذ سقوط الخلافة الأموية حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة أو بعبارة أخرى تاريخ ملوك الطوائف ، فلا توجد إلا فى المصادر العربية ؛ وقد جمع منها كوندى Conde طائفة كبيرة فى كتابه : Hist. de la Domincion de los Arabes en Espana فى الجزءين الثانى والثالث ، واعتمد بالأخص على مؤرخ قرطبى عاش فى القرن الخامس من الهجرة هو ابن بشكوال . وكذلك نقل منها كاردون Cardonne فى كتابه : Hist. de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes ؛ ومورفى Murphy فى كتابه History of the Mahometan Em-pire in Spain ؛ ووردت فى فهرس الغزيرى Casiri عن مكتبة الاسكوريال Bibliotheca Arabico-Hispano Escurialensis ، نبذ وشذور قيمة نقلها عن ابن الخطيب وغيره ؛ واعتمد المؤلف أيضا على تاريخ أبى الفدا (والترجمة اللاتينية) ، وعلى تراجم ابن الأبار القضاعى ، وعلى معجم دربلو (D'Herbelot) ، وعلى تاريخ العرب الذى وضعه رودريك الطليطلى Historia Arabum ؛ وأما عن تاريخ المرابطين والموحدين فأكثر ما يعتمد عليه المؤلف ، كتاب أبى الحسن ابن على بن أبى زرع المسمى روض القرطاس ، الذى نشر بعناية المستشرق Dombay فى أجرام سنة ١٧٩٤ ، ثم نشر بعد ذلك مع ترجمة لاتينية بعناية المستشرق Thornberg فى أوبسالة سنة ١٨٤٣ .

* * *

وفيما يتعلق بالتاريخ الاسبانى من سنة ١٠٨٦ إلى سنة ١١٣٤م ، ولا سيما عصر الملكة أوراكا والفونسو المحارب ينوه المؤلف بمصادر منها : Historia Com-postellana ، الذى كتبه بأمر الأسقف جلميرز (أسقف كومبستل) ثلاثة من القساوسة ، ونشر فى سلسلة Florez:Espana Sagrada التى سبقت الإشارة إليها (الجزء العشرون) ؛ بيد أنه يلاحظ أن هـذا المؤلف يميل بنوع خاص إلى تأييد الملكة أوراكا والحملة على الملك ألفونسو ؛ و Cronicon Alphonso Imper-

atoris (تاريخ القيصر ألفونسو) وهو مطبوع فى نفس السلسلة (الجزء الحادى والعشرون) ، وقد ضاعت بداية هذا التاريخ ، وما بقى منه يبتدئ بموت الملكة أوراكا ؛ وكتاب Memorias de las Reynas Catholicas (تاريخ الملكات الكاثوليكيات) وهو بقلم Florez ومطبوع بمدريد سنة ١٧٧٧ .

أما تاريخ البرتغال القديم فليست له مصادر معاصرة ذات شأن سوى Cronicon Lusitanum الذى أشرنا إليه ، ورواية موجزة جدا هى Cronicon Conimbricens (تاريخ قلمرية) . وفيما يتعلق بالعصور المتأخرة يعتمد المؤلف بنوع خاص على كتاب Monarchia Lusitana (المملكة البرتغالية) الذى كتبه Bernard de Brito حتى سنة ١٠٩٥ وأكمله Antonio Brandao ، وظهر فى المجموعة المسماة Historias de Portugal المطبوعة فى لشبونة سنة ١٨٠٦ (الجزآن الأول والثانى) ؛ وعدة مصادر متأخرة نقلت عنه .

— ٢ —

هذا وقد رجعنا فى وضع الهوامش والتحقيقات التى ذيلنا بها على هذا الكتاب إلى المصادر الآتية :

تاريخ ابن الأثير .

تاريخ أبى الفدا .

وفيات الأعيان لابن خلكان .

صبح الأعشى للقلقشندى .

معجم البلدان لياقوت .

تاريخ ابن خلدون .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس .

نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرى .

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لأبى الحسن بن على بن أبى زرع الفاسى .

قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى .
الحلة السيراء لابن الأبار .
البيان المغرب لابن عذارى المراكشى .
الحلل الموشية لابن الخطيب .
أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى .
(وهى مجموعة رسائل وأخبار عن المهدى ، نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال عن مخطوط بالاسكوريال مقرونة بترجمة فرنسية)
الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى للسلاوى .
نزهة المشتاق للشريف الادريسى
وأيضا ، تاريخ دوزى :
Hist. des Musulmans d'Espagne الطبعة التى أصدرها الأستاذ ليفى بروفنسال (الجزء الثالث) .
وتاريخ كوندى (الترجمة الفرنسية) :
Hist. de la Domination des Arabes en Espagne.

فهـــــرس

للأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية

ومقابلها الأفرنجى

لما كانت الأعلام الجغرافية الأندلسية ، لا تزال تنقل فى كتبنا الحديثة محرفة عن نصوصها الأفرنجية على خلاف كبير فى رسمها بين الناقلين ، ولما كان معظم هذه الأعلام يرجع فى الواقع إلى أصول عربية ترجمت عنها الأعلام الأفرنجية المقابلة أو حرفت ، فقد رأينا أن نثبت فيما يلى ، أهم الأعلام الجغرافية الأندلسية بأصولها العربية ومقابلها الأفرنجى ، وأن نضيف إليها بعض الأعلام التاريخية التى وردت فى الكتاب ، ومقابلها العربى ؛ وقد آثرنا أن نكتب الأعلام الأفرنجية برسمها الإنكليزى ، نظراً لأنه أكثر شيوعا من غيره ، ولأن الفرق بينه وبين اللغات الأخرى يسير واضح .

Alédo حصن لبيط أو حصن ليط
Algarve الغرب (غربى الأندلس)
Algeciras الجزيرة (الجزيرة الخضراء)
Alhambra الحمراء (قصبة الحمراء)
Alicante أليقنت
Almeria ألمريّة
Almodavar المدوّر
Almohades الموحدون
Almoravides المرابطون
Almunecar المنكب
Alpuxarras-Alpujarras البشرات
Alphonso
أدفنش — أذفنش — ألفنش
Alphonso of Aragon
(Alphonso Sanchez)
ابن ردمير أو رذمير الفرنجى
Alphonso Henriquez ابن الريق
Alphonso Raimundez
أدفنش بن رمند أو السليطين
Alpuente البونت
Alvar Fanez البرهانس
Andujar أندوجار
Aragon
بلاد أرغون ، أرغن ، رغونة ،
الثغر الأعلى

Asturias أشتوريش
Atlantic Ocean
البحر الأعظم ، البحر المحيط ،
بحر أقيانس ، بحر الظلمات
Avila آبله
Badajoz بطليوس
Baza بسطه
Baeza بياسة
Balearic Isls الجزائر الشرقية
Barcelona برشلونة ، برشنونة
Basque (Navarra)
نبرّه ، بلاد البشكنس
Beja باجه
Biscay بسكونيه ، بسكونس
Bermudo برمند
Barbastro بربشتر
Bobastro ببشتر
Burgos برغش
Cadiz قادس
Calahorra قلهرّه
Calatajud قلعة أيوب
Calatrava قلعة رباح
Carmona قرمونة
Carcassonne قرقشونه
Castellon قسطلون

Castile	قشتالة
Catalonia	قطلونية
Coria	قورية
Cerdagne	شرطانية
Ceuta	سبتة
Chinchilla	جنجاله ، جنجيله
Cid Campeador	السيد الكنبيطور ، القنبيطور ، لذريق القنبيطور
Cintra	شنترة
Coimbra	قُلُمْرية ، قلنبرية
Cordova	قرطبة
Cortes	البرلمان الاسبانى
Cuenca	قونقة ، كونكة
Denia	دانية
Daroca	قلعة دروقة
Don Pedro	دون بطره
Duero	نهر دوره
Ebro	نهر إبره
Ecija	إستجه
Elvira	إلبيره
Evora	يابره ، يافوره
Fez	فاس
Ferdinand	فردلند
Fraga	إفراغه
Frangolis	فرنجولش
Franks	الفرنج
Galicia	جلّيقية أو غليسية
Garcia	غرسية
Gibraltar	جبل طارق ، جبل الفتح
Goths	القوط
Granada	غَـرناطة
Guadalajara	وادى الحجارة
Guadalquivir	وادى الكبير ، النهر الكبير
Guadarrama	وادى الرملة
Guadiana	وادى يانه ، وادى آنه
Guadix	وادى آش
Hospitallers	الاسبتارية
Huelva	ولبة ، أونبة
Huesca	وشقة
Huete	وبذه ، وبذى
Ivica	جزيرة يابسة
Jaca	جاقة
Jaen	جيّان
Jativa (Xativa)	شاطبة
Jerez (Xerez)	شريش
Jerez Alfronterra	شريش الفرنتيرة
Lausitania (Portugal)	البرتغال

Leon	ليون
Lerida	لاردة
Lisbon	أشبونة
Loja	لَوْشة
Lorca	لورقة
Madrid	مجريط
Malaga	مالقة
Maquada	مقودة
Mauretania	المغرب الأقصى (مراكش)
Medinaceli	مدينة سالم
Mequinenza	مكناسة (بالأندلس)
Merida	ماردة
Mertola	مارتلة ، ميرتلة
Minorca	جزيرة منورقة
Morocco	مَرّاكُش
Mozarabes	النصارى المعاهدون ، المعاهدون
Mudijares	المدجنون
Mugavares	المجاورون
Murcia	مرسية
Murviedro (Sagunto)	مربيطر
Narbonne	أربونة
Navarra (Basque)	نبرة ، بلاد البشكنس
Niebla	لبلة
Normans	الأرذمانيون ، المجوس ، النورمانيون
Ocsonoba	أكسونبة ، أكشونبة
Oran	وهران
Orihuela	أريوالة ، أريولة
Pamplona	بنبلونة
Paterna	بطرنة
Pelagius	بلاى ، بلايو
Pyrenees	جبال البرت ، البرتات
Ramiro	رذمير
Raymond Berengar	رمند
Rhône	نهر رذونة ، وادى رذونة
Roda (Rueda)	حصن روطة
Roderic	لذريق ، رذريق
Roger	رجار الفرنجى
Roncesvalles	باب شزروا ، باب الشزرى
Ronda	رندة
Sacralias, Zallaca	الزلاقة
Salamanca	شلمنقة ، سلمنقة
Sala	سلا
Saltis	جزيرة شلطيش
Sancho	شانجه ، شانشه
Santa Maria Algarve	شَنْتَمَرية الغرب

Santarein — شنترين

Santiago — شنت ياقب

Saragossa — سَرَقُسطة

Segovia — سقوبية

Segura — نهر شقر

Sevilla — إشبيلية

Sidonia (Medina) — شذونة ، مدينة شذونة

Sierra Morena — جبل الشارات

Sierra Nevada — جبل شُلَّير

Silves — شِلْب

Tagus (Tajo) — نهر تاجه ، تاجو

Tangier — طنجة

Tarifa — جزيرة طريف

Tarragona — طَرَّكونة

Templars — الداوية (فرسان المعبد)

Teriana — طريانة

Toledo — طليطلة

Tortosa — طرطوشة

Toulouse — تولوشة

Tudela — تُطيلة

Tudmir — تدمير

Tunis — تونس

Ubeda — أبدة

Ucles — إقليش ، إقليج

Valencia — بلنسية

Valladolid — بلد الوليد

Viseu — بازو

Xativa (Jativa) — شاطبة

Xenil — نهر شنيل

Xeres (Jerez) — شريش

Xeres Alfronterra — شريش الفرنتيرة

Zamora — سمورة

فهرس الموضوعات

الكتاب الأول

تاريخ الأندلس منذ سقوط الدولة الأموية

إلى مقدم المرابطين

صحيفة

الكتاب الثالث

اضمحلال سيادة المرابطين

فى عصر القيصر الفونسو رعونديز وقيام مملكة البرتغال

صحيفة

الإشراف اللغـوى : **عــزة شـــبل**
الإشـراف الفنــى : **محسن مصطفى**

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة